روايات BASIM

باسم خندقجي

أنفاس امرأة مخذولة

مدونة أبو عبدو

الأهلية

الأهلية للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأول (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردن
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

أنفاس امرأة مخذولة / رواية عربية
باسم خندقجي / فلسطين

◆

الطبعة العربية الأولى، 2020
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، هاتف 95297109 7 00962

لوحة الغلاف: كاثي كولفيتس/ ألمانية

◆

الصف الضوئي: إيمان زكريا خطاب، عمّان، هاتف 95349156 7 00962

All rights reserved.No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر.

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: (2020/1/437)
الترقيم الدولي: ISBN 978-9957-39-329-8

باسم خندقجي

أنفاس امرأة مخذولة

الأهلية

استهلال طارئ...

لا أعلم.. هل كل ما هو مكتوب ما بين دفتيْ هذه الرواية قد حدث حقًا.. أم أنني اختلقتُ ما ستطالعونه بعد لحظات؟

فأنتم مثلي تمامًا ما أن تنتهوا من القراءة حتى تسألوا أنفسكم بألم وسخرية هذا السؤال.. ولذلك لم أنوّه قائلاً كما يقولون إنّ الأسماء والشخصيات والأحداث محض خيال وصدفة، إذ إنه وفي بلادي فقط ثمة خيالي معقول وثمة معقول خيالي.

ودمتم

باسم

كنية الإسم المُذكَر حركتها مرفوعة دائمًا..

الإهداء

إلى أسرتي شمس كلماتي التي لن تغيب أبدًا.

وإلى أخي يوسف الذي لطالما تعب وسهر على الكلمات

وإلى صديق العمر أحمد العارضة الذي لم يمسّ كلماتي سواه بالشغف والتدقيق المرهف لعجلتي في الكتابة.

ثم إلى الخيزران بنت سبأ بطلة روايتي السابقة وملهمتي دومًا..

وإليكِ أنتِ سيدتي مهما كنتِ ومهما غدوتِ.. إن كنتِ في الأرض أو في السماء.

باسم

القسم الأول:

محاولات مجير العبثية واليائسة

لرواية مآسيه وابتهالات أمه الغائبة

«كأنها أمي»

سأطلق على اسم محاولتي الروائية أو الأمومية، في خضم بحثي عن أمي أصل ضياعي، «كأنها أمي». أعجبني هذا العنوان. خاصة عندما تعلمون أنه من بنات أفكاري، ولكن شاكر صديقي الوحيد في هذا العالم كما هو الوحيد الذي ينتقص من قيمتي الكتابية أصرّ ويصر دائمًا على اختلاق ألف مسوّغ للإساءة لملكتي الإبداعية، حيث قال إنّ العنوان غير مناسب كما أنه مبتذل لا بل مسروق لأنه يشبه إلى حد كبير عنوان رواية أخرى لروائي آخر ولا أزكي نفسي عليه لا سمح الله إسمه إلياس خوري، كتب رواية قبل روايتي أو شبه روايتي أو خرابيش روايتي اسمها «كأنها نائمة»، ولكن بحق السماء أجيبوني ما هو وجه الشبه بين عنواني وعنوان هذا الكاتب؟

حسنًا..

لن أسمح لشاكر حتى وإن بُحت له بحكايتي وآلامي بأن يتفرد في تمثيل أمي برواية، فأنا صاحب الجرح والرحم، لذلك سأحاول، فما رأيكم يا جمهوري العزيز؟

سأحاول فأنا أمتلك الحرف ونوعية خط جيدة، وسأسطو على ما استطعتُ إليه سبيلا من المفردات والمعاني والجمل المتوفرة في نتف

الصحف والكتب الممزقة، والأهم من هذا كله، سأقوم باختلاس أفكار ووجهات نظر شاكر صديقي الرائع لا بل صديقي المثقف جدًا.

سأبدأ افتتاحيتي -وافتتاحية هنا هي صفة شاكرية- هكذا بمشهد ماساوي دموي، فانا وأنتم ونحن جميعًا أبناء الدماء.

كيف لم ألمحها سوى ظلًا باهتًا مرتعشًا، بقيد من مذلة وخنوع في بيت قيد الإنشاء بإحدى ضواحي المدينة المنكوبة صيفً ودمار؟ كيف لم أنل منها سوى صوتها المتوسل المذعور وبُحّة الخوف: مشان الله.. يريدون قتلي، أنا مظلومة، ساعدوني.

عيناها سوداوان كمصيرها رأيتهما من شقوق الجدار، على وشك الانطفاء، والإغفاءة الأبدية، التقتا بي، ألقتا عليّ صلاتها الأخيرة فانتفضتُ مرتدًا إلى الوراء لأتعثر، فإذا بأخي «سليم» ابن أمي وأبي ينبعث فجأة أمامي متجردًا من الرأفة، قابضًا على خنجرٍ حادٍ في يده اليمنى لكي ينهرني ويصرفني من لحظة لطالما ترعرع على انتظارها، حاول صرفي لا بل كشّي كخروف صغير فرفضتُ متسائلًا بعناد: من هي.. من تكون هذه المرأة الحلوة؟ فلم يجب احتار في أمره. لوّح بالخنجر ثم حكّ بنصله الحاد رأسه كان خائفًا زائغ العينين مرتعشًا برفقة ذلك الرجل الضخم المقنّع بقناع استمدّ قتامته من تلك العصيرة الحرام.

انقضّ عليّ أخي ضربني ثم دفعني إلى الوراء بشدّة لأقع متدحرجًا على درجات سلّم البيت الملعون، ثم ولّيت هاربًا متعثرًا بوجهٍ دامٍ وذراع مكسورة. كنتُ أعدو لا يدفعني ألمي بل خوفي من وجه أخي المسروق من الرحمة والشفقة، أركض وعيناها تلاحقاني، تتشبثان بظهري، بشعري أن عُدْ أنقذني، ولكن كيف لفتى عمره أحد عشر عامًا لم يألف حياة إلاّ المزبلة والتشرد والتسوّل أن ينقذ امرأة من سطوة أخيه الأكبر «سليم»؟ امرأة انبثقت فجأة فاقتفيت أثر عطرها وعبقه الذي لم يزل يسكنني منذ عشر سنوات في إحدى نواحي ضاحيتنا البعيدة، وركضت كنت أركض ما زلت أركض وسأركض.

مرحبًا ...

لأنكم من هذا العالم ولأنه خُلق لكم، فدعوني أنا الذي خُلقت من أجلكم وفي سبيل أن تُعبّروا وتكتمل لديكم مشاعر الشفقة والدهشة والإثارة، وكأن تقولوا مثلاً «الحمدلله أننا لسنا من طينته وأمثاله» دعوني لا بل إسمحوا لي أن أرافقكم قليلًا من منطلق التسلية والإهتزاز والقشعريرة في عالمكم الأنيق المُدلّل هذا، ولهذا أرجو أن تسمحوا لي في البداية أن أحييكم بتحيّة المجالدين أيام الرومان قبل إقدامهم على مصارعة الموت «الذين سيموتون يُحيّونكم».

يقضي بنو آدم تسعًا في الظلام داخل بطون أمهاتهم، في لُجّة العماء ورحم الحياة، أما أنا فقد تفوقت عليهم جميعًا، إذ انني لم أزل حتى الآن أعيش في ظلام أمي، في ظلمات رحمها كأنها لم تلدني، كأنني لم أكن، من أنا؟

أنا الذي لن «ألطم» كثيرًا، لن أندب حظي بألم ومآسٍ مسرحية في هذه الحياة، فإذا كان لا بد من حطام وتكسر فليكن وأنا سعيد وعابث وساخر ومجنون، لا أريد أن أكون حزينًا ومفجوعًا عندما أتحطم وأتوه في أعماق جرحي بل أريدني ضاحكًا وعابثًا وماجنًا، إذ ثمّة نوعان من الناس في هذا العالم، النوع الأول يزرع الأشجار ويتسلّقها رافضًا النزول عنها، وأما النوع الثاني فإنه يزرع الأشجار أيضًا ولكنه ما يلبث أن ينزل عنها ثم يقتلعها من جذورها لكي يرتاح من المواقف المذلّة والمحرجة والإصرار على قرارات وقناعات لربما كانت صحيحة ولكنها جاءت في الزمن الخاطئ، أو لربما كانت خاطئة وجاءت في الزمن الصحيح، وبالتالي فإنه لا يوجد ثمة من لا يزرعون ولا يحزنون.

أما أنا فيما يتعلّق بي، فإنني ومنذ البداية قمتُ بالتبوّل على شجرتي الصغيرة ثم أحرقتها إلى حين انبعاثي أنا شجرة، أما وهذه الحياة لم تزل تكافئني بالنكران وانسياح الهوية في ميادين هذا العالم القضيبي فإني والله لن أتنازل عن حقي بدماري والمزيد من الضياع.

«السخرية هي ملجأ الأوغاد» سكنتني هذه العبارة الصاخبة التي تفوهت بها ممثلة أمريكية شقراء، اسمها صعب جدًا كما هو اسم فيلمها الذي شاهدته برفقة صديقي الوغد شاكر، في إحدى دور السينما الواقعة في القدس الغربية، كنت أتابع الفيلم بشغف كما لو أنني مرجع لغوي لتلك اللغة الأمريكية أو كما كان شاكر يُصحّحني دومًا «الإنجليزية».

- بحياة ربّك يا شاكر ترجم لي هذا المقطع بالتحديد الذي قالته لابنها؟

سألته بإصرار طفولي، فأنا حسب مقاييس منظمة «اليونيسيف» ما زلتُ طفلًا. نظر إلي بتعاليه المحبّب لدي هامسًا بغضب:

- اللعنة عليك وعلى الذي جاء بك إلى السينما، ألا تعلم أن هذه الشاشة الضخمة هي وحدها التي لها حق الكلام بصوت مرتفع وسط هذا الحشد الهائل من الذين لا يتكلمون لغتك اللعينة؟

- فهمستُ قائلًا له بتوسلٍ مُختنقًا من الفشار المحشو في فمي: قل لي أرجوك.

- حسناً.. إنّها تقصد أيها الوغد أنّ السخرية هي ملجأ الأوغاد.. وهذه آخر مرة تسألني بها فهمت؟!

شاكر ابن العائلة الثرية الذي أمسك بي متلبسًا أثناء محاولتي سرقة سيارته، لتتلبسني صداقته العجيبة، إثر ذلك المساء، لا تقلقوا سأحدثكم

عن صديقي الوحيد في هذا العالم بالوقت المناسب، ولكن دعوني الآن أطلعكم على المزيد من مطالع هذا الحديث الذي سيكون حسب اعتقادي المتواضع والبريء شيقًا وممتعًا ومفعمًا بالشتائم التي سأتلقاها منكم، ولكن لا تقلقوا فلن أحقد عليكم فمن أنا لأكرهكم، أنا مجرد كائن متآكل متحلل عفن، برغوث صغير تافه بعد أن ضاجعته مستنقعات الدنيا فتقيأ كل ما فيه من قلب ومشاعر وهوية.

يقولون. أو بالأحرى أنا الذي أقول إن اللحظات العظيمة التي يطلق عليها العديد من الناس -وأنتم أولهم- ماضيًا هي لحظات لا تفوتنا وتمضي بل تسكننا وتعيش بنا لتغدو التاريخ الحي، وأنا التاريخ الحي الهامشي الذي يروي سيرة الساقطين عن متن البطولة والمجد، فمنذ تلك اللحظة السينمائية المكتظة بالذعر والخوف والغدر، وأنا أشعر بأنني وُلدت من جديد من رحم ما، من رحمٍ حارٍ لزج، وها أنا الآن لا أشاهد ولا أتجرع سوى الدم مندلقًا على رأسي، وفمي المفتوح على احتمالات الأرض والسماء معًا، منذ الدم وأنا أزحف محتضرًا هكذا.. منذ ما يقارب العشرة أعوام.. منذ رام الله وصيف آب 2002. اللعنة على صيف الأرض ونزق الأرض ودماء الأرض.

هذا أنا.. نعم أنا الوحيد المقفّى على وزن الجرح.. باتقان كتبوني بيتًا في مطلع قصيدة العهر ثم حبسوني داخله، حاشرين المفتاح في مؤخرة الدهر الهارب من الرحمة، ونسوني، لا بل تجاهلوني كأني ابن حرام لقيط من ظهر مغتصب ورحم من؟

رحم من يا إلهي رحمتك يا الله؟

***

حسنًا..

هل كان الشاطر حسن الذي يرتع في الحكايات الشعبية مثقفًا، أو صاحب ايديولوجيا لطالما تفوه بها شاكر محاولًا شرحها لي؟

لا أعتقد وبالتالي فإنني لن أدّعي علمًا ولا شرفًا ولا كرامة، أنا بطل ملحمي من نوع آخر، من الهامش والإنكار والانكسار والانتهاك، أليست الأرض هي نتاج لصوت الهتكِ والتفتق؟

في لحظات سكره كان شاكر يسألني ضاحكًا إثر فشله بإقناعي في كتابة وجمع أشلائي داخل رواية من تأليفه هو:

- **«هل ربح الغول يومًا في مؤامراته داخل الحكايات الشعبية؟ لماذا هو الخاسر دومًا؟»**

في الحقيقة.. إن الحكايات الشعبية تُروى للخانعين المساكين القابعين في سجون ذواتهم الذليلة، لأن الغول، غول هذا الدهر داخل الواقع المتوحش هو الرابح دومًا، هو المسيطر الذي يغتال فينا أسمى ما فينا ملقيًا بنا في مهاوي الظلام والآلام.

أذناي خاطئتان، سأقطعهما لأنني سمعت الصوت المستغيث ولم أغثه، عينان زانيتان سأفقؤهما لأنني رأيت العينين السوداوين، المتعلقتين بي وبطفولتي ولم أنصرهما.

آب 2002 زمن رام الله الخاطئ سأبصق عليه. سأحرقه وأحرقني. سأستنشق دخاني لكي أختنق بجبني ومذلتي.

يا آب اللّهاب.. مخازن بارود تتفجر لهبًا وغضبًا في وجهي أنا المصاب بعطب المعنى وخراب الجدوى، لم أحفل بحياتي لم أحتفِ بي، لم تُحلْني مأساتي إلى شاعر يكتب قصائد الحب لأمه وأبيه وعشقه ووطنه.

هنا..

أزهق ذاتي ببياضي المتاح، مرتع سري أخط عليه خطيئتي بلؤم وإصرار وحماقة وتيه، لا بل حفرة سوداء.

سوداء أعمق من هاوية حزني، يتقاذفني موجها القاعي، يلتهمني بأنيابه الشرسة، يلوكني ثم يلوكني، ثم يقذفني لا يقذفني بل يزدردني ثم يهضمني ثم يخرجني فضلات، خراء آدمي لا يصلح حتى سمادًا للأرض.

على مشارف أمي وزمن أمي أغوص في وحلي أكثر، وأشتمُّ رائحتي النتنة وألوك طحالب خطيئتي السوداء مستنزفًا كل ما بي من قلب وعقل وجسد وروح مهترئة، على المشارف، مشارفك أمي، قررتُ أن أعد ذاتي بترتيلة من وجدك وعشقك مقتنعًا تمام الاقتناع بأنكِ أصدق وأطهر وأجمل ما ألمّ ويلمّ بي، طوبى لي بكِ، وطوبى لكِ يا ابنة البحر والقمر، واللعنة اللعناء على كل الذين دنّسوا اسمك وازالوا عنكِ طُهر السماء.

***

«مجير» هو اسمي.. تصوروا هذه المفارقة الساخرة!

وانا الذي سأدّعي النوم الآن.. سأحلم.. سأخوض في كوابيسي وكوابيسكم.. سأتلو عليكم كل الحكاية أو بعضها أو نتفًا منها، ولكنني سأكشف لكم عن جوانبكم السرية، عن بعض ما بكم، عما تشتهونه وما تخافون وتهربون منه وترفضون الوقوف أمام مراياكم لمواجهته، إذ كيف تجرؤون على مواجهة ذواتكم؟ لذلك ها أنا الآن أحطم المرايا، كل المرايا، لتروني أنا..

كما قلتُ لكم مجير هو اسمي، وأبلغ من عمري الآن ما يؤهلني لتلاوة الحكاية عليكم، لا لن أتلو عليكم سيرتي، فمن أنا لأزجكم في دهاليز معتمة وقذرة لا تحتوي على أدنى صفحة من أي كتاب سماوي، لا لن أفعل هذا، بل أزجّ بكم في دهاليزكم أنتم أو دهاليزنا جميعًا. فما الضير من البوح والكشف لكم؟

***

لا مكان لي، ليس ثمة تأصل للمكان في نفسي، مقذوف أنا خارج الزمان والمكان، فالذي فقد رحمه وجوهر بدنه ومهده فإنه حتمًا فقد أي إحساس بالحياة بمعانيها كافة ليغدو لاجئًا عند كل حفرة أو رحم أو بئر بلا قرار، ليتخبط ويتعثر منذ اللحظة الأولى التي لم ينطق بها بالاسم الأسهل والكلمة الأجمل: ماما أو يمّا، بل نطق بالسؤال المهترئ من شدة الدمع: أين أمي؟

لحظة أرجوكم.. أنا أصرّ على حقي بعدم جعل ما أنا مقبل عليه من ثرثرة بوح فوق جرحي بكائية مفجعة عنوانها مقتبس من العناوين المحزنة لدرجة الابتذال للمسلسلات التي تعرض في شهر رمضان المبارك، لا أبدًا إذ ان كل ما في الأمر هو أنني أريد أن أزجّ بنفسي وقصة أمي في متون التاريخ لأعيد بناء ذاتي وهويتي من جديد، وهذا للصدق كلام كبير عليّ، ما جناه عليّ شاكر ولم يجنه عليّ أحد، بعد أن تعثرت به وبصداقته، وذلك عندما قرر مساعدتي قائلًا إنّ ضميره الإنساني يملي عليه توعيتي وتنمية قدرتي على فهم الواقع، كان شاكر يريد «نفضي»، كأنني كنتُ تسليته الخفية، غير أنني لا أريد شيئًا من هذه الدنيا سوى نور أمي لكي ينير لي درب حياتي الظالمة هذه. كان شاكر يقول لي إذا أردت أمك يا مجير عليك أولًا أن تدرك دورك التاريخي، فكنت أجيبه بأنني لا أبحث إلاّ عن أمي فقال

لي: يقول ماركس» إن الشعب الذي يبحث عن كسرة خبز لا يمكن أن يُهزم»، فقلتُ له متهكمًا مذعورًا عن هذا الإنسان الذي ألقى باسمه الغريب في وجهي: ولهذا أنا أبحث عن أمي يا صديقي لكي تخبز الخبز للشعب. ألا لعنة الله عليك وعلى ألغازك العجيبة.

***

هل تفهمون معنى التشظي، وهي كلمة أخذت من وقت شاكر الشمل الكثير لكي يدخلها إلى مخي الشقي؟

التشظي:

أن أولد هكذا كومة فوضوية متداخلة من المشاعر والأحاسيس المتناقضة تتدحرج فوق خراب الدنيا متراكمة فوقها قذارات العالم وآلامه لتكبر وتكبر ككرة الثلج، هكذا أنا جئت إلى العالم لأتشظى وأتناثر وأتمزق فوق مسرحه الشاسع المخيف، لا أتوسلكم الحزن والمواساة والشفقة بل أتوسلكم مواجهة أنفسكم، أنا مجير ما حدث ويحدث معي كأنه فيلم، لحظات سينمائية تأخذ الأنفاس، ولكنني لست فيلمًا، أنا حقيقة لا يوجد بها مؤثرات أوخدع سينمائية بل واقعية مليئة بالحركة والدراما والإثارة والضوء.

بربّكم أسألكم الآن هل تعتقدون أنّ الإنسان يولد بريئًا؟

لا أبدًا.. لا يوجد براءة.. لا يوجد طفولة بريئة.. الأطفال ليسوا بريئين، يُولد الإنسان إما حقيرًا أو لئيمًا أو خبيثًا وعندما يكبر ويجرح أحدهم أو يحطمه فإنه يقف أمام المرآة قائلًا لنفسه بتعجب وأسف: أوه يا الهي كم أنا حقير.

التشظي..

هو الغياب.. هو هوية ممزقة السعي في خيمة مهترئة تعصف بها كل عاهات وأمراض الدنيا.. هو الانتهاك الصريح والانحطاط وكفى.

ما الذي أفعله الآن سوى صخب مسرحي موسيقي لا جدوى منه سوى التصفيق الحار أليسّ كذلك؟

حسنًا..

أصبنا أنا وشاكر بالصداقة المتينة والأخوّة العميقة، عندما كنتُ أنا على وشك سرقة سيارته الفخمة الرباعية الدفع من نوع بي أم دبليو التي مازلت أشتهيها حتى الآن ملكًا حلالًا لي، في ذلك الوقت وبعد احترافي للسرقة خاصة سرقة السيارات من داخل «إسرائيل»، كنتُ قد حددتُ وجهتي وفريستي الليلية المركونة في شارع يافا الواقع في القدس الغربية والمشهور بمحالّه التجارية الفاخرة ومقاهيه ونواديه الليلية المكتظة بالرواد.

ذلك المساء الواقع في أواسط تموز 2010 كان مميزًا لأنه احتضن نهائي كأس العالم لكرة القدم، وبما أنني أحترم الوقت وأُقدّره أشد تقدير فإنني لم أكن مُطلعًا على تفاصيل هذه اللعبة ومن هما المنتخبان اللذان يلعبان في النهائي، كل ما كنتُ مطلعًا عليه هو الشارع الخالي من المارة الذين كانوا مُنشغلين بمتابعة لعبة النهائي راكنين سياراتهم الفارهة بكل أمان على طرفيْ الشارع وفي المواقف العامة، فكانت فرصتي ذهبية بسرقة أكثر من سيارة، ولكنني ما إن لمحتُ غاليتي السمراء مركونة بشموخ حتى انتفض قلبي مولعًا بعشقها هي التي لطالما استعصتْ عليْ وعاقبتني باكتشاف أمري أكثر من مرة زجّت بي في سجن الأحداث عندما كنتُ

مبتدئًا متخبطًا، غير أن هذه المرة كانت لحظة حميمية صادقة مفعمة بالإثارة واللقاء أخيرًا في شارع يافا، دنوتُ منها بحذر شديد، حوّطتها بيدي وأنفاسي منتظرًا اللحظة المناسبة التي سأفضّها بها، وما إن انهمكتُ في عملي أقوم بتعطيل جهاز الإنذار من خلال حرق دائرته الألكترونية، بصاعق كهربائي- هل تريدون أن تتعلموا سرقة السيارات بثلاث خطوات؟ أليس هذا عنوان رائع لكتاب من تأليفي، حتى اقتلعتني من انهماكي يدان قويتان أطاحتا بي إلى جانب السيارة، للصدق أقول لقد شلّتني المباغتة التي حلّتْ عليّ بصاعقة رجل انهال عليّ بالشتائم والكلمات العبرية جدًا في ظل دهشتي وصمتي التامين، وهذا ما أغراه هو الذي أنقضّ عليّ لينتشلني عن الأرض مطبقًا على كتفيّ، كان طويلًا بجسم متناسق فيه عضلات بأعلى قدر ممكن من الفتوّة والعنفوان، حليق الرأس مُستدير الوجه بنظارة طبية ذات إطار أبيض متماهٍ مع بشرته البيضاء، قدّرت عمره بخمسة وعشرين عامًا قياسًا بعمر أخي سليم، كان أنيقًا وأنا كنت ضئيلًا جدًا أمامه، وبالتأكيد كنتُ أعتقد أنه يهودي انتهز هذه الفرصة الخالية من الرأفة والمارة لكي يضربني أنا السارق التافه قبل أن يسلمني للشرطة، وأنا صامت خانع لا أتكلم بل كنتُ أعاتب سيارتي البهية على ما فعلته وتفعله بي من إذلال وفضائح، إلى أن تكلم هو فجأة بلغة عربية ذات لهجة مقدسية مُتهكمًا:

- من وين إنتا ولا؟

زال ذعري وتبدّد تخبطي وكل ما احتلني في تلك اللحظات حين سمعته يشتمني بالعربية، استرخيتُ قليلًا فهو بالنهاية عربي مثلي تمامًا – لا، ليس مثلي تمامًا، بل ليس مثلي أبدًا أجبته متلعثمًا مبحوحًا:

- أنا من رام الله.. رام الله جيرانكم.

- جيراننا وجئت تسرق خيراتنا.. ألا تعرف أن الذي ينطّ على شجرات جاره الله ما بوفّق زرعاته؟

أفلت ضحكة صافية بوجهي ثم حدق بي قائلًا ما بين الجدية والتهكم:

- حسنًا.. أعلم أنك اعتقدت أن السيارة يهودية وصاحبها يهودي.. أنا لا أريد أن أزجك في مشاكل وقصص الشرطة.. هيا اذهب من هنا وإذا أردت أن تسرق سيارة هذه الليلة فاذهب إلى «تلبيوت»، فهي خالية تمامًا في هذه الساعة.

فاجأتني سخريته وتحوله المباغت من مهاجم إلى متضامن، فشكرته قائلًا وأنا ألملم نفسي وهندامي:

- لا تلبيوت ولا تلفريك سأعود الآن إلى رام الله مشيًا.. شكرًا على معروفك يا أخي.

وما إن انسحبت من أمامه بخطىً سريعة حتى هتف قائلًا:

- انتظر.. تعال.. لا تخف.. لو أردتُ أذيتك لأذيتك.

فتوقفت في حيرة تامة من أمري أمام هذا الشاب الغريب العجيب، إلاّ أن لحظة سكينة حلّتْ عليّ منبعثة منه، عدتُ أدراجي إليه، فمدّ يده ليصافحني قائلًا:

- أنا آسف لأنني تهجمت عليك ولكنك كنتَ على وشك سرقة سيارتي.. أنا اسمي شاكر المنيفي من بيت حنينا.

كنتُ على وشك سرقته فسرقني هو بصداقة مُختلّة ورائعة ونادرة للدرجة التي أروي فيها الآن حكايتي عليكم، فشاكر كان ملجئي الوحيد والأقوى بالأحرى كان أخي الذي لم تلده أمي التي لم أعرفها أبدًا، إذ فهو

الذي نبهني وجعلني أدرك فيمًا كثيرة في حياتي التي لا تُذكر، إذ أعدتُ الاعتبار لضياعي وجرحي وانكساري وخرابي الأكبر وجمعتهم في حفل صاخب وحدي أرقص فيه وأتجرع في كل لحظة مرارة الفقد ولا جدوى من التقدم في ميادين حياة لم أخلق لها ولم تُخلق لي، لأتعرف برفقة صديقي الأوحد على مفاهيم ومصطلحات غريبة كالتشظي.

***

حسنًا.

لن أطيل عليكم كما قلتُ لكم منذ البداية، لكن إنفجاري المقبل بحاجة إلى توطئة ومقدمات وأنفاس طويلة، صدقوني لا أريد أن أهزّكم منذ البداية، لا أريد أن ألقي عليكم دهشتي وضفائر أمي، لا بل أريد أن أشرّع لكم أبواب الدهاليز مُرحبًا دون أدنى توسّل واستجداء لأُقحمكم في قصتي، لا فأنتم أحرار، بإمكانكم الآن التقهقر هاربين من أمام كلماتي والعودة الى ممارسة حياتكم ويومياتكم وأوهامكم الالكترونية كما لو أن شيئًا لم يحدث، غير أنني في نفس الوقت أدرك تمامًا أن ناقوس العودة وإنْ دقّ الآن فإنكم لن تستجيبوا لنداءاته فأنا العودة، نعم لا تسخروا مني، أنا العودة المستمرة إلى البدء، هكذا هو زماني حاضرٌ تائه يتخبط فوق جراحه مُعذبًا في متاهة ماضٍ وأماني مستقبل دون أدنى هوية، ولكي أوضح أكثر، كيس بلاستيكي ما إن يمتلئ هواءً راقصًا في الأفق حتى يتمزق ويهوي من حالق الأحلام والأماني الشاهقة نحو واقع ركامي إسمنتي ناتئ.

واقع مكون من أبٍ يحترف الخمر والحشيشة، برفقة زوجة أب تدعى «أنيسة» الشجرة الخريفية الملعونة التي لا تثمر، ألا لعنة اللعناء عليها، تزاول مهنة التسول التي اختارها أبي لها بعناية لتكون مهنة أسرتي

التاريخية، اختارها أبي «صابر البشيري» لي ولأخي الأكبر سليم وشقيقتي البهية فاطمة، هذا هو واقعي الذي تعرفت عليه عندما كنتُ على مشارف السادسة بعد هجرتنا من قريتنا «عين المرجة» إلى المدينة الكبيرة سعيًا من أبي وراء تطوير مهنة العائلة المزرية والمخزية، وفي سبيل إبقائه في أعالي الخمر والحشيشة.

مدينتي الأولى هي رام الله، مدينة تزحف بريفها وأبهتها الصناعية عاصمة سياسية لدولة واقعية- كما يقول شاكر وأعدم نظري إذا فهمتُ شيئًا مما قال- كافأتني بالتشرد والتسول وكافأتها أنا بالتقيؤ عليها والرفض والكره لأنني لم أنتمِ إليها، إذ ليس بها أشجار ولا أزهار ولا رائحة لأمي تعبق في أرجائها، فقط رائحة أبي والبيت الجديد المحشور في ثنايا حي «أم الشرايط» الواقع شرق جنوب رام الله، ذلك الحي الذي لم يدخر إسمنتًا ولا حديدًا ولا عبثًا ولا بشرًا إلاّ وحشرهم فيه. بيوت وشقق سكنية مقامة فوق بعضها البعض. متراكمة ومتراصة محشورة بأي شكل وطريقة لتكوّن عالمًا مختلط الأشكال والألوان، هذا هو العالم الذي اختار أبي مكانًا فيه ليكون قاعدة مناسبة لممارسة رذائله وثمالته ومشروع تسوله الناجح، كم هو عبقريٌ هذا الرجل إذ إختار المزبلة ديكٌ هو فوقها ونحن دجاجاته الواهنات ينتف ريشنا كما يشاء.

لقد صَدَقَ حقًا الذي أطلق عليها «أم الشرايط» شاكر صديقي المستحوذ دائمًا على المعرفة والتعليقات اللاذعة شرح لماذا أسموها بهذا الاسم، ولكني نسيت أو بالأحرى تناسيتُ سبب التسمية، بيد أنني أذكر أنهُ قال لي إنها إحدى إفرازات سلوى أو عفوًا «أوسلو» وأنا مدرك أنكم مدركون تمامًا بأنني لا أدرك ماذا تعني أوسلو وبأنني أحبّذ عليها المزيد من التهتك ما دمتم أنتم يا حضوري المهيب تدركون ماذا تعني خاصة أنكم تعلمون

أن حي أم الشرايط يقع ما بين جنوب مخيم الأمعري للاجئين وشرق حي «الماسيون» الشامخ بثرائه وفخامته، للدرجة التي يمكنكم أن تعتقدوا مطلقين لخيباتكم العنان بأن «أم الشرايط» هي الأبنية اللاشرعية للحظة حرام مجنونة جمعت «الماسيون» «بالأمعري».

أما الجميل في قوام أم الشرايط أن «شرايطها» لا تُخفي نتوءات جسدها الإسمنتي فلا يوجد حميمية فيها ولا خصوصية، صحيح أننا حشد من الغرباء نقطن خاصرة رام الله وأن معظم سكان الحي لا يعرفون بعضهم البعض ولا يفضلون ذلك أيضًا، إلاّ أنّ مجريات وقصص أم الشرايط مكشوفة ومفضوحة دون أن يبوح بها أحد، حيث يجري تداولها وتناقلها على الألسن من خلال الاستماع إلى أحداثها المباشرة بقصد أو بغير قصد، فأم الشرايط عليها السلام صريحة في هذا الجانب ولا تخشى من الأبنية الزائفة والمجاملات الكاذبة، هي هكذا دائمًا زفّة لكل ساكنيها المترامين والمتراكمين فوق بعضهم البعض .

لقد كان البيت الذي اختاره أبي قصدًا يقع في أقصى غرب الحي محشورًا وسط كتلة إسمنتية هائلة، وللصدق هو ليس بيتًا، هو مجموعة مخازن تقع تحت أسفل بناية سكنية حديثة الإنشاء، سوّاها أبي وهيأها غرفًا بائسة للمعيشة والنوم بما يتناسب مع رغباته وأنيسة، لم يكن لدينا باب وجرس كبقية أمة لا إله إلا الله، حتى مترًا من تراب أحمر أو شجرة أو زهرة خضراء سوى حشيشة أبي. لم يكن ثمة ربيع، حسنًا بوابة حديدية كبيرة صدئة كانت باب البيت أقصد المخزن، الذي قسمه أبي غرفة تتسع له ولجسد أنيسة، وغرفة صغيرة للاستحمام وقذارتنا البشرية، وزاوية توحي بعض الأدوات المُعلّقة على جدارها أنها بقايا مطبخ يُؤمَن لنا ما يسد رمق جوعنا ويمنحنا الطاقة أثناء التسول، ثم غرفة أبي اختارها بعناية ولحظة

صفاء ربّانية في أواخر المخزن، حيث حدّدها بالطوب وباب صغير لتكون غرفة تحشر فيها ثلاثة أجساد هي أنا وفاطمة وسليم.

هذا هو بيتنا الجميل رطوبة.. عفونة.. تهوية سيئة وأبي وأنيسة وأنا الجرذ الصغير وفاطمة وسليم.

تعود إليّ ذكريات مخزن البؤس ولحظاته التوسلية الفادحة في كل مرة يدعوني فيها شاكر إلى بيته -عفوًا- أقصد قصر عائلة المنيفي المشيد بشموخ فوق تلة من تلال القدس، مرة واحدة أعود متسولًا صغيرًا برفقة أنيسة عندما كنتُ أتجول في فخامة القصر، غير أن من كانت تشدني أكثر إلى أصلي الوضيع الجرذي هي أم شاكر «مدام نورا» التي لطالما أصرت في تعاملها النبيل معي، الذي لا يخلو من رقي وترفع ولغات أجنبية، بأنّها لا تخالف أعراف قصرها وبذخ زمانها، رغم طيش ابنها شاكر وأفكاره الغريبة، «مدام نورا» التي طالما رفضت مغتاظة ساخطة مناداتها بأم شاكر، لما لهذه الكنيه من إساءة وتشويش بحق ترفّعها، امرأة في نهاية الأربعينيات هكذا قدّرتُ عمرها، سيدة مُدللة مازال الجمال يراودها بزهوه ونضارته، نحيلة كوردة بشعرها الأشقر القصير، عيناها خضراوان متناغمتان مع بياض وجهها المستدير، شاكر يشبهها كثيرًا في الهيئة والشكل مع اختلافه طبعًا تمام الاختلاف عنها وعن كل العائلة بالجوهر، العائلة التي باح لي شاكر إثر زجاجة فودكا ولفافتي حشيش بأسباب وأسرار ثرائها الفاحش، حيث أبوه رجل الأعمال المحترم ليس سوى تاجر آثار خفي حالفه الحظ في العثور على قطعة أثرية نادرة، أي يهودي ممسوس بجغرافية التوراة سيمنحه ثروة مقابلها، وهذا ما حدث، إذ باع أبو شاكر المنيفي، أحشاء القدس ليشيد فوقها أحلامه قصرًا وشركة وسيارات وتجارة لن تبور تحيط بها وتحرسها مكانة اجتماعية مرموقة.

لو أنني صادفت مدام نورا في اليوم التالي لثمالة شاكر الإعترافية المدوية لتقيأتُ عليها وصفعتها على مؤخرتها وليعذرني شاكر وحيد عائلته الذي أخذتُ أعي شيئًا فشيئًا أن ضياعه وتشظّيه هو أيضًا يشبهني فيا بخت من جمع شظيتين في جثة هامدة.

***

إذن هذه هي أسرتي التي كان ينقصها أمر واحد، ربّة بيت، ربّة حياة، ربّة أمومة، هي أمي الغائبة البعيدة الغامضة، التي طالما بحثتُ عنها في أسئلتي القاسية التي كنتُ أوجهها لأسرتي التسولية دون أدنى إجابة.

***

عندما أعود لطفولتي وأقصد هنا -كما أصبحتم تعلمون- بمعناها العمري فقط وليس الوردي المزدان بمدن الملاهي والألعاب، عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الفترة فإنّني لا أذكر تلميحًا صريحًا وحادًّا حول أمي كالتلميح الذي تفوّه به أخي سليم في تلك الليلة السكرى.

إذ أنني غالبًا ما كنتُ أراقب أخي سليم إثر عودته من مهنة التسول كان ينزع عنه ثياب المذلة ليستحم ويتأنق مرتديًا أبهى الثياب، ثم يضع في جيبه مديته الحادة، ومحفظته المليئة بالنقود ماضيًا إلى شؤون حياته الليلية، إلى أن يعود في ساعات الليل المتأخرة ممزق الثياب ثملًا في حالة يرثى لها، كان يتهالك على الأرض جثة ثملة مبعثرة، يهذي، يبكي ينوح دون أن أعلم أنا الجرذ الصغير، مجير، السبب.

في تلك الليلة انتهزت أجواء عودته الصاخبة من زمان لم يكن لي بعد، كان جذلًا مسرورًا في شدة ثمالته، تهالك بجانبي على الفراش وحضنني ممسّدًا على رأسي في الوقت الذي كانت فيه فاطمة تغط في نوم عميق،

لم أكن نائمًا، كنتُ جرذًا على أتم اليقظة أنتظر عودته لأستمع إلى هذياناته ودندنات أغانيه حتى أحفظها وأتداول بها في تلك الليلة تجرأت بشدة وسمحت لنفسي أن أنتاب أخي الثمل بأسئلتي الطفولية الحادة وهاجسي الأزلي:

- سليم حدثني عن أمي؟

سألته بصوت خافت، فلفحني بأنفاس سُكره الحارّة ثم قال بصوته الخشن:

- ماذا تريد أن أحدثك عن أُمك؟

- اي شيء.

ابتعد عني قليلًا مستلقيًا على ظهره كأنه استيقظ لتوّه من سُبات خمره. فَرَك وجهه بيديه كأن مارد الذاكرة سينبعث من عينيْه ثم قال:

- أمك كانت أجمل بنت في القرية.. لا أذكر الآن ملامحها جيدًا.. ولكنها كانت جميلة.. شلبية كثير.

لم أشأ أن أقسو عليه بشدة بالسؤال التقليدي الصارخ: أين هي؟ بل دعوت الله أن يسترسل سيلم أكثر في بوْحه، ولكنه التفت نحوي فجأة ثم نحو فاطمة النائمة محدقًا بها بعينيْه المحمرتين المنتفختيْن من أثر الخمر والبكاء المفاجئ ثم قال ببحّة صوته الحارقة:

- فاطمة.. فطوم تشبه أمك كثيرًا لذلك أكرهها.

- لماذا تكرهها؟

استفزه سؤالي المباغت. رمقني بشدة للحظات ثم التصق بي واحتضنني بقوة وحرارة قائلاً بتوسل:

- مشان الله يا مجير أريد أن أبقى سعيدًا الليلة.. لا تُعكر مزاجي عندما تكبر ستعرف كل شيء...

صمت فجأة كأنه تذكر شيئًا ثم ضحك ضحكة ساخرة مريرة انطلقت من أعماق ثمالته ثم قال متهكمًا:

- أمك تشبه سعاد حسني يا حبيبي.. هل تعرف سعاد حسني..

ثم أجهش في البكاء، بكى سليم بحرقة...

كانت تلك المرة هي الأولى والأخيرة التي أراه يـبكي فيها بحرقة وألم هكذا، وصدقوني لم أكن أعلم السبب حينذاك.

صدقًا لقد كنت أشعر أن العالم كله ببشره وشجره وحجره يعلمون بقصتي ومصير أمي مشفقين علي، لأنني لم أكن أعرف شيئًا رغم توسلي ومناشدتي لكل الذين أعرفهم بضرورة مساعدتي والوقوف بجانب أسئلتي بإجابات واضحة وصريحة.

إلاّ أنني زحفتُ وركضتُ وكبرت وتشظيتُ إلى أن التقيتُ بصديقي شاكر الذي وقف بجانبي مصرًا على حقه الذي لا أعلم من أين استنبطه في مساعدتي وبذل كل جهد ممكن في سبيل إصلاح ما أصابني من عطب لأكتشف بالنهاية أنه لم يكن يسعى إلاّ في سبيل احترام نفسه هو.

***

وأنا الممتد الآن هنا..

ممتدٌ في الحسرة وارتعاشات السخرية، أسحق حطامي أدقّه دقًا أطحنه ثم أستنشقه لأغيب أكثر في غياهب لم تخلق إلاّ لي لأنتشي بحزني، عندما

مضت إلى بئرها أمي كان عمري عامين على الأكثر، فكيف لي أن أشاهدها صورة في ألبوم ذكرياتي؟

الآن أعصف بالذاكرة، أتوسل معجزة تجمعني بها داخل أجواء الذاكرة. كأن أتذكرها وهي تلقمني نهدها المكتنز بالأمومة، أتذكرها وهي تلاعبني، تداعبني، تخنقني، تقتلني. آه لقد قتلتني أمي ومضت، ليرفع الجميع من حولي راية النسيان والاستسلام لهذا الواقع الذي تنقصه أمي، جميعهم انهزموا أمام صورتها ومضوا إلى حضيض مستنقعاتهم البشرية، تناسوا، أنكروا، أخفوا الجرح في طيات قذاراتهم في تواطؤ حاد فيما بينهم إلاّ أنا، أنا الذي مسّني الغياب منذ نعومة أظفاري لم أُسلّم، كيف أُسلّم وهي التي راودت أحلامي منذ مهدي منذ البدء تحرسني تارة وتخيفني تارة أخرى، لأغدو كتلة من المشاعر المتناقضة ما بين العشق والحقد والحقيقة والوهم. كتلة من الضعف والإهمال والمذلة والسخرية والضياع وكفى.

أنا مجير أقول لكم الآن بكل تهذيب وهمس كفى.. نعم كفى.

اسم أمي سنية وسنية الهبلة كانوا يدعونها دون أن أعلم لماذا، كل ما أعلمه باختصار هو أنهم كانوا يعايرونني بها، ذهب ابن الهبلة جاء ابن الهبلة، وبما أنني كذلك فلا يعتقد أحد منكم سيداتي وسادتي بأنني سأخوض في تفاصيل حياتي كلها، فكما قلتُ لكم أنا لستُ بصدد تلاوة سيرتي الشخصية المفعمة بالهبل والمآسي عليكم، فأنا أتفه من أن تقلقوا بالكم الصافي بحكاياتي الشقية. إذ إن كل ما يهمني الآن هو السعي في لملمة حكاية أمي ومصيرها وتلاوتها عليكم، بعد أن شعرتُ أنا العبد الحقير لله مجير بلفيف من العواطف والمشاعر المنبعثة منكم والإصغاء إليّ واحتوائي في استيعاب قصة أمي.

حسنًا..

لقد قلتُ لكم في بداية هذا الحديث أن صديقي شاكر كان يسعى إثر توطد علاقتنا إلى مساعدتي في إزالة الغموض الذي يكتنف مصير أمي لأكتشف فيما بعد أنه كان يسعى نحو كتابة حكايتها في رواية من تأليفه هو، لقد كنتُ مترددًا في بداية الأمر، كنت أخشى المزيد من الفضائح والانكسارات والمتاهات، غير أن شاكر بأسلوبه المقنع والمؤثر ورّطني في المزيد من الغموض والمجهول، كنتُ أشعر بأنني عار يسير على قدميْن، رغم أنه كان يواسيني ويخفف عني إثر جلسات التحقيق الصاخبة بالأسئلة المزعجة، أسئلته التي كان يحاصرني بها في الشارع. في القصر. في السيارة في االنوادي الليلية.

كان يعتصرني باحثًا عن إجابات تزوده بالمادة التي سيكتبها كما كان يقول، ذات مساء أرهقني جدًا عندما كنا في غرفته الفسيحة داخل القصر، كنا قد تجادلنا بصخبٍ عالٍ، لا أعلم ماذا أقول لكم ولكنه كان قاسيًا جدًا علي تلك الليلة، فقد شعرتُ للحظة بالندم لأنني بحتُ له بعذاباتي وأمي وتاريخ أسرتي العريق، سيفضحني شاكر نعم سيفضحني، سيُشهر معاناتي في وجوهكم جميعًا قال لي برجاء حينذاك:

- مجير.. دعني أحاول كتابة ماضيك في رواية.. الموضوع معقد وكبير ويجب أن يعرفه الجميع.. الرواية كفيلة يا صديقي بردّ الاعتبار..

قاطعته بحدة:

- اعتبار من؟! وهل يهمني أحد الآن؟ ماذا يهم المكسور فأنا منذ البدء مقذوف خارج نطاق الإنسانية!

- كلا يا صاحبي.. أبدًا.. فقط بُح لي بكل شيء. البوْح يريُحك يا صديقي.. لن أكتب الرواية بأسمائها الحقيقية طبعًا حفاظًا على خصوصيتك سأكتبها بطريقة إبداعية.. سأوظف كل ما تعلمته وقرأته ستكون مشروعي الأهم.

- هل أصبحت مشروعًا بالنسبة لك الآن؟

- أنت دائمًا تفهمني غلط بأسئلتك هذه.

ثم قام متوجهًا نحو البار الصغير الذي يُزين إحدى زوايا الجناح الفخم الذي يقيم فيه ليعد كأسيْن من مزيج كحولي لم أنجح أبدًا في تهجئة اسمه ثم سألني عن شقيقتي فاطمة، هكذا تفوّه باسمها بعفوية كأنه يعرفها منذ زمن دون أن يقصد أية إساءة أو تلميح جارح، فأجبته ممتعضًا:

- لا تجيب سيرة أختي في مشروعك اللعين هذا!.. فاطمة شيء والدنيا كلها شيء آخر بالنسبة لي.

أجابني معتذرًا:

- أنا لا أقصد شيئًا ولكن حبك وخوفك على شقيقتك يجب أن نترجمه في الرواية.

- أحببتها بلغة غريبة من الصعب أن تُترجمها إلى العربية.

غضب من تهكمي قائلاً:

- أيها الوغد الأحمق.. دور أختك يجب أن يكون أساسي في الرواية فهي أحد أهم العناوين الرئيسية.

- لماذا؟ هل لأنها تشبه أمي؟

- ربما.

- وماذا أيضًا؟

- لأنك عندما تتحدث عنها تتحول فجأة إلى أصدق إنسان عرفته في حياتي.

- وهل كذبتُ عليك فيما قلته لك من فضائح الماضي؟

- لا أعلم ولكن حديثك عنها وعن حزنها يُضفي عليك هالة من الطهر والرجولة.. كما أنه يعكس حاجتك إلى فعل الشيء الصحيح ومحاولة إصلاح الأعطاب التي أصابت أسرتك.

- يا حبيبي! هل تتفلسف علي الآن؟

مدّني بكأس الخمر ثم مازحني قائلاً وهو يربت على ظهري:

- هيا قل لي كل شيء عن أختك.. عن فاطمة.. بإرادتك أو رغمًا عنك.

***

إليكم تعريف الهاوية أو ماهيتي الآن على مدار أكثر من عشرين عامًا منذ أن خُلقتُ وحتى هذه اللحظة التي أحدثكم بها:

هناك.. عندما تغمض عينيك ولا تنام.. لن تنام.. إذ تكتشف في جزء من الثانية غياب إمارات الأمل والحياة الخافقة كافةً في قلب يدق وعينيْن تضحكان رغم الألم، وكيان يرقص هازئًا بخرابه فوق خرابه. هنا يتجلى مكنونك.. لا أنت في الأعلى ولا أنت في الأسفل. سكون في أرجاء الرأس. لا همس. لا فكرة لا حرف ترتاح بغبطة وسرور. أنت لا شيء. ثم ترى ما يهزك ويثيرك تلمح نقطة سوداء لربما كانت حفرة تدنو منها مفتونًا. لا

تخشى شيئًا. ثم تدنو وتدنو أكثر. نعم لقد وصلت.. هنا في هذه النقطة السوداء تُقيم فهي قد تكون بداية أخرى جديدة لجنون آخر لا تعلم إلى أين سيؤدي بك.

وأنا مجير ابن سنية، هكذا سيناديني الله يوم القيامة، حيث كل باسم أمه ينال كتابه إما بشماله أو بيمينه، لأن الأم هي أصل الحياة، وأمي ليست خائنة. صدقوني أرجوكم هذه المرة فقط، فأنا الآن على مشارف النهاية، مُرهقٌ ومكسور أكثر من أي وقت مضى، وأشعر بأن السخرية باتت تسخر مني وتنبذني ملقية بي في اللاجدوى، لا أريد أن أسكب عليكم تعاليم شاكر الذي سكبها بدوره عليّ، ولكنني أريد أن أنتهي من قصتي وأرجو ألاّ تدركوني بصورة خاطئة، إذ إنني لا أريد أن أُنقي دمي منها، بل على العكس تمامًا فأنا مدمن مآسٍ وأحزان، ولا يمكنني على الإطلاق ممارسة نسيان أهبل كالذي مارسته أمي، كلا أنا أسعى فقط إلى إشعاركم في وجودي الدنيء، وأن أوضح لكم بعد أن عطفتم عليّ وتكرّمتم بإنسانية ونُبل وسمحتم لي مع الأخذ بعين الإعتبار وقتكم الثمين إيجاز قصتي وتعليق كافة صرخاتها وتشنجاتها الصافية على وجوهكم، هذه الوجوه المحشوّة بالبوتوكس والمشاعر الالكترونية والاصطناعية والترفيهية «والآيفونيّة».

حسنًا.. اعذروني أرجوكم، فأنا لا أقصد الإساءة لكم، ولكن ما يصيبني في هذه اللحظات هو خذلان مرير لدرجة الدمار، وأنا محطم وأنتم تعلمون هذا أليس كذلك؟

***

هل أنا مخذول حقًا من صديقي شاكر؟

هكذا أسأل نفسي منذ مشاجرة البارحة التي وقعت بيننا، نعم مشاجرة

ولكنها ليست حلبة مصارعة كما اعتقدتم للحظة، لا بل هي مجرد باقات مريعة مفعمة بالشتائم البذيئة تراشقناها فيما بيننا بسبب قصتي.

تصوروا بعد كل هذه الكلمات والعِشرة وتحملي لنزق أم شاكر، تصوروا أن صديقي بات يشك في مدى قصتي ومصداقيتي، انفجر في وجهي مرة واحدة إثر ثلاث كؤوس فودكا. ألا لعنة اللعناء على الذي صنعها وعلى الذي جلبها وعلى الذي شربها:

- لا أعرف لماذا لم أصدقك.. لقد هلكتني.. معقول كل هذا حصل لأمك؟!

استفقتُ من سكرات الفودكا وأجبته بعصبية:

- أنا لم أجبرك على سماع قصتي أنت الذي شنّفت أذنيك وحملقت عينيْك بترقب وجرجرتني بكلامك الإنساني المعسول نحو إغراءات البوح والكتابة.. هكذا طرحت نفسك مرة واحدة دكتور هوجو بوس!

نظر إليّ باستغراب على وجهه طيف ضحكة مُجلجلة ثم سألني بهدوء مصطنع:

- ومن هو هذا هوجو بوس أيها الأحمق.. أليس هو هذا اسم نوع من أنواع العطور؟

اكتشفتُ عثرتي التي سيذلّني بسببها فقلت متمسكًا برباطة حماقتي:

- لا بل هو الذي كتب رواية البؤساء التي لم تجلبها أنت لي حتى الآن!

ثم انقلب على ظهره كصرصار من شدة الضحك ثم قال بتهكم:

- اسمه فيكتور هيغو يا حبيب إمك!. لقد كنتُ أعتقد بأنك ستشبهني بطلعث!

سألته بفضول: ومن هو طلعث؟!

أجابني وهو يطلق ضحكة لا تليق إلاّ بحشاش محترف عتيق أعتقد أنه أخو مَرتْ أبوك أنيسة.

هكذا ما بين الشتائم والسخرية والجدية أرهقتني البارحة إلى أن هدأني أخيرًا قائلًا بجدية:

- مجير.. لا تزعل مني.. ولكن أنا أعرف تفاصيل أكثر منك حول قصة أمك المأساوية في هذه الحياة.

- لا شاكر.. لا.. لا.. لو سمحت لا تسخر مني.. اذهب اسخر من أمك التي تنام مع كلبها الشيواوا بدلاً من أبيك.

- دعك من أمي الآن يا ابن...

- ابن من.. هيّا قلها؟!

- اسمعني جيدًا لقد أرهقتني البارحة.. وجعلت مني إنسانًا عصبيًا ونزقًا ومزاجيًا.. لا أعلم ما الذي يتوجب عليَّ فعله.. أعجز عن الكتابة.. الحكاية كبيرة ومُفجعة ولهذا أنا أشعر بأنها ليست حقيقية.. أو على الأقل ما تقوله أنت مبالغ فيه.

- لماذا؟

- حسنًا.. سأقول لك بصراحة.. لقد عرفتُ بعض التفاصيل.. ربما كل التفاصيل والأحداث التي ألمّتْ بأمك بعد هربها عذرًا أقصد بعد اختفائها من بيتكم في الرام أواخر عام 1993 كما قلت لي.

تهالكتُ على حافة السرير بعد أن لمستُ جديةَ وحدّةَ كلامِه قلت له متلعثمًا مُتحشرجًا:

- أنت تكذب.. أنت لا تعرف شيئًا.. من أين أتيت بالتفاصيل؟!

- حسنًا لن أخبرك بالمزيد الآن.. ولكن المرأة التي زودتني بالمعلومات هي سيدة محترمة تدير وكالة خدمات وتشغيل.. التقيتُ بها مصادفة لدى عائلة صديقتي مايا.. برفقتها خادمة يبدو أنها جاءت بها لتعمل هناك.. انفردتُ بها مدفوعًا بحدس غريب يؤكد وقوعي في إجابات شافية حول قضية أمك.. عندما اكتشفت هي إلمامي ببعض التفاصيل قررتْ أن تبوح لي بكل شيء طالبة مني بصدق رد الاعتبار والكرامة لأمك في مشروع روايتي.

- مشروع روايتك؟! امرأة؟! مايا؟! ما الذي تقوله؟ هل سكرتْ؟

تنهد بحرارة ثم قال:

- لن أقول لك الآن من هي وأين أمك.. كل شيء ستعرفه في الوقت المناسب.. ما أريده منك الآن هو أن تكون صريحًا وواضحًا معي بشأن أختك فاطمة.

امتعضتُ بشدة من قفزه إلى موضوع فاطمة فأجبته بغضب: قلتُ لك ألف مرة لا أريد أن أتحدث عن فاطمة.

- لماذا؟!

- فاطمة هي ما أشعر به ولا أتحدث عنه.

- لا تكن أحمقًا.. يجب أن تحدثني عنها.. أنا أعلم أنك تقدسها

ولذا يجب أن تبوح لي يا صديقي بأمرها فلم يتبقَ الكثير يا مجير.

تمتمتُ ببضع شتائم جارحة فتأملني بصمت ثم أحاط وجهه براحتيه باستسلام، دون أن ينجذب إلى الشتائم حتى تلك اللحظة ثم قال بصوت هامس مجروح:

- مجير.. أرجوك لقد تعبتُ منك ومن قصتك ومني ومن هذه الحياة.. والآن أتوسل إليك للمرة المليون لا تتهرب من الموضوع الرئيسي وحدثني عن أختك.

سأقول لكم للصراحة والشفافية لقد عمدتُ إلى تجنب مطلبه من خلال استفزازه بصورة أشد فقلت مُتهكمًا:

- ما هو العنوان الذي ستختاره للرواية.. أنا أقترح أن نُسمِّيها «سنية والشاطر زمن» أو «يوميات خائنة دون أن تعلم» أو...

انتفض منقضًا عليَّ فجأة ممسكًا بي من ياقتي بقوة ذراعيه، ثم رفعني عن السرير وألقاني ككيس قمامة على الأرض منهالًا عليَّ بأقذع الشتائم:

- ستحدثني شئت أم أبيت.

فأجبته بذعر مستغربًا: حسنًا.. حسنًا يا شاكر.. أنا أمازحك فقط.. ما الذي تريد أن تعرفه؟

انكفأ عني لاهثًا من شدة الأدرنالين والفودكا: النهايات.. لم يتبقَ لنا سوى النهايات الآن.

أجبته بأسىً وأنا أفرك وجهي عائدًا إلى الجلوس على حافة السرير:

- سأعلمك بكل شيء ولكن بشرط واحد فقط.. عليك أن تعدني الآن بتنفيذه.

- أعدك ولكن ما هو هذا الشرط؟

- غدًا في تمام الثامنة والنصف صباحًا يجب أن نكون في رام الله.. في حي الطيرة تحديدًا.

- لماذا؟

- لكي تتعرّف إلى فاطمة ولكن من بعيد.

- وكيف هذا؟

غدًا ستعرف كل شيء يا صديقي.

***

الآن. يناير عام 2011. في مطلعه الخالي من أجواء الشتاء الماطرة ألتقي شاكر الذي أوفى بوعده وحفظ عهده بتنفيذ الشرط الذي أمليتُه عليه.

الساعة الثامنة والربع صباحًا.

وسط رام الله. تحديدًا دوار المنارة أشهر معالم المدينة وأقدمها ومنطلق كل سائر ومتجول وسائح إلى شوارع وضواحي المدينة.

متألقٌ شاكر هذا اليوم.

أسأله وأنا أركب إلى جانبه في سيارته الفخمة:

- مبسوط لهذه الدرجة لأننا سنلتقي بفاطمة؟

يجيبني بسرور ووجه مشرق:

- لا، ليس لهذا السبب فقط، بل لأن الربيع العربي قد أزهر.

أعتقد أنا للحظة بأنه قد شرب كثيرًا بالأمس، وبأن أثر الفودكا مازال في دمه.

أساله بريبة:

- نحن في عز دين ربّ الشتاء! عن أي ربيع تتحدث أنت؟!

يرمقني بذات السرور وهو يأخذ طريق حي الطيرة بثقة وثبات ثم يقول:

- خلص يا مجير الشباب العربي سيمتلك مصيره وسيصنع تاريخه أخيرًا والبداية كانت من تونس، لقد تأكدنا الآن، خلص الشباب هم الذين قاموا بالثورة التي أشعلها محمد بوعزيزي.

- ومن أين هذا؟

- من تونس الخضراء.

- ولماذا أحرق نفسه مادامت تونس خضراء؟

- لأن خضرتها مزيفة وإذا لم تحرقها فإنها لن تمنحك زرعًا خصبًا ووفيرًا.

- فلسفة منذ الصباح.

- المهم في الموضوع أن الثورة بدأت تشتعل في مصر.. مصر يا مجير هي قلب العروبة النابض وإذا اشتعلت الثورة فيها سيتغير مصير العالم العربي كله.

- الله أكبر! شاكر مشان الله لا أريد محاضرات على الريق فأنا معي قرحة في المعدة.

يضحك بجذل ثم ينتقل إلى موجة جديدة تكتسيها لهجة جدية:

- ها نحن بلغنا حي الطيرة قل لي أين البيت؟

أساله بضيق: أي بيت؟

يُجيبني بسخط: - بيت أختك.. هل تسخر مني يا مجير؟!

- لا.. أبدًا.

ثم أشير له بيدي نحو بناية سكنية شاهقة مكونة من ثلاثة عشر طابقًا في نهاية الشارع الذي دخلناه. يدنو بالسيارة من البناية ثم أطلبُ منه التوقف والاستدارة لكي يركن السيارة على الرصيف المقابل للبناية، يستجيب بضيق. يركن السيارة يُطفئ المحرك يهيء نفسه للنزول من السيارة ثم يلتفت نحوي.. يستفزه سكوني وعدم نزولي من السيارة. يسألني بحذر:

- مجير دعني من ألاعيبك.. ألا تسكن فاطمة هنا؟

أجيبه بخفوت مُخفضًا بصري:

- بلى ولكننا لن ندخل إلى بيتها الواقع في الطابق السابع ولن نتحدث معها لن نتعرف إليها ونحن نرتشف قهوة الصباح.. سنبقى هنا في السيارة.. الآن بعد سبع دقائق ستراها هي وزوجها وابنتهما الصغيرة ينزلون من العمارة نحو سيارتهم تلك البيضاء تويوتا كورولا المركونة هناك.

يحملق بي بقسوة واستغراب يكاد يصفعني ثم يقول بحدة: مجير هل أنت جاد حقًا فيما تقوله..

أقاطعه أنا بإشارة من يدي نحو باب العمارة، يلتفت بسرعة ليرى موكبًا

مُكونًا من زوجين وطفلتهما الصغيرة، موكب لا يمت لي بأي صلة، يحدق شاكر بدهشة. فأقول له ممازحًا: لا تحدق في شقيقتي هكذا أيها الوغد.

ثم أراها بدوري شقيقتي التي أنكرتني وأنكرت أصلها وأسرتها لتعيش وتتقدم في هذه الحياة، لقد كان لنكرانها لنا قيمة وجدوى، لم لا! إذ هي تنتسب بالنهاية لشرفها الخاص الذي رسمت به مسار حياة أحبّت فيها ابن حارس القصر الذي كانت تعمل فيه خادمة، «رامي» الذي أحبها بإخلاص وشغف إلى أن أقنعها بضرورة التحاقها ببرامج محو الأمية وصولًا إلى تفوقها بالمدرسة، لتلتحق به أخيرًا في كلية الحقوق في جامعة القدس، كانت هي في السنة الأولى وهو على مشارف التخرج.

هكذا كنت أتقصى أخبار شقيقتي من بعيد وبسرية تامة اكتسبتها من مهنتي كسارق محترف.

نعم يا شاكر لقد تخلّت عنا فاطمة مرة واحدة وللأبد، حتى أنا الذي ساعدتها في الهرب من مخزن البؤس والتسول والمذلة تخلّت عني، تصور أنها عندما قررت الزواج من حبيبها رامي لم تشعرنا بذلك كما لم تدع إلى حفل زفافها أي أحد منا في عام 2007. كان عمرها عشرين عامًا حينذاك. تزوجت وهي في خضم الدراسة الجامعية لأن شريك حياتها كان قد أصبح محاميًا على عتبة النجاح ويحلم بأسرة جميلة، لتنجب له بعد عام من زواجهما ابنتهما هذه. ما اسمها يا مجير؟ ماذا؟! هل تعتقد بأن اسمها سنية؟ ما اسمها إذن؟ «حلا». «حلا»؟! نعم أليست هذه هي الموضة الجديدة من الأسماء حلا جنى صبا باذنجان بطيخ لا أعلم ولكن لا تحدق إلى فاطمة هكذا، انظر يا شاكر انظر هل تصدق أنها شقيقتي؟! إنها امرأة بحق محامية. أستاذة بارعة. ما هو اختصاصها؟ هل تعمل في مكتب المحاماة مع زوجها؟

كلا إنها تعمل في مجال حقوق الأطفال ولديها برامج عمل مع منظمة «اليونيسيف». لربما أرادت بذلك تعويض طفولتها وانكسارها بالدفاع عن حقوق الأطفال؟ ربما يا صديقي. انظر إلى «حلا» سيصبح عمرها بعد عدة أيام اربعة أعوام. تحب «الآيس كريم» بالكرز مثلي تمامًا وشقية أيضًا مثلي تمامًا ولكن ضفيرتيْها كأمّها ومن؟! جدتها سنية رغم أنني لم ألمحها يومًا. وكيف تعرف بكل هذه التفاصيل من بعيد؟ أراقبها يا صديقي هل نسيت بأنني لص؟ أنا لا أسرق فقط يا شاكر بل أتلصص أيضًا على كل هذا العالم وعلى هذه الحديقة أختي الحديقة فاطمة، نعم من حقها أن تنسى دفعة واحدة، ها هي أنظر إليها متماسكة متقدمة لا يهزّها شيء تتكر ماضيًا وتمضي إلى الأمام عكسي تمامًا. انظر إلي لقد حبست نفسي داخل متاهات الماضي الذي أدمنتُ عليه فدمّرني وأحالني أشلاء تحاول أنت لممّها في رواية.

ثم تمضي فطوم مُخلّفة وراءها شذاها الصباحي الذي سيلاحقه شاكر حتمًا، سينتشقه ليجعله عطرًا لروايته. يُحدق بي بعينيْن دامعتيْن أشيح بنظري عنه. أرتبك. يقول لي بصوت متحشرج خفيض:

- أنت لست كائنًا طبيعيًا.. أنت مجنون.. حرام عليك.. عمرك عشرين سنة فقط.. لماذا تدمر حياتك هكذا في التشرد والضياع وأحضان العاهرات؟

أسأله بتمرد وكبرياء مطعون:

- وما بهن العاهرات؟! يكفي أنهن منحنني الملجأ الذي طالما بحثتُ عنه ولم أجده.

يتهرب من فداحة الإجابة بضحكة كئيبة ثم يدير محرك السيارة لكي نعود أدراجنا هذه المرة إلى القدس مدينتي الأبهى والأرحب.

يقول لي في الطريق سعيًا منه وراء تبديد أجواء الكآبة والحسرة التي ألمّتْ بنا معًا:

- أنا لن أتخلّى عنك أبدًا يا مجير كما وعدتك ووعدتُ تلك المرأة.

- دعك من الشفقة أرجوك يا شاكر.. عندما تخاطبني بهذه الطريقة أشعر بأن التي تحدثني هي أمك مدام نورا أطال الله لك في عمرها.. شاكر ماذا قالت لك تلك المرأة عن أمي.. قل لي بحق الصداقة؟!

يرد عليّ بابتسامة صادقة بلعت إساءتي إليه:

- ليس هذا هو الوقت المناسب.. سأعلمك بكل شيء في الوقت المناسب..

***

لم يكن يعلم شاكر بأنني في تلك اللحظة الصباحية المفعمة بفطوم كنت أحترق وأكابر وأجن وأفجع، أثناء مراقبتي لها وهي تخطو كغزالة نحو سيارتها برفقة زوجها وابنتهما «حلا»، أحترق يا شاكر وأنت غارق في تفاصيل عالمك الروائي معتقدًا بأن ما تفعله سيقوّم الواقع ويصلحه، أنت ستكتب لا لتغير واقعك أو لتسعى نحو إصلاحه روائيًا بل لتهرب.. لتلجأ إلى الكلمات والرموز، لتختبئ في الفعل المبني للمجهول لذلك دعني أنا أهرب من مبتدئي وخبري إلى الأزقة والطرقات وأحضان العاهرات باحثًا عن ملجأ، فهذا الزمن لم يكافئني إلاّ بالمطارق وقضبان الحديد الملتوية الصدئة، آه يا صديقي كم أنا منهوك ومكسور، أنت سألتني يا شاكر بلا أدنى رأفة سألتني هل تحقد على فاطمة يا مجير لأنها تخلّتْ عنك؟ لم أُجبك هناك سأجيبك الآن هنا في سديمي أنا سأقول بأنني أحقد على نفسي

وأتقيّأ على نفسي وأبول على نفسي، فكيف أكره فطوم؟ لماذا أكرهها الأنها أنكرتني؟! فلتنكرني يا أخي، ألم تقل لي أنت أن «بطرس» صديق يسوع المخلص أنكره ثلاث مرات غير أن يسوع لم يحقد عليه ولم يُكفّره بل قال له يا بطرس أنت الصخرة التي سأبني عليها كنيستي، أنا لست يسوع يا صديقي فأنا جبان ولا أقوى على التطهر والصلب، ولكن فاطمة هي صخرتي ومآلي الأخير في هذه الحياة، فاطمة الصخرة التي تكسّرتْ عليها أمواج العَته وهوْل التاريخ والبهتان والظلم الباطل وحيرة أخي سليم.

شاكر من أنت لتحاكم أمي في رواية؟؟

أنت مجرد شاب مقدسي ثري يضاجع فتاة ثرية مثله، أمها تمتلك شركة استيراد وتصدير ولديها شركاء يهود إسرائيليون، وأبوك يا شاكر أنت تعرف من أبوك وما الذي فعله بحجارة القدس. فلماذا تحاكم أمي في رواية؟

لو أن أمي كانت مثلكم فقط لما تعرض لها أحد، لو أن عائلة ذات جاه وأصل وقفت وراءها وتحميها لما جُنَتْ، لو أن ثراءً فاحشًا قوّى من عزيمتها وأمانيها لما خدش كرامتها أحد، ولكنها هي الملعونة المقطوعة من شجرة محترقة أذلّتها الدروب واللسعات واللكمات والنميمة والرغبات الدنيئة والجنون، والآن تأتي يا شاكر لتقول لي أن ثمة امرأة كانت تعرف أمي جيدًا ورعتها واهتمت بها، وقامت بتزويدك بمعلومات وتفاصيل مهمة عن سنية القاروطة. من أنت؟! قل لي بحق أمي من أنت لتأمرني هكذا وتنهى في وتجرحني وتسخر مني وتحبني وتشفق عليّ من أنت؟

مايا صديقتك التي تتهرب منها وترفض الارتباط بها بزواج تقليدي يجري فيه تبادل الثروات والشركات، مايا في تلك الليلة التي احتفلنا فيها بعيد ميلادك الرابع والعشرين عندما تجنبتها أنت، وهربتَ برفقة فتاة أخرى في سيارتك، تلك الفتاة المسكينة التي علق لسانك المعسول بتقويم أسنانها

السلكي وسال دمك في فمها ولعنتك هي بعد ذلك وشتمتك وبصقت عليك بسبب الإحراج الهائل الذي سبّبته لها في ليل أريحا القمري، مايا صديقتك التي رأتك حين خرجت برفقة الفتاة الفاتنة في ليلة عيد ميلادك تحرشت بي، إذ مالت عليّ وأنا غارق كالمعتاد في أريكتي الوثيرة أحتسي ما تيسر لي من المشروبات الكحولية، مالت وقالت بهمس مُغرٍ ما الذي يعجبك بشاكر يا مجير.. دعك منه فهو يسخر منك ودائمًا يقول إنه سيُحيلك من مستنقع إلى ينبوع ماء صافٍ، ولكنه هو المستنقع الدنيء يا مجير هيا تعال معي بالسيارة سأريك وشمي الجديد.. لقد وشمتُ فيلًا أسفل سُرّتي.. فيل صغير يا موجو تعال لتراه.. تعال «خَرْطمني»! ولكنني لم أستغل ثمالتها وحقدها عليك، صحيح أنني كلب يا صديقي إلاّ أنني كلب وفيّ ومخلص لمعاني الصداقة، لهذا تجنبتها ودفعتها عني برفق في أجواء الصخب والموسيقى واللحم والخمر، قلتُ لها يبدو أنك ثملتِ يا مايا.. اذهبي إلى شاكر. فلعنتني وشتمتني بالانجليزية، فخفضتُ بصري ولم أرد عليها فهي ابنة العائلة الثرية وأنا مرافق سيد الحفلة، تركتني ومضت غاضبة إلى صديقتها غريبة الأطوار «ميرال» حدّقت بها للحظات بنظرات ذات مغزى ثم عانقتها مُلقية في أذنها تعويذة جنون ما لتلحق بها «ميرال» نحو غرفة جانبية في آخر الصالة داخل بيتكم الشتائي الضخم في أريحا.

نعم يا صديقي شاكر علّمني بعض الكلمات، عبئني بالحبر فقط ودعني بعد ذلك لأكتب عنك وعن أمثالك في رواية. والآن تريد أن تكون مثلهم.. تريد أن تحاكم أمي، مثلهم تمتعض وتستهجن مضاجعتي ومرافقتي ليهودية روسية قائلًا إن هذا هو التطبيع الجنسي بعينه وما الذي يفعله أبوك؟! ما الذي تفعله أم مايا؟

صديقي أنت يا شاكر، صديقي الوحيد الذي قال لي يومًا إننا نضحي

دومًا في سبيل قضية كبرى وهدف نبيل، لذلك نحن هنا من أجل هذا الوطن. غير أننا على العكس تمامًا إذ إننا ضحينا بكل شيء لكي نعيش نحن وتموت القضية، تصور لقد ضحينا بفلسطين لكي نحيا نحن! فلسطين التي اعتنقتها أنا بفضل تعاليمك ألا تشبه قصتها أمي.. كأنها أمي.

ها أنا أقول لك الآن فلتسمع، فلتصدق أنني أنا الذي أقول هذا الكلام، إذ إن الشهداء فقط هم الذين أوفوا بعهد الدماء لهذه الأرض، الشهداء الذين لا تعرفهم صديقتك الثرية مايا وأمثال أم مايا وأمك وأبيك، الشهداء الذين باتت صورهم الملصقة على جدران رام الله متآكلة مهترئة إلا أنه رغم الغياب والطمس والحت والتعرية والانكسار يحدقون بنا جميعًا، يحدجوننا بقسوة كأنهم على وشك الجهر بشيء ما، فما الذي يودون قوله يا شاكر؟

اعذرني يا صديقي إذن، اعذرني فمن أنت لتحاكمني وتحاكم أمي؟ تقول لي ماركسية ثم ماركسية ثم ربيع عربي ثم مسلسل تركي ثم خريف أمريكي، غير أنك لم تدرك أبدًا ربيع أمي، آه لو أنكم جميعًا أدركتم ربيع أمي لما جُننتم وقلتم عنها إنها هي المجنونة، بل لعقلتم ووعيتم على التداول بأزهارها وربيعها ولوزها وضفيرتيْها، والآن تأتي أنت لتحاكمني وإياها في رواية!

لا بأس.. لا ضير.. فلم يتبق الكثير.. سأطاوعك، نعم سأمضي معك غدًا للقاء تلك المرأة التي ظهرت فجأة على مسرح الحكاية، وسألتزم بما وعدتك به، لن أفضحك وأحرجك، بل سأستمع بخشوع إلى ما ستبوح به علّها هي التي تحوز الصدق وليس أنا، ولعلّ خاتمة الحكاية لديها، خاتمة حقيقية أو معقولة على رأيك لكل هذ الجنون والكلام.

***

وكفى..

لقد حان وقت لمّ الحكاية في باقة النهاية. لذا أرجو أن تسمحوا لي أن أسجّي نفسي على شفقتكم وشهقكتم وعلى شرفكم النبيـل، وأصلكم الأصيل فقد وصلتُ الآن إلى قمة الخاتمة وأي خاتمة؟!

هل تصدقون تلك المرأة أم حسين التي زجّها شاكر فجأة في خضمّ الحكاية، محاولًا إقناعي بأنها بوجهها النقي وصوتها الحنون وكلامها النقي تحوز على أصل الحكاية وتفاصيلها كافّة وخاتمتها.. هل تصدقونها؟

لا بل صدقوني أنا أرجوكم، إذ بعد قليل سأبوح لكم بكلّ شيء، بكل الذي حدث في ذلك اليوم الصيفي القائظ من آب عام 2002، ولكن دعوني الآن وباختصار شديد أطلعكم على زبدة ما جاء بلقائي.. العاصف أنا وشاكر بأم حسين..

نعم.. هي المرأة المقدسية التي ما إن رأتني حتى عانقتني بدمع وحرارة الأمومة، صدمتني لا بل أهلكتني بمرارة اللقاء الذي حاكه وأعدّه شاكر ببراعة مخرج أمريكي، بيد أن ذلك لم يدفعني تجاه عواطف اندلقت عليّ فجأة في أحد بيوت القدس العتيقة.

ما الذي فعلته بي يا أم حسين؟ كيف بعثرتني وكويتني بعطف كلامك ومحبتك الخالصة لأمي؟

أمك ليست خائنة يا ولدي يا مجير، عليك أن تكون واثقًا من هذا الأمر صدقني أمك أشرف من الشرف. فلماذا إذن أصبح اسمها سونيا يا بنت الناس يا حاجّة أم حسين ما دامت ليست خائنة لماذا تحولت ما بين يوم وليلة من سنية إلى سونيا؟

واجهتُها بأسئلتي الحادة وقسوتُ عليها وعلى شاكر، الذي بدى كأنه

ندم على اصطحابي للقائها، بيد أنني رغم إصغائي المُذل الملهوف على تلقف سيرة أمي الغابرة أمعنتُ في تعذيب نفسي أمامها وتعذيبها هي أيضًا بنيران أسئلتي، أنا الذي لم أصدق أبدًا إدّعاءات أبي وسليم وأنيسة وكل أهل البلد بأن أمي هاربة وخائنة وعميلة ومجنونة يا أم حسين فكيف سأصدقك أنتِ؟! هذا ما كان ينقصني أن تؤكدي أنتِ جنون أمي؟ كلا أمك ليست مجنونة يا ولدي لقد عانت فقط من انهيار عصبي شديد بسبب الاكتئاب والضغوطات النفسية التي تعرضت لها.. وعليه فقد أصيبت «بالشيزوفرينيا». ماذا؟ تدخل النبيه جدًا شاكر ليقول بعد أن تنحنح: يعني انفصام في الشخصية.

وماذا أيضًا يا ستنا الحاجّة أكملي؟.. وهكذا أدخلناها إلى مستشفى الأمراض النفسية.. يعني مستشفى المجانين يا خالتي. لا يا إبني مصحة الأمراض النفسية أو العقلية وليس مستشفى المجانين.. عيب عليك أن تصف بهذه الكلمات المشينة المستشفى التي كانت تتعالج فيها أمك. وكيف هذا؟! كيف أصدقك بالله عليك؟! صدقني يا إبني لقد أخذناها إلى مصحة «جفعات شاؤول» الواقعة في أراضي دير ياسين. أيْ دير ياسين؟! تدخل شاكر من جديد بصفته المعرفية الوطنية والثقافية قائلاً بجرح وضيق: مجير.. دير ياسين هي القرية التي وقعت بها المجزرة الشهيرة في نيسان عام1948 وفيها قتلتْ عصابات «الهاجاناة» الصهيونية معظم أهالي القرية. حسنًا رحمهم الله.. أكملي يا خالتي أم حسين أكملي هذه المسرحية.

الغريب في الموضوع سيداتي وسادتي أن هذه المرأة العجوز، كانت مُقتنعة تمام الاقتناع أنها تقول الصدق وتقدمه لي معروفًا طيبًا ومواساة صادقة مفعمة بالبكاء المشحون بمشاعر الأمومة، كأن أمي كانت ابنتها بالفعل والله أعلم.

لقد كان لمرض إنفصام الشخصية تداعيات خطيرة وهدّامة على صحة أمك يا ولدي. كيف يعني؟ يعني تارة كانت سنية وتارة كانت سونيا. سنية التي تبحث عن أصلها وفصلها وأطفالها كانت تنوح وتبكي.. في بعض الأحيان العجيبة توثق جسدها بحبال قدّتها وفتلتها من ملاءة سريرها، كانت تتمدد فوق السرير كانت تنادي على أبيك. ماذا؟! هذا يثبت أنها كانت مجنونة حقًا يا خالة!

كنتُ أزورها وغالبًا ما كنتُ أزورها وهي سنية. لم أفهم أرجو أن تُعيدي هذا المقطع الهرائي يا خالة؟ يعني يا إبني عندما تكون شخصيتها هي الشخصية الطبيعية وأقصد هنا سنية أمك التي أجحف بحقها أهلها وربعك وظلمها الزمان.. أمك التي كانت تنوح وتُخرمش وجهها وهي تندب وتصيح بأسمائكم.. كانت حريقًا هائلاً بالقلب أمك يا مجير.. كانت تناديك وتنادي أخاك سليم وأختك فاطمة.. إستيقظت أمومتها هناك على حين غرّة في المستشفى.. كانت ما إن تنتابها حالة «الهستيريا»، ماذا؟!

تدخل شاكر هذه المرة قائلًا بثقة هستيريا تعني انهيارًا عصبيًا.. حسنًا كانت تنادي صارخة أنا سنية القاروطة.. سنية الهبلة.. سنية بنت اللوز والربيع.. ناصر أين أنت يا ناصر يا حبيبي وبندقيتي وكوفيتي، ناصر يا حبيب القلب والروح. ومن ناصر هذا بحق الله؟! هذه قصة أخرى لم تَبُحْ لي أمك بالكثير عنها.. ولكنني أجزم أنها قصة من خيالات أمك الواسعة سعة بلاد الله. وأين هو؟! لا أعلم. طيب من يكون؟! يا ولدي لا تهبلني كما هبلتني أمك لقد قلتُ لك إنني لا أعرف عنه شيئًا والله أعلم. حسنًا يا حاجّة وماذا أيضًا هيا فاجئيني؟

حسنًا.. وكانت يا إبني عندما تهدأ وتستكين تحت تأثير الحقن المهدئة تهذي بأسمائكم.. تعانق الهواء وتخاطبه كأنه سليم.. كانت تقول عندما

يكبر سليم سيأتي لاستعادتي.. سيكرّمني ويرد إعتباري وشرفي. وعني أنا الجرذ الصغير ألم تقل شيئًا؟! عن فاطمة لم تقل شيئًا؟! بلى لقد قالت يا ولدي وناحت عليكم جميعًا.. كانت عندما توثّق نفسها ولا أعلم من أين كانت تستمدّ تلك القوة لفعل ذلك كانت تنادي على أبيك بصوتها المبحوح.. والله لا أعلم لماذا كانت تُوثق جسدها بتلك الصورة الغريبة والمؤلمة.. يا ويلي عليها كم تعرضت للعلاج بالصدمات الكهربائية خاصة بعد محاولتها للانتحار أكثر من مرة.. لا أعلم يا ولدي من أين انبعث عشقها للموت وحقدها على الحياة.. مرة واحدة يا ولدي.. إنهار فوقها اليأس والدمار والظلم فلم تعد قادرة على الحياة. هل تريدين حقًا أن أصدقك.. أن أركع لك الآن وأقول يا قدّيسة القدّيسات كم أنتِ صادقة ونقية في كلامك؟! كلا مستحيل. أمي أنا سنية تمزقتْ وجُنّت وضاعت هكذا؟ كلا مستحيل.. والله إن الموت لأرحم وأشرف لها.

يا ولدي أنت لا تعلم شيئًا.. أنت لم ترها، لا تذكرها.. فأنا التي رعيتها ورأفت بها لا أنتم.. أنا التي خبّأتها وهرّبتها من مصير إلى آخر ومن موت إلى حياة. حسنًا لنفترض أنني أصدقك قولي لي إذن لماذا لم تُعلمينا بأمر جنونها؟ لماذا لم تُعيدها إلينا يا خالتي؟ بلى.. لقد ذهبتُ إليكم.. نعم قصدتُ بيتكم في «أم الشرايط» ولو أن أباك حيًا لأكّدَ لك كلامي هذا.. إذ زرتكم بعد أن تقصيّتُ أخباركم ومكان سكنكم الجديد.. كان أبوك حشاشًا محترفًا.. أبلغته بكل شيء لكي أخلي نفسي من المسؤولية ولكنه لم يصدقني وطردني من بيتكم هو وزوجته اللعينة.. لقد قال لي مُدّعيًا أن سنية ماتت بنظره منذ أن هربت وأصبحت خائنة ومجنونة.. ألم يقل لك شيئًا يا ولدي؟ ألم يقل لك أنني أعطيته المال الذي كسبته وادخرته أمك من عرق جبينها لكي ينفقه عليكم بناءً على رغبتها؟ والله لم أرَ قرشًا أحمر ولم أسمع أبي أو أنيسة أو سليم أو فاطمة يهمسون على الأقل بما تدعيه يا خالة.

حسنًا وماذا أيضًا هيا قولي.. رغم أنني أعلم بأنكِ مجرد بطلة لا بل أنتِ كما يقولون في السينما «كومبارس» استأجرك شاكر لحلّ معضلات وألغاز روايته هو وليست روايتي أنا -طبعًا لم أقل لها هذا الكلام الفظّ بل أقوله ما بيني وبينكم الآن فحسب- حسنًا يا خالتي ماذا عن سونيا.. عندما تنقلب أمي سنية إلى سونيا أو بالأحرى لماذا كانت تنقلب إلى سونيا؟

صمتتْ العجوز.. شهقتْ ثم نكستْ رأسها ورؤوسنا جميعًا بالأرض.. رمقتْ هي شاكر بضيق فشهق بدوره.. رمقتني أنا فلم أشهق بل صرختُ بوجهها بامتعاض: هيا ما بكِ حائرة قولي ما عندك.. يا ولدي لا أريد أن أقسو عليك أكثر.. بالله عليكِ يا ستنا الحاجّة هل سترأفين بي الآن؟! أنا الذي خُلقتُ في سبيل القسوة ومن أجل أن ألعن وأشرّد وأتوه.. هل ستعرضين عليَّ الآن خدمات رحمتك؟ هيا قولي فنحن في الخاتمة.. في قاع الخاتمة.

يا ولدي عندما كانت تنقلب أمك إلى سونيا والعياذ بالله كنتُ أنفرُ منها وأعود أدراجي إلى بيتي خائبة حزينة. لماذا ما بها سونيا؟ سونيا هي النادلة التي صارتها أمك في يافا.. النادلة الجميلة الفاتنة التي وقعتْ في حبائل ذلك الإسرائيلي عمير.. ماذا؟!

صرختُ بحدة لا بل عويتُ.. لا بل تدبتُ.. ماذا؟! أمي أحبت يهوديًا؟! ألم أقل لكم يا سيداتي وسادتي؟! أرجوكم لا تحدجوني هكذا بقسوة.. لا تذلّوني أكثر.. لا تصدقوها.. أرجوكم لا تصدقوا هذه المرأة.. احجبوها عن حسابات «الفيس بوك» الخاصة بكم.. ألا لعنة الله عليك يا شاكر أنت الذي أدميتني وشظّيتني.. أمي أنا تصبح سونيا ثم حبيبة رجل إسرائيلي! هل هذا معقول يا الله؟

لأ يا إبني.. أمك لم تُحبه يجب أن تفهم القصة جيدًا. تفضلي إذن افهميني أيتها العجوز اللبيبة!

أمك يا ولدي كانت تعاني من وحدة قارسة وأوجاع الماضي.. لذلك أرادت أن تنسى أو تتناسى. يعني تقصدين أنها أرادت تجاهل ما حدث معها وإنكاره؟! هل يُعقل هذا أيها الناس؟ هل تصدقون أن هناك أمًّا تتجاهل وتُنكر أطفالها وماضيها لكي تُسلي فؤادها وتملئ شواغر المشاعر فيه؟

يا ولدي لا تظلم أمك فهي مظلومة منذ أن خُلقتْ.. أمك لم تُحبه بل تجنبتْ حُبه هربت منه.. قالت له عمير لا أريد منك حبًا ولا شفقة.. فقط أنا هنا في هذه الشرفة البحرية لأستمع لك وتستمع لي فبعد قليل سأعود إلى أهلي. يعني فَضْفَضَة؟!

يا امرأة يا عجوز إن مجرد جلوسها مع ذلك الإسرائيلي هو خيانة بعينها! لأ يا ولدي حرام عليك لا تقل عنها هكذا فهي كانت تعلم بالنهاية بأنها لن تحكم على علاقتها به بالحكمة والمنطق رغم أنه كان ولهانًا بها. ماذا؟! نعم لقد أحبّها بشدة ذلك الملعون.. لم أعرف في حياتي رجلًا أحبّ إمرأة مثل ذلك الذي اسمه عمير.. ماذا؟! ألا تخجلين من نفسك ومن قول هذا الكلام لي؟! يا ولدي أنت تريد الصراحة.. وها أنا أرديك بالصراحة. أي والله لقد أرديتني وأدميتني وإن لم أشكرك أنتِ فأنا أشكر صديقي شاكر ألا لعنة الله عليه وأدخله جحيم نيرانه. حسنًا.. قولي كيف كانت أحوالها عندما تنقلب إلى سونيا؟

كانت تصرخ باسمه.. تشتمه.. تلعنه.. تباركه.. في مزيج غريب من المشاعر المتناقضة. هل زارها في المستشفى؟ صمتتْ. فعاجلتها بصرخة فأجابت مُتلعثمة نعم زارها أكثر من مرة ولكنني كنتُ له بالمرصاد.. في إحدى المرات هدّدته بالشرطة ثم طردته.. ومع مرور الوقت لم أعد أراه هناك بالمستشفى.

كلا.. مستحيل.. هذه المرأة رغم احترامي الشديد لها كاذبة.. ومفترسة حقائق.. هذا ليس صحيحًا.. حسنًا. فلنفترض أنني أصدقك لذلك دعيني أسألك السؤال الذي لطالما أحرقني ولعنني وبعثرني أين أمي؟ أين هي أمي؟ هذه المرة صمتت تمامًا تنهدت بمرارة.. صمت مرير ثم صمت مقيت ثم صمت لئيم ثم صمت سقيم ثم نطقت: أمك هربت من المستشفى في أوائل عام 2000.. لقد مكثت فيها ما يقارب الثلاثة أعوام دون أدنى تحسّن.. كانت تمتهن الجنون تحترفه.. إذ إنها رفضت الاستجابة لبرامج العلاج النفسي.. هكذا قال لي الأطباء هناك في دير ياسين. وأين هربت؟! لا أعلم يا ولدي.. بحثتُ عنها في يافا.. سألتُ عنها «أبو طوني» وزملاءها في المطعم وجيرانها في الحي الذي كانت تسكن فيه. ذلك الوغد ألم تسأليه؟! بحثتُ عنه.. سألت عنه فلم أعثر له على أدنى أثر. ماذا تقصدين أيتها المرأة العجوز؟ هل تعنين أن أمي هربت إليه.. يعني سونيا صارت مع عمير؟! لا والله يا ولدي ما قصدت هذا.. ما أقصده هو أن قصتك التي بُحتَ بها أنت لابن الناس هذا -أشارت إلى شاكر بيدها- ليست دقيقة ومجافية للحقيقة. كلا أيتها المرأة.. يا من خلقك شاكر حرفًا حرفًا في صفحات ادعاءاته وخيالاته الأدبية.. مستحيل يا أم حسين فقصتي هي الأدقّ والآن سأتلوها عليك عليكم وعلينا جميعًا.. الآن حان دوري أنا الذي مازلتُ أعدو لاهثًا من هول ذلك سأبوح لكم بالنهاية.. سأقصّها عليكم.

نعم.. لقد رأيتها. رأيتُ عينيْها السوداوين.. يا لسحر العينيْن. لمحتُ وجهها يا لجمال الوجه.. سمعتُ صراخها يا لحدة الصراخ.. واستنشقتُ رائحة خوفها ورائحة الموت ورائحة أخي سليم المتخبط جانب ذلك المقنّع الضخم، في ذلك اليوم من آب عام 2002 صيف رام الله، إذ كنت سعيدًا حينذاك لأنني عدتُ إلى تنشق نسيم الحرية بعد ستة أشهر قضيتها مسجونًا في سجن «تلموند»، كنتُ مشتاقًا لرؤية أخي سليم، منذ أن

أُطلقَ سراحي وأنا أبحث عنه بلهفة وخشية، خاصة بعد أن تحولت مناطق السلطة إثر اجتياح شارون الكبير في نيسان من ذات العام، إلى ساحة حرب يومية للدبابات الإسرائيلية والاشتباكات القوية ما بين جيش الاحتلال والمقاومين الذين كان أخي سليم واحدًا منهم، ياه كم كنتُ مشتاقًا إليه. في ذلك اليوم كنتُ عائدًا من تجوال خائب في شوارع رام الله، متألقة كانت أنيسة. جذلى بابتسامة مشبعة بالشماتة واللؤم طغت على وجهها، كانت جالسة على عتبة بيت المخزن كأنها تترقب أحدًا أو خبرًا سعيدًا، سألتها باستسلام ألم تسمعي شيئًا عن أخي سليم يا أنيسة؟ ألم تريه؟

أجابتني بتلقائية: إنه في تلك الورشة الكبيرة الواقعة في الحارة الجنوبية.

لم أصدقها بالبداية خاصة بعد أن أقسمت بشرفها، وأنتم عليمون بشرف أنيسة أكثر مني، بيْد أنني مضيتُ قائلًا لنفسي إنني لن أخسر شيئًا بالنهاية تلك العصيرة اللعنة من الشهر الملعون من السنة اللعناء رأيتُ الدماء وحيرة أخي وخوفه، كانت المرة الأولى التي أرى فيها سليم خائفًا ومرتعدًا بعد أن دفعني إلى الأرض وتسبّب في كسر ذراعي الأيسر، صرخت به مُلتاعًا بعد أن لمحتها من شقوق الجدار:

- من هذه الحلوة يا سليم؟

فشتمني قائلًا وهو يلوّح بالخنجر بيده:

- إذهب من هنا قبل أن أقطع رأسك مثل الكلاب.. هيا إنصرف إلى البيت. حسابي معك هناك.

فهربتُ من أمامه، وكما قلتُ لكم في البداية فقد شعرتُ بعينيْ تلك المرأة تتشبثان بي بظهري أن عُد أنقذني، سمعتُ صرختها الأخيرة جرفني

طوفان دمها الساخن وألقاني على عتبة بيتنا، هناك إنتظرته لاهثًا خائفًا متألماً، ريثما عاد أخي سليم، عاد مرفوع الرأس قابضًا على الخنجر الذي كان يقطر دمًا، كان منتشيًا والله أعلم. عندما لمحته هربتُ إلى داخل البيت خوفًا منه، ناداني بصوته المبحوح: لا تخف لن أقتلك يا مجير، لن أقتل أحدًا بعد اليوم، اليوم عرسنا يا مجير.

لم أُعقب، دلف إلى حجرة أبي الخرابة، أبي الغارق دومًا في نشوة الحشيشة والخمر دنا منه سليم. ألقى الخنجر في حِجْره، فانتفض أبي بشدة، كانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها يرتعش هكذا، مال عليه سليم وقبّل رأسه وجبينه قائلًا بفخر: - قتلتها يا أبو سليم.. غسلتُ عاري.. أليس هذا ما تريده يا أبو سليم؟

ثم أطلق ضحكة عصبية إمتزجت بها زغرودة لئيمة فاحشة أطلقتها أنيسة، فأصبتُ أنا بقشعريرة حادة كادت تقسمني نصفين. حدج أبي سليم بنظرات خاوية من أي معنى أو استجابة، دون أن يتفوّه بحرف واحد، ثم نكّس رأسه وانهمك بإعداد لفافة حشيش. هرعتُ أنا صوب سليم كالممسوس وسألته بريبة:

- من التي قتلتها يا أخي؟

التفت نحوي، نظر إليّ بشرود كما لو أنه كان يحاول أن يتذكرني ناسيًا أنني أخوه الصغير، ثم وقف مترنحًا، فرك وجهه براحتيه وهو يتمتم بكلمات لم أفهمها ثم قال متلعثمًا: المرأة التي تسببت لنا بكل ما نحن فيه من عار وخراب.

تشبثتُ به وسألته متوسلًا: من هي يا سليم من هي؟

ضحك مرة أخرى ثم دفعني عنه بشدة قائلًا:

- هي التي تبحث عنها دائمًا وتسألني عنها دائمًا وتبكي عليها دائمًا.

سألته مُشكّكًا بخفوت متجاهلًا آلام ذراعي المكسورة المبرحة:

- أُمنا يا سليم.. قتلت أمي؟!

صرخ في وجهي صرخة مجروحة مقهورة ثم قال بغضب:

- ليست أمنا أيها الوغد.. ليست أمنا.. هل فهمت؟!

ثم انصرف من البيت مسرعًا، فخرجت في إثره رغم الآلام. كان قد اختفى، فقصدتُ مكان الجريمة فلم أعثر على جثة أو على أي أثر للدماء، لم أجد قتلًا هناك، إعتقدت للحظة أنني كنتُ أهلوس، بحثت عن سليم فلم أعثر عليه. سألتُ الناس والجيران والمارة في الأزقة والشوارع من التي قتلها أخي سليم أجيبوني. كنتُ أتوسّلهم.. وأستجديهم.. أتشبث بهم ولكنهم كانوا يهربون من سؤالي العبثي، ثم شعرتُ بدوار رهيب لفّني بوحشية، إنبثقت حفرة سوداء من هوْل الألم وجذبتني إليها فهويتُ بها، إلى أن إستيقظتُ في مستشفى رام الله الحكومي بذراع منتفخ بالجبص جاثم فوق صدري. لم يكن أحد ليواسيني ويعتني بي، لم يزرني ولم يعطف عليّ أحد، حتى أخي سليم لم يسأل عني، أخي الذي لم أره منذ ذلك اليوم ولا أعتقد أنني سأراه أبدًا لأنه أُعتقل بعد مرور ثمانية أيام من تلك الحادثة، وحُكم عليه بالسجن المؤبد مدى الحياة داخل السجون الإسرائيلية بتهمة إنتمائه لإحدى المجموعات المسلحة وتنفيذه لعدة عمليات وأنشطة كما إدّعى جيش الاحتلال.

هذه هي الحكاية سيداتي سادتي، فهل تصدقون ما قالته تلك المرأة المقدسية أم حسين؟ لا بالله عليكم إذ إن كل البلد علمت بما اقترفته يدا

أخي سليم، لقد قالوا إنه قتل عميلة لجهاز الأمن الإسرائيلي، قالوا إن سليم قتل أمه الخائنة التي هربت إلى «إسرائيل» خوفًا من العار والفضيحة، وإنه قام باستدراجها بعد أن علم بمكان سكنها الواقع في «تل أبيب»، قالوا إنها هي سنية بشحمها ولحمها، سنية الهبلة الجميلة. ومنهم من قال إن سليم ادّعى قتل أمه إذ إن التي قتلها هي امرأة أخرى كانت تدير شبكة دعارة وتجسّس لصالح إسرائيل، هل هذا معقول؟ قولوا لي أنتم بالله عليكم من ستصدقون ومن سأصدق أنا؟ أصدقُ نفسي أم أقاويل الناس ورواياتهم المتضاربة أمْ أم حسين المقدسية؟ صدقوني أنا، فأنا قد لمحتها في ذلك اليوم أمي.. كأنها أمي.

حسنًا..

هكذا إنتهت الحكاية.. بل تنتهي قصتي بمصير يتراوح ما بين بئر وجنون وقبر مجهول..

هكذا يذبل أخي في غياهب الحكم المؤبد الجائر، دون أن أعلم عنه شيئًا منذ عشر سنوات..

هكذا أنكرتني وتنكرني شقيقتي فاطمة.. هكذا هربت أنيسة زوجة أبي بعد إعتقال سليم واختفت، قال الذين يحترفون الأقاويل إنه تم العثور عليها مقتولة وهي مقيدة إلى جذع شجرة صنوبر في أحراش القدس الغربية وعلى جسدها آثار تعذيب واعتداء جنسي، هكذا وبعد خروجي من المستشفى بعد شهرين من العلاج عثرتُ على جثة أبي متحللة مُتعفنة في أريكته الحشيشية المفضلة، وهكذا لم أتأثر وأحزن عليه بل اختنقتُ من رائحته الكريهة وتقيأتُ ثم هرعتُ مناشدًا إمام المسجد الواقع في حارتنا لكي يقوم بإكرامه لمرة واحد فقط ولكن هذه المرة في مماته وليس في حياته.

وها أنا الآن هنا وحدي هذا المساء في بيت المخزن، اليوم هو الخامس والعشرون من يناير عام 2011 ومازلتُ حتى اللحظة أشتمُّ رائحة جثة أبي النتنة، كأنني لم أدفنه، كأنه مازال مستلقيًا جيفة مهترئة على أريكته.

لستُ حزينًا ولا سعيدًا اليوم، مُحطم نعم.. مكسور منهوك مخذول نعم، شاكر سعيد جدًا اليوم هاتفني قبل قليل بصوت يطغى عليه السرور لسببين كما قال لي، الأول هو انتهائه من تأليف الرواية التي سأنكرها وسأمزّقها وسأحرقها حتمًا، لأنني أرفض الجانب المتعلق بأم حسين وقصة سونيا وجنون أمي، والسبب الثاني كما قال لي هو الثورة على نظام الحُكم في أكبر دولة عربية هي مصر، وهذا ما لا يهمني ولا يهزني ما دمتُ حتى الآن عاجزًا عن لملمة حطامي وأشلائي، غير أنني تلوتُ عليكم حكايتي لكي لا أموت، لكي لا يطلع عليَّ الصباح ويحزُّ عنقي بحقيقته هو فوق مائدة وهمي.

حسنًا.. لن أطيل عليكم.. هذه المرة حقًا لن أطيل عليكم، فلدي موعد مع صديقتي ناتاشا ويجب أن أمضي إليها مُتسللًا إلى القدس كما هي العادة، ولكن اسمحوا لي أن أقول لكم الآن كلامي أنا الذي أُنهي فيه قصتي، كلامي أنا وليس كلام صديقي شاكر..

سيداتي سادتي..

يجب أن نحيا مرة أخرى من جديد.. نحن قتلى لا أقل ولا أكثر.. لذلك يجب أن يكون في داخل كل منا رحم ما.. رحم يحتوينا.. ويُعيدنا إليه.. نحن نحتاج إلى أمٍ فينا لكي تلدنا من جديد إثر كل مرة ننكسر فيها بفعل عواصف الزمن وحقد أيامه.. نُولد من جديد إمّا لننتصر أو لنُهزم ثم نولد ثم نولد ثم نولد..

حسنًا..

إلى اللقاء...

القسم الثاني:

كأنها أُمي

رواية

بقلم شاكر المنيفي

دار الأحلام المقدسـية

للإعلام والنشر

الطبعة الأولى ربيع 2011

توطئة وإهداء:

هذه حكاية سنية كما رواها أو حاول أن يرويها لي ابنها مجير الذي لم يجرها، وكما روتها حد الغرق الأحاديث المدلوقة من أفواه الذين عاصروها وعصروها ومرّوا من جانبها ومرمروها وعبروا بها وحطموها وأدموها وبعثروها ثم هبلوها.

فإلى هذه المرأة وإلى ابنها مجير أهدي عملي المتواضع هذا.

شاكر

القدس أوائل 2011

(«هناك فرق، قالت له، الحكايات تنقسم إلى قسمين: حكايات تنتهي وحكايات تموت. الحكاية التي انتهت نستعيدها حين نحكيها، وتبقى حاضرة معنا، أما الحكاية التي ماتت فتنطفئ، وما بيعود في ضوّ، كيف الواحد بيقدر يقرأ بالعتمة، إنت عم تطلب مني أقرأ بالعتمة، وأنا ما بعرف»)

إلياس خوري

الفصل الأول:

كيف انبثقت «سنية» شجرة لوز في ربيع قريتها «عين المرجة»! وهي الطفلة التي نالت على عتبة عمرها البهي حصتها كاملة من غير نقصان من اليتم ووجع القلب. ها هي اليوم في ربوع القرية الصغيرة الواقعة غرب مدينة رام الله، قد بلغت مقدمة حياتها برفقة موكب من فراشات وأريج وأزهار وبإصرارها على حقها بالفرح والاحتفاء بكل جمالها الصارخ في البريّة، لتغدو في مصيرها اللوزي اليانع أيقونة القرية في مواسم الخير والزيتون. تنتشر «سنية» في خضرة القرية.. تتمدد بكرومها وزيتونها بخمسة عشر ربيعًا بهيًا. كانت تدرك إيقاع الأرض وتحفظ قصائد الأشجار والجبال وجنة قريتها الصغيرة، حفظت الأسماء. أتقنت الرقص برفقة الأشجار. تعلمت بساطة الأرض وصمتها المقدس حين كانت تقضي معظم أوقاتها هناك، في الطبيعة الحرة لتتجلّى ينوعًا في الربيع لدرجة أنّ الذين يتقنون الوصف والحكايات في القرية وصفوها قائلين حين أزهرت: «سنية القاروطة هي إبنة الربيع».

هي القاروطة التي مهدها اليُتم المفجع لم تنعم بحياة عادية وطبيعية، المولودة البكر الأولى والأخيرة التي ما إن صرخت وسقط رأسها فوق ثرى عين المرجة حتى تيتّمتْ فاقدة أمها بعد أن عجز جسدها الهزيل عن

الصمود في وجه آلام الوضع المبرحة، لتتحملها سنية حين أشرفت على حياتها وأزهارها في القرية.

ومن قال عن سنية إنها إبنة الربيع ولوزة عين المرجة لم يدّع نبوءة، فهي ما إن فُطمت عن حليب المرضعات من نساء قريتها حتى فقدت أبيها «مصطفى البدري» الذي كان على وشك الزواج بعد أمها ببضعة أشهر، فالمحزن والمفرح في نفس الوقت بأمر سنية إصابتها باليُتم الساحق بعد عدة أنفاس معدودة لها في هذه الحياة، دون أن تعي ذلك إلاّ عندما كبرت في أجواء القرية التي أضفت عليها أزهار اللوز ويُتمها ولم يتبقَّ لها في هذه الحياة سوى جدين على وشك الرحيل.

جدتها «أم ناجي» لم تكترث كثيرًا بطقوس الحزن التي أُقيمت لرحيل زوج ابنتها زكية، إذ إنها لطالما لعنت «مصطفى» أبو سنية في سرها كما تلعن أصله وقريته المجاورة لعين المرجة على ذلك الزواج المبكر الملعون كديجور فجرٍ لئيم، فلو أنهم صبروا قليلًا لتكبر زكية ابنة الأربعة عشر عامًا، لتتنفس لتنضج، بيد أنهم أصرّوا على أصل القرية وعجلتها بهذه المسائل كما هي عجلتها بمسائل الموت. فأم ناجي هي التي احتضنت سنية بلهفة الأم إثر إلقاء مصطفى بها على عتبة بيتها بعد وفاة زكية، كما لو أنها ابنة حرام ليست من صُلبه، حيث أنكرها رافضًا الاهتمام والاعتناء بها، إذ وهو وحيد أبويْه كان يريد ابنًا يحمل اسم أبيه فإذا بها طفلةٌ لن تشد من أزره في قريته الذكورية، التي لم يتمتع بها «مصطفى» بعائلة كبيرة ممتدة وجاه ونسب عريقين.

حين جاء خبر مصطفى تنهدت أم ناجي بحرارة غامضة: خطيّة البنت الله ما برميش حجار من عنده.

كان ذلك مساء يوم جمعة من باكورة عام 1968 حين كان عائدًا من عمله المرهق في البناء في «تل أبيب» التي كانت تكبر وتشتد عمارًا إسمنتياً في منتصف الساحل الفلسطيني المحتل، كان كدأب غيره من أبناء جيله قد هجر الأرض بعد احتلال كل الأرض، هجر رحمها الذي وُلد منه، ليلجأ إلى الأيسر كما كان يقول العمل في البناء وكسب مال أكثر، لم يكن هاجس مدينة المحتل وخبزها المرّ ما يقلقه، بل كيفيّة تأمينه لحياة زوجية جديدة وكريمة، ولكن ذلك ما لم يتحقق، فالحافلة الصغيرة التي أقلّته والمزدحمة بالأجساد المرهقة من العمل والمذلة، اصطدمت بشاحنة كبيرة مثقلة بحملها الأسمنتي، ليقضي أربعة عمال من بينهم مضطفى أجلهم مبكرًا مرتاحين من عبء الحياة وتل أبيب معًا. قال بعض أهل قريته إن سائق الشاحنة هو مستوطن حاقد تعمّد الاصطدام بالحافلة لإيذاء ركابها وقد نجح في مسعاه اللئيم وأما البعض الآخر قال إن مصطفى لم يكن يعمل في تل أبيب أصلًا، بل في المستوطنة الجديدة المجاورة لقريته، وأثناء عودته من العمل افترسته ثلاثة خنازير بريّة وأحالته إلى كومة أشلاء وبأن تلك الخنازير أطلقتها أيدي الغدر من داخل المستوطنة بعد أن شك أحد المستوطنين بعلاقة مصطفى الغريبة مع ثلاث نساء من المستوطنة، علمًا أنّ مصطفى كان يتمتع بطلّة آسرة ووسامة منقطعة النظير.

لم تكن سنية تعلم شيئًا عن ماضي أبيها والحكايات التي لفّتْ مصيره البائس، كما لم تدرك أمها سوى ظلالٍ من أحاديث جدتها المقتضبة عنها، ولذلك فقد أخذت تنمو وتترعرع لوزةً كما يناسبها ولا يصلح إلاّ لها مدركةً تهرّب جديها من أسئلتها الجارحة حول أبيها وأمها، كانت تتمتع بتلك القدرة الغريبة التي تستطيع من خلالها سبر أغوار الوجوه وكشف ما تخفيه، ولذلك لم تكن تأبه كثيرًا حين كانت تلمح السعادة في وجه جدتها أثناء حديثها العابر والسريع عن أبيها «مصطفى البدري»، كما أن سنية لم

تكن لتحزن أيضا لأنها يتيمة الأم، بل كانت ترقص فرحة حين تُدلل وجهها الخلاّب أمام المرآة قائلة بطرب: أنا أمي وأمي أنا.

كبرت سنية. أينع جمالها رغم وحدتها القارسة وعدم اعتراف أسرة أبيها بها أو على الأقل زيارتها، أزهرت اللوزة متفردة بحزنها وفرحها وجديها، كان ثمة ما يُضفي على حضورها الفجري في أنحاء القرية سحر الأشجار، إذ لم يمنعها توحدها وأصل عائلتها الصغير من التألق نجمةً في سماء القرية وفيافيها ومدرستها الصغيرة، ورغم ما يسببه هذا الجمال المباغت من غيرة وحسد لا يقوى نسب سنية الشحيح على درئه عنها، إلاّ أنها ببراءتها الساطعة استطاعت أن تتجاوز تعليقات القرية الجارحة: جمالها شؤم وموت.. سنية القاروطة لا حسب ولا نسب ولكن جمالها يقهر بلد.. يمنح الله شيئًا ويأخذ شيئًا.

لقد تسامت سنية بعفويتها عن كل هذه الإساءات، بيد أن ما خفف عنها أكثر هو كسبها لودّ جارتهم المدنية «سعاد» القادمة من مدينة رام الله، والتي كانت بدورها مثار جدل نساء القرية تندرهن وكرههن لها بسبب لهجتها الناعمة وفتنتها وسطوتها على زوجها «أحمد» الذي لعن الساعة التي تزوجها بها وأحضرها إلى القرية إثر زواج طارئ أملتاه عليه أمه وخالته. سنية لم تعر انتباها لحديث النساء عن جارتها العزيزة سعاد، بل أخذت بالتقرب منها وزيارتها بعد أن لمست روحها الطيبة وتلك الأحاديث، الغريبة عنها المتعلقة بواقع المدينة وقصصها وأجوائها.

كانت سعاد تمتلك تلك القدرة المؤثرة على قصّ الحكايات الغريبة التي لطالما خدشت حياء سنية، في الوقت الذي كانت فيه سعاد أيضًا تتعامل مع واقع القرية الغريب عنها ببراءة الطفلة، فمن نوادرها التي كانت تقع بها بدافع من دهشتها وعفويتها حادثتها الشهيرة مع «نعمان»

التي أصبحت مثار سخرية نساء القرية منها، حيث انها استيقظت ذات صباح على صراخ «نعمان» راعي الماشية، أثناء مروره برفقة أغنامه من أسفل شرفتها، فأطلّت عليه وهي تتثاءب متمطية بقميص نومها الأحمر الشفاف:

- شو عم بتئول للغنمات يا نعمان؟

فأجابها نعمان الساخط من حظه الملعون العاثر بالغنم منذ فجر حياته: أقول لهن أنزعن قمصان النوم والبسن ملابس الحراث. فسألته مستغربة ببراءة:

- كيف بدهن يلبسوا ئمصان النوم؟

حدجها نعمان بعينين حمراوين ساخطتين كما كأنه على وشك الانفجار غضبًا وبكاء. حدّق بها للحظات دون أن يجيبها، ثم أكمل طريقه ودربه في رعي الماشية وحديثه معها.

بدورها قامت أم ناجي بتحذير حفيدتها من التردد والتودد إلى سعاد: هي من بلد ونحن من بلد.

- بس نحن من نفس البلد يا ستي!

- لأ يا هبلة سعاد هذي خرابة بيوت وذبّاحة رجال إبعدي عنها.

لم تكترث سنية لكلام وتحذير جدتها، وأمعنت في زيارة سعاد، يدفعها في هذا فضولها وحاجتها إلى الابتعاد عن الرتابة ومصير اليتم، وانعكاساته الجارحة، إذ اكتشفت لديها البعد السري لجمالها، كما لو أن سعاد قد أخذت على عاتقها إضفاء بعد جديد على جمال سنية وطلّتها الآسرة قائلة بسخط في سرها إن سنية لا تستحقها هذه القرية الصغيرة المتهالكة،

فها هي هنا بعد أن كانت تصول وتجول في المدينة قد جاءت لتوأد في القرية المهجورة من قبل المدينة وآفاق المدينة وغوايات المدينة ولعناتها ولعنات سعاد. حيث حدثتها سعاد «أم السعد» عن أجواء ماضيها لم تبخل عليها بسرد مغامراتها السرية هناك في رام الله رغم ضيق الأزقة والشوارع وكثرة الأعين، التي لا تفقؤها حرارة حب لمراهقة كانتها سعاد التي لو قُدّر لأم سنية الحياة لكانت في مثل عمرها الثلاثيني الآن: كنت أذهب إلى سينما «دنيا» سرًا مع ابن الجيران لنشاهد معًا أفلام هند رستم وعمر الشريف ورشدي أباظة.. حبيبي أنا كان يشبه عمر الشريف ولكن فيلمنا معًا كانت نهايته حزينة..

تتوقف عن حديثها فجأة أمام ذهول سنية من وقع هذه الكلمات الغريبة عليها لتطلق سعاد ضحكة عصبية مغناج ثم تستطرد قائلة بمرح: كنت أهرب من المدرسة الثانوية الواقعة شرق المدينة مهربة معي ملابس أخي لأرتديها متنكرة بها.. حازمة شعري داخل كوفية بيضاء ثم أمضي إليه.. لقد قضينا معًا في عتمة السينما أجمل الأوقات وأحلاها.. لم نكن نعلم ماذا ستكون نهاية قصتنا في مدينة لم تكن مستعدة بعد لفتح أبوابها لنا، إلى أن جاء اليوم الذي لم يعد فيه لدى أخي أيه ملابس ليرتديها..

وتطلق ضحكة أخرى مختنقة بدخان سيجارتها السرية: اكتشفوا قصتنا.. رفض ابن الكلب المجيء لخطبتي بعد أن وعدني بذلك باللهجة المصرية.. كنت على وشك القتل.. كاد أخي أن يزهق روحي أمام أعين أسرتي.. إلا أن ستر أمي حماني من الموت ليلقي بي في هذا البيت بعد أن أقنعت خالتي بزواجي من ابنها أحمد.

لفظت اسم زوجها بسخرية حادة بدّدت أجواء ضحكاتها السينمائية. هكذا ألقت سعاد في وجه سنية البريء تجربتها وقصتها وأسرارها أثناء

ضفرها لشعر سنية الحريري الفاحم. في ذلك المساء عادت سنية أدراجها إلى بيتها ذاهلة، صعدت إلى غرفة العلية الصغيرة حيث كانت تنام وحدها، ثم أخذت تنسج في مخيلتها الندية أحداث سعاد وقصصها وأفلامها، ثم حلّت ضفيرتيها ونامت.

***

ذات ظهيرة حطّت سنية في بيت سعاد كما هي عادتها دون إذن وتنسيق مسبقين، فهي باتت من أهل البيت. جازت الحديقة الصغيرة وهي تدندن لحنًا من ألحان الأفراح القروية، دلفت إلى الصالة فلم تعثر على سعاد. توجهت نحو المطبخ ولم تجدها هناك أيضًا، بحثت عنها هنا وهناك، إلى أن تناهت إلى مسامعها البريئة أصوات منبعثة من غرفة نوم سعاد، دنت بتردد وبطء من الغرفة، فاتضحت الأصوات التي تحولت إلى صرخات مكتومة و تنهيدات حارة وضحكات قصيرة محدودة بآهات وأنفاس محمومة، خشيت سنية من الاقتراب أكثر،عادت إلى الوراء عدة خطوات ثم نادت على سعاد بصوت يبحث عن الطمأنينة وصاحبة البيت، فما هي إلا لحظات حتى خرجت سعاد بوجه مُضرج بالارتباك واللهاث، دون أن تقوى على تمالك نفسها أمام عيني سنية الباحثتين عن إجابة لهذه الإمارات الغريبة، خيّم صمت لم يُقضّه سوى الأعين الهاربة من بعضها البعض، وخروج مفاجئ لرجل بهيئة مبعثرة من غرفة نوم سعاد مرّ مسرعًا من جانبهما، فقالت لها سعاد بصوت مرتعش: هذا أخي عبد الهادي الذي حدثتك عنه جاء من رام الله لزيارتي .

لم تعقب سنية، بل حدقت بوجه صديقتها الكبيرة، حدقت بقسوة. بتشوّف. بقدرة خارقة على اكتشاف افتضاح لغة الوجوه. حدقت في وجه سعاد الفاتن بجسدها المكتنز بالشهوة والغواية. بشعرها الكستنائي

المبعثر على عنقها وكتفيها العاريتين المحمرتين من أثر يدي أخيها كما ادّعت بيضاء الحُسن كانت أم السعد، بوجهٍ يشي بعدم قدرة صاحبته على اختصار حياتها برجل واحد فقط. دنت منها سنية أكثر باحثة عن اليقين، عن تكذيب حدسها، بيد أنها لم تجد سوى الحطام ورائحة احتراق صديقتها سعاد. سنية التي لم تكن تعرف لهاث الرغبة وصرخات الاكتفاء وتململ الأجساد فوق فراش المتعة، سنية بِكْر السماء ولوزة القرية اكتشفت كل شيء في لحظات من عمرها الربيعي. لم تتفوه بكلمة بل قست على سعاد وارتباك سعاد، ثم أدارت لها ظهرها ومضت بدربٍ واحدة لا عودة فيها إلى بيت سعاد أم السعد..

***

كانت تلك صدمتها الأولى وباكورة أصوات الحطام التي طالما ستسمعها في حياتها، لقد آلمها عبث سعاد كما أوجعها أيضًا تعرفها المبكر على معنى الخيانة والتهتك، عندما كانت تلمح الأطفال الثلاثة وهم يلعبون في الحارة متمرغين بوحلها، كانت تتخيل صوت أمهم أم السعد وبتأوهاتها في سرير الحرام، إلا أنها ما تلبث أن تطرد تلك الأصوات وما تخلفه من قشعريرة بالجسد الطفولي البريء. جدتها أم ناجي لمست انقطاعها عن زيارة سعاد فسألتها: ما بالك لا تزورين المدنية؟

فلم تكن سنية لتجيبها بعد أن نجحت في التدرب على صمت لا يليق إلا بزهر لوزها، فلم تُعِد جدتُها الكرة بالسؤال لأنها كانت تعلم في قرارة نفسها أن حفيدتها تتمتع بقدر هائل من الغموض والصمت، وبأنها لا تبوح بما يجول في خاطرها إلا إلى الأشجار، كانت سنية في لحظات حزنها انتكاسها ومعاقبة جديها لها على أمر ما تلجأ إلى الأشجار إلى أعمق أعماق القرية حيث الربوع المكسوة بآمال سنية وتطلعاتها. كانت تهرب إلى

شجرة لوز بعينها تقع في شمال شرق القرية، في جبل «المكسور»، كانت تحتضن جذع الشجرة كما لو أنها أمها ثم تشرع بالبكاء بضفيرتين تأتلفان مع أغصان الشجرة، تنوح على كل ما فيها من حزن وحياة لم تألفها منذ ولدت رغم ائتلاف أهل القرية على شؤم جمالها. تبكي سنية على سعاد، ومن أجل سعاد، كقديسة تقيم صلاة للخاطئين والخاطئات لعلّها تطهرهم وتحررهم من الغوايات وآلام التجارب. في محراب الشجرة تسأل نفسها: لماذا فعلت سعاد هذه الشائنة؟ لماذا لم تستر روحها وجسدها؟ لماذا لم تهتم بأطفالها وتحرق ذكرياتها السينمائية في المدينة؟

لم تكن تعرف سنية ما الذي يعنيه الحب؟ أي حب؟ في المساحة الضيقة وبلاد تخنق العباد وعباد لا يفهمون البلاد، أي حب هذا في الطريق القصير إلى كرم الزيتون أو المدرسة التي لم تصل سنية يومًا إلى آخرها بل إلى آخر مصيرها هي، المصير الذي لن يختلف كثيرًا عن مصير أمها الضنيل في هذه الحياة؟

سنية الصغيرة تكبر.. سنية اللوزة تنضج وتزهر.. سنية تتهادى ربيعًا وتكسر الحزن إذا تطاول عليها، وتمضي بتلك القدرة الهائلة على النسيان والتجدد، لتنجو من أثر سعاد، فما دام يحتضنها كل هذا الجبل المكسو بالأفق الجميل ورياحين راحتها فيه، لن تهون سنية أم الضفيرتيْن والعينيْن السوداويْن والوجنتيْن المشوبتيْن بزهر اللوز. تخطر الجميلة. تنسى دفعة واحدة رغم تعرض سعاد أكثر من مرة لها أثناء مرورها الخاطف أمام منزلها، كانت تقف في وجهها، تهزها، تسألها: لماذا هجرتني يا سنية؟ أنت فاهمة الموضوع غلط.

فلا تجيبها سنية، بل كانت تحدجها بقسوة ثم تتجاوزها مسرعة إلى بيتها، فهي تعلم في قرارة نفسها أن سعاد لم تكن عاتبة عليها لعدم

عودتها إلى زيارتها، بل كانت تبحث في عين سنية عن فضيحتها أمام أهل الحارة والقرية، ولكن التي ترعرعت داخل أجواء الفقدان والحرمان كانت على قدر عال من الصمت والتكتم على كل ما يجول ويعتمل في داخلها الصغير الحزين. منذ أن تفتح وعيها على ضيق القرية وترديد صدى طرقاتها وأزقتها لكلمة «قاروطة»، وعدم قدرة جديها المنشغلين بهموم آخرتهما على احتضانها كما يتناسب ووحدتها ونوارها الآخذ بالأسر والبهاء، منذ مهدها توحدَت سنية مع التراب والغرس والزرع، وكان موطنها السري الأول «حاكورة» بيت جديها الصغيرة، لتعتنق الأرض وتتقن كيفية مداعبتها وملاعبة ترابها وزراعته ببذور الحياة، لم تكن هي امتداد الأشجار في قريتها بل كانت الأشجار امتدادًا لها، فما أن تمسّ يداها الأرض بالبذار حتى تنبت وتزهر يداها خصبًا وعشقًا ما إن تحتضنا غرسة لوز أو زيتون حتى تزهر.

كان ثمة فيض للحياة ينبعث منها، إذ أدركت سنية قدرتها هذه وزاولتها متوحدة بها بعيدًا عن القرية وترهاتها.

***

في موسم قطاف الزيتون أواخر السنة، كانت سنية تعيش أجمل وأبهى أوقاتها رغم عدم امتلاك جدها «أبو ناجي» لأراضٍ وكروم كثيرة، إلا أنها كانت بالحصة الضئيلة تنخرط في موجة عارمة من الطاقة على العمل والغناء برفقة جديْها اللذين كانا لا يسرّان إلا بها في موسم القطاف، كانت تتسلق الشجرة، لا تكسر غصنًا ولا تَجِدّ الشجرة بالعصا، بل تتحسس جذوعها وفروعها، ثم كأم حنون تمسّد على جبين طفلها كانت تقطف الزيتون وتهدهده وتغني له.

تألّقت سنية هذا الموسم، بعد أن أينعت وظهرت عليها معالم الأنوثة الطاغية، نسيم القرية العابق كانت. تداعب أهداب الشجرة، وشجرة كانت

تدندن أغاني القمر، تكدّ معوّضة عجز جديها وثقل همتهما، تجمع الزيتون المتساقط هنا وتتسلق تلك الشجرة الرومية هناك. لم يكن زيتونهم كثير، ولكنه معها كان يكثر ويتكاثر وسط إستغراب أهل القرية المارّين من جانب كرمهم الصغير، حيث كانوا يلحظون سنية وهي تعمل بجدٍ ونشاط جامعة الزيتون في بضع أكياس وصرر قماشية، لتذهب برفقة جدها إلى معصرة القرية الحجرية من أجل عصره زيتًا صافيًا، كان ثمة قهر وحسد في أعينهم.. ما أقواها من أين لها هذه العزيمة: أنظروا.. سنية القاروطة تفوق أجملكن حسنًا وها هي تعمل مثل الحمارة.

كما لم تكن جدتها «أم ناجي» لتتغاضى عن جهدها وتعبها، فقد كانت وفي كل موسم رغم شُح الموارد الناتجة عن بيع زيت الزيتون تشتري لسنية وشاحًا مطرزا وموشى بالألوان الزاهية، فأصبح لدى سنيّة أوشحة عديدة بألوان مختلفة تتباهى وتتهادى بها بفرح وسرور، فلم تكن وسط حالة الفقر والفاقة التي تعيشها أسرتها الصغيرة تبحث عن تمرد على واقعها، بل كانت على قدرٍ عالٍ من القنوع، فما الذي كان ينقصها سوى مصير يشبه في غالب الأحوال سائر نسوة القرية وهذه البلاد؟ الزواج. رغم أن جدتها وقفت في وجه «أبو ناجي» الذي طالما كان يلمح إلى نضوج سنية وتفتحها، حتى قالت له أم ناجي ذات عصيرة بحدة وغضب: - البنت بعدها صغيرة.. بدّيش أتحسر عليها متل أمها.

- يا أم ناجي القاروطة كبرت وصارت شلبية.. كل أهل البلد بحكوا عن سنية القاروطة!

- دعك منهم هذه ابنتنا وما لها سوانا.. دعها تكبر قليلًا.. انظر إليها ما زالت حتى الآن تلعب بالتراب داخل الحاكورة.

فهل كان يخفى أمر هذه النقاشات الحادة بين الجدين على سنية؟

أبدًا. بيد أنها كانت تسد أذنيها حين كانت تتناهى إلى مسامعها أحاديث الزواج ونضج والجمال والستر، وأما أثر هذه النقاشات فلن يطول عليها، خاصة بعد أن قرر جدها في لحظات وجده وصفائه حرمانها من إكمال تعليمها، بعد أن لاحظ نموها ونضوج جمالها المبكر، فكان ذلك من دواعي سرورها هي التي كانت أيضًا لا تحبذ المدرسة بعكس بنات جيلها الباحثات عن متنفس صغير خارج البيت والحقل، إذ لطالما أزعجها وجرحها تغامز وتلامز البنات عليها في المدرسة، حتى أنهن كن مؤمنات أنّ الهبل قد نال منها وأن نوار اللوز سرقها، حيث كان أهل القرية يعتقدون أن من يطيل النظر والوقوف أمام أشجار اللوز في عز نوارها الربيعي يصاب بلوثة جنون، فاعتقدن أن هذا ما أصاب سنية التي يلازمها الصمت والشرود الدائمين هو سرقة نوار اللوز لها، غير أن السبب الحقيقي كان تفوقها عليهن جمالًا وأدبًا ووحدة، لذلك لم تتفاجأ سنية من قرار جدها بل فرحت به في سرها ابنة الخمسة عشر عامًا وعدة أحلام وأشجار، وسط استغراب جدتها التي اعتقدت لوهلة أن حفيدتها ستجن من حرمانها إكمال تعليمها. فإثر هذا الحرمان المحبذ انشغلت سنيـة أكثر في زراعة ورعاية حديقتها السرية في جبل «المكسور»، الذي وإن كان بعيدًا عن بيتها فإنها كانت تبلغه وتسكن إليه بلهفة كما لو كان بيتها الأزلي، فما إن تنهي أعمال المنزل ومساعدة جديْها حتى تمضي إلى الجبل، تصله أصيلًا. تصافحه وتعانق أشجاره وأزهاره وفراشاته. كان الجبل مرتعها وأملها وأُفق جمالها، فيه أحالت شجرتها الخاصة عرشًا لها هي الملكة الحسناء الهاربة من حكايات جدتها الشعبية، هناك كانت سنية تتكلم. تشدو. ترقص برفقة أصلها اللوزي، كل الوقت كان يصلي صلاة الربيع الذي لم تعرف سواه موسمًا لها، موسمًا للخصب والينوع والحياة.

***

ذات عصيرة وأثناء انشغالها بجمع الزعتر البري في جبل المكسور، اشتمَّتْ رائحة نيران قريبة من ركنها السري، فتلفَّتت بحذر إلى ما حولها ونفرت كغزالة شعرت فجأة بخطر الصياد، إذ لم يكن أحد يطأ مملكتها الفردوسية كانت لها وحدها فقط، بحثت عن مصدر الدخان وريثما استدلت إلى انبعاثه من كوة صخرية صغيرة على مسافة قريبة منها في منتصف الجبل. انتابها الخوف فتجمدت في مكانها. قبضت بيدها على باقة الزعتر كما لو أنها تتوسلها الدفاع عنها في مواجهة الخطر المفترض، ولكنها ما لبثت ان اندفعت بفضول نحو مصدر الدخان متسلقة حبائل الجبل بحذر شديد دون أن تحدث أدنى جلبة، تضامنت معها الأشجار، وارتها أثناء تسللها إلى أن اكتشفت أن الكُوَّة هي باب غارٍ صغير كان مغلقًا بالعلّيق والحشائش وبعض الحجارة، اكتشفت مباشرة بغريزتها التي نمتها بالجبل أن ثمة يدًا آدمية فعلت كل هذا حاولت أن تطل برأسها إلى داخل الغار يخنقها الفضول أكثر من رائحة الدخان المنبعثة من داخله، فلم تعثر على شيء. احتارت بأمرها ثم أطلّت مرة أخرى مقتربة أكثر بعد أن كممت أنفها وفمها بوشاحها، ولكنها لم تلمح أحدًا في داخله، فجمدت في مكانها لعدة لحظات أمام هذا الطارئ الغريب كما لو أنها كانت تنتظر أحدًا. ثم تنهدت بحيرة والتفتت إلى الوراء لكي تعود أدراجها إلى حديقتها، إلا أنها اصطدمت بشبح آدمي اعترض طريقها بشموخ قائلاً بحزم: «من أنتِ.. وماذا تفعلين هنا؟؟»

لم تجبه سنية. ذعرت. ارتعدت. ألقت زعترها البري من يديْها ثم ولّت هاربة من أمامه أسرع من غزالة.

- انتظري يا بنت.. انتظري لا تخافي.

هذا الجبل الذي لم يكن سوى لها وحدها فقط، اكتشفت لتوها أن

شبحًا يسكنه معها. لم تلتفت. أطلقت ساقيها للريح، والريح وحدها التي حطت بها أخيرًا في عليتها مذعورة ومحمومة.

***

على مدار عدة أيام إثر تلك المصادفة الشبحية، لم تتخل سنية عن اعتكافها داخل عليّتها، وسط اعتقاد جدتها «أم ناجي» أن الصغيرة أصابتها عين حسود رمتها بهذه الحمى السقيمة، ولكنها لم تكن تعلم أن سنية مصابة بنوع آخر من الحمى، حمى انتهاك مملكتها السرية واختباء رجل غريب فيها دون أن تعلم.

حمّى سنية سببها هو ذلك الرجل الشبحي الذي كان يراقبها دائما دون أن تشعر بذلك، وكان أيضًا يستمع إلى أغانيها وأحاديثها السرية مع الأشجار كما لو أنه رآها عارية. غضبت سنية. هذه هي المرة الأولى التي تغضب فيها على نفسها لأنها لم تكن حذرة وفطنة بما يحيط بمملكتها السرية، غضب عارم احتلها بسبب ذلك الذي انبعث أمامها فجأة دون أدنى رحمة ورأفة بها، دون أن يشعرها بوجوده في ذلك الغار، كأن يختبئ وراء صخرة، كأن ينحنح كأن يقول لها من بعيد ما قاله من قريب. لعنته في سرها ذلك الذي انتهك ركنها المقدس، ولكي تلعنه بشدة أكثر حاولت استعادة ملامحه ونبرة صوته، كان شابًا تُزين رأسه كوفية بيضاء مرقطة باللون الأسود، يرتدي ثيابًا خاكية، صوته عميق كأنه منبعث من أعماق بئر، كما لمحت بيده أيضًا قطعة حديدية غريبة الشكل سوى ذلك لم تلمح ولم تسمع بعد تضامن الريح معها في الهروب من أمامه. في فراشها تململت سنيه ما بين الخوف والسخط والغضب وبقايا الحمّى، تحاصرها الأسئلة وشعورٌ ما أخذ يتنامى ويتصاعد في داخلها، لربما كان شعورًا بالكره، لا بل هو شعور بالفضول بالنقص بالغضب. حلّت وضفرت

ضفيرتيْها أكثر من مئة مرة داخل عزلتها العلية، دون أن تكتشف ذلك الشعور الذي يصيب الحلق بغصة مريرة محرقة. وبعد أكثر من خمسة عشر يومًا من تلك المصادفة الشبحية، قررت سنية استعادة مملكتها من ذلك الرجل مهما كان الثمن، فهي الملكة وصاحبة الجلالة وتلك مملكتها وركنها المقدس، فكيف بعابث أن يعبث بها؟ ولذلك تغلبت على خوفها أو على الأقل تظاهرت برباطة الجأش، ومضت في أثير الوقت وقتها الأجمل العصيرة، أصيل وشاحها الفيروزي الذي ارتدته ليزين ضفيرتيْن ملكيْن بحرسان الملكة، ومضت. هذه هي المرة الأولى التي تنقطع بها لفترة طويلة عن حديقتها في جبل المكسور. وصلتْ بأنفاس منقطعة. حيث الأشجار والأزهار والحجارة التي كانت تنتظرها على أحرّ من اللهفة والشوق، ثم تربعت على عرشها كما لو أنها تنتظر ذلك الرجل في بلاطها لتحاسبه وتحاكمه، تلفّتت بحذر مشوب بالقلق في أجواء الصمت الذي شعرت به غريبًا ومتواطئًا ضدها هذه المرة بعد أن خبأ في أجوائه ذلك الرجل. تحول القلق إلى حذر والحذر إلى خوف والخوف إلى ذعر أنزلها عن عرشها، اتكأت على جذع شجرتها المحببة إلى قلبها. تمتمتْ بهمس كأنها تطالبها بحمايتها وبثّ الطمأنينة في نفسها حدقت بالبعيد هناك في منتصف الجبل، لم تشتم رائحة دخان. حدقت من جديد مقتفية أثر ذلك الشبح فلم تعثر عليه. انتابها شعور ممزوج باليأس والخوف والإحباط. أطرقت تفكر من جديد مستعيدة ملامحه إلى أن جاءها صوته من جهة ما ليست بقريبة وليست ببعيدة، ليست على الأرض ولا في السماء، كما لو أنه انبعث من داخلها: مشان الله ما تخافي.. أنا بني آدم إنسي متلك.. لا تهربي أرجوك.

انتفضت سنية بذعر محتضنة الشجرة بشدة متوسلة الحماية والملجأ. لم تقوَ على الهرب هذه المرة، ثمة ما سمَّرَ قدميها وغرسهما في اعماق

الأرض. ناداها مجددًا من ركنه السري دون أن تحدد هي الجهة التي ينبعث منها صوته العميق: لا تخافي، سأقترب الآن قليلًا لكي تريني.

لم تجبه سنية. شهقتْ بحدة. وضعت يدها على فمها. أغمضت عينيْها. تلت صلواتها وآيات قرآنها بهمس مرتعش كما لو أنها على منصة الإعدام، ثم سمعته بوضوح أقرب وأشد هذه المرة: حسنًا.. ها أنا خلف الشجرة التي أمامك مباشرة.

كانت على مشارف البكاء والاختناق في حيرة من أمرها ولسانها: أرجوكِ لا تخافي.. أنا لستُ وحشًا لا تغمضي عينيك.. انظري إليّ.

تسلّلت الطمأنينة الدافئة من صوته إليها لتهدئ من روع خوفها وارتعاشها، ثم فتحت عينيْها ببطء كالمستيقظة لتوّها من حلم طويل وأطلت برأسها ناظرة إليه، من وراء الشجرة، كان شابًا في منتصف العشرينيات من العمر، طويل القامة بجسدٍ ممشوق وشعر مُجعد طويل يحرس وجهًا من حقول البلاد حنطي، بعينين خضراوين تشعّان هيبة زيتونية على لحيته الوقورة بسوادها الغزير، تزيده الكوفيه سحرًا على سحر ملابسه الخاكية الغريبة.

قال لها بصوته الواثق بالطمأنينة والدّعة: حسنًا.. هل رأيت.. أنا مـبخوّفش.

ضحك ضحكة قصيرة عذبة ثم دنا منها رويدًا رويدًا. صدّتْ هي حراكه الحذر باتجاهها بصوت خائف حاد: لا تقترب قف حيث أنت.

فتجمّد في مكانه لا من حدّة صوتها بل من صفاته وأثيره الملائكي ثم سألها مُبتسمًا: هل أنتِ من عين المرجة؟

أطلّت برأسها من وراء جذع الشجرة مرة أخرى، لتراه بوضوح أكثر

لتكتشف وجهه وما يشي به، لتطمئن إليه أو لتهرب منه، حدقت به بصمت وسط ارتباكه هو من قسوة وغرابة نظراتها وجمالها الخارق على بعد عدة خطوات منه منتظرًا إجابتها. تنهدتْ أو بالأحرى تنفست الصعداء كما لو أن وجهه باح لها بما تريد معرفته، أجابته في محاولة منها للتخلص من أثر الخوف في صوتها:

- نعم.. أنا.. من هنا.. يعني من عين المرجة.

سألها بتودّد: ماذا تفعل فتاة مثلك هنا؟

غضبت من سؤاله شعرت بأن فيه استخفافًا بها: وما الذي تفعله أنت هنا في مملكتي؟

أجابها متعجبًا: مملكتك؟!

ارتبكت سنية فاستعادت مخبأها خلف جذع الشجرة، وأخذت تتمتم بصوت منخفض محدثة نفسها: عن أي مملكة تتحدثين يا هبلة؟

لم يَسُدْ الصمت طويلًا بينهما حتى بادرها هو بصوته الآخذ بالقرب والوضوح: - جئت ضيفًا على مملكتك فهل ستستقبلينني يا مليكتي؟

قالها بأسلوب مسرحي مصطنع، فاحمرت وجنتاها وهي وراء الشجرة، فجذبت وشاحها على شعرها مطالبة نفسها بضرورة الخروج من حالة الارتباك المريعة هذه والوقوف في مواجهة هذا الشاب الغريب، فانبعثت من وراء الشجرة قمرًا خالصًا، لترتد على حين غرة كل أمواج الارتباك العارمة عليه هو الذي تبعثر من ظهورها أمامه بهذا الجمال البريء الذي لا يليق إلا باثنين هي وهذا الجبل الملكي. كانت المسافة التي تفصلهما لا تتعدى بضع خطوات اتكأ هو على جذع شجرة بعد أن دفعته موجة سنية العارمة إليها، حدق بها للحظات معدودة ثم خانه خجله وقسوة هالتها الآسرة

فأطرق زارعًا عينيه في الأرض. سألته ببراءة اللامكترثة بارتباكه المفاجئ: عنجد أنت بتنام بهذه المغارة.. بتخفش من الحيايا؟

شعر هو بأن أجواء الثقة والأمان بدأت تسود ما بينهما فرفع بصره نحوها من جديد مجيبًا:

- قبل فترة أشعلت نارًا بالمغارة لكي أطرد الحشرات والأفاعي والآن أصبحت أحسن بيت في المملكة!

- بتتمَسْخَر عليّ؟!

- لا.. أبدًا.. هذا المكان هو جنة بالفعل وليس مملكة فقط.

- طيب.. إنتا من رام الله؟!

سألته ببراءة تفوق عمرها البريء، فأجابها مندهشًا بسؤال: ولماذا من رام الله؟

ارتبكت فأردف قائلًا: أنا من بلد بعيدة اسمها أم الزينات لأنو جميع الفتيات إلي فيها زينات متلك.

توردت وجنتاها وبحركة غريزية شدت من أزر وشاحها: وما الذي جئت تفعله هنا؟

- قصة طويلة.

***

كالمسحورة عادت إلى بيتها على متن مركب سماوي من شفق الغروب، نهرتها جدتها على تأخرها وذكّرتها بأنها باتت صبية كبيرة ولم تعد صغيرة، تلقتْ سنية التقريع والتوبيخ دون أدنى تأثر به، فهي كانت مُخَدرة تمامًا بعبق لقائها المدهش والغريب معه. التهمت ما أعدته جدتها لها من

خبز الطابون المغمس بزيت الزيتون والسكر بنهم ولهفة، ثم صعدتْ إلى عليتها برفقة رياحين اللقاء وارتباكه.

ناصر.. هذا هو اسمه والفدائي هو لقبه. اذن هذا هو الفدائي الذي لطالما حدثتها جدتها في طفولتها عنه: يوم ولدتِ يا سنية كان هناك في القرية المجاورة لنا مجموعة فدائية اشتبكت مع جيش اليهود وأصابت منهم الكثير.. كان ذلك وقت ما احتلونا في سنة النكسة.

- كيف شكل الفدائي يا ستي!

- شاب يا ستي متل الشاطر حسن جهم وطويل وعريض.

حدثها ناصر، أسرَّ للصغيرة بقصته، الصغيرة التي أمطرته بأسئلةٍ التي تنم عن براءة الطفولة والدهشة الصافية التي لم تستوعب بعد العالم وما يتناوب عليه من مآسٍ واحتلال وقتل وتشريد ودمار، كان مذهولًا من صفاء وعيها الجنيني، ساعيًا حسب معرفته أن يوضح لها سبب تخفيه في هذه البقعة المهجورة من العالم: تسلّلتُ مع أفرد مجموعتي الفدائية الأربعة.. استشهد أحدهم والثلاثة الآخرون لا أعلم ما هو مصيرهم.. وأنا علقت هنا.. حيث خضنا إشتباكًا عنيفًا مع العدو الصهيوني قبل شهرين بالقرب من المعسكر الواقع جنوب قريتكم.. وها أنا بتُّ الآن مطاردًا في وطني.

تستعيده سنية في عليّتها وتحاول قدر فهمها البسيط أن تعي كلماته التي كانت بمثابة ألغاز تُحاصر إدراكها الآخذ بالنمو، إذ تلعن للمرة الأولى في حياتها الوقت الذي حرمها من الاستمتاع بصوته وهو يتلو قصته عليها، تستعيده، ترسمه أيقونة في ذاكرتها التي شرعت تستعد لاستقبال الأحداث والأشخاص والحياة كل الحياة. تستعيده وتعد أسئلة للقاء التالي: هل ثمة لقاء آخر؟

هكذا تسأل نفسها، إذ كيف في لحظات تتبدّد مشاعر الخوف والارتباك من اللقاء المباغت مع رجل غريب، لتحل محلها مشاعر الطمأنينة والفضول إلى التعرف عليه أكثر، هو ناصر الآتي من البعيد من مجهول لم تعرفه يومًا إذ ينتظر في غار الفداء رسالة ما قد تأتيه من قائده، رسالة تأمره بالتحرك إلى موقع آخر من أجل تأمينه، إلا أنه في الغار لم ينزل عليه ملاكٌ ولا وحيٌ بل سنية ابنة القرية الوادعة التي لم تنم في الليلة التي أعقبت لقاءها البكر به، شعور غريب غامض لفها خنقها قلّبها كما يشاء، وقادها على التعرف على قيمة أن ينبض القلب لا للحياة فقط بل للحب.. الحب؟! ولكنه ليس حب سعاد ولوثة فراشها الحرام، بل حب اللوز وبراءة الأرض البكر. تتململ سنية في فراشها تنهض. تطل من نافذة العلية نحو حاكورتها التي تحتضن الضحى مكتسية ثوب الندى، تدرك سنية الوقت، تبحث عن ساعاته ودقائقه، تدرك معنى الانتظار، انتظار أصيلها الأرحب والأجمل لا لتكون الملكة بل لتكون شجرة في حضرة ناصر الفدائي المتسلل اللاجئ المطارد داخل وطنه.

***

في ركن سري مسروق من زمن الدمار عزفت سنية ألحان عمرها اليانع في حضرة ناصر، وسرقا الوقت معًا هو الفدائي الذي لعنته رداءة الأيام والمصائر المأساوية، المتخفي كنبيٍ في غار تَعبده، المتدثر بضفيرتي سنية إذ تهبط عليه لينثر القلب عليها لتكبر به وبأوجاعه وخذلانه، وهي التي معه بدأت تغني على هذا الإيقاع الجديد من أنغام مرتها الأولى المزدانة بالكروم والأزهار البرية.

- أنتِ. أم الزينات.. أنتِ حلمٌ هاربٌ من سماء قريتي.

- وأين تقع أم الزينات؟

- في جبال حيفا.

- وأين حيفا؟

- على البحر

- وأين البحر؟

- هناك في الغرب.. غرب القلب.

يتوقف الوقت في جبل «المكسور» عند كل أصيل، إذ تصله سنية وتأتيه بأكاليل من دهشتها الأولى وشوقها الأول، تهبط عليه ملاكًا، تعدّ له مائدة الأرض مما تيسّر من خبيزة وتين وعنب وزعتر وتعصر حب الزيتون ليسيل من بين أناملها زيتًا ذهبيًا متلألئ بآية عينيها، وتسرق من طابون جدتها رغيفين من الخبز البلدي لتطعمه هو الجائع لوطنه إذ شعر بنعمة اللجوء لهذا الجبل، هو الذي طالما حلم بوطنه وتجليه له على شاكلة امرأة، المتسلل كعاشق كامرئ القيس حين كان يدخل إلى خدر محبوبته عنيْزة، ناصر يرى الوطن أمامه بضفيرتيْن وأكليل من الغار والأقحوان. سلاحه الأكيد سنية، إذ تعيده إلى المهد، إلى طفولته في مخيم عين الحلوة وأزقته التي لم تحفل يومًا بأشعة الشمس ودفء الطفولة، حين كان جده يحدثه ويتلو عليه وصايا أم الزينات قريته الواقعة في جبل شامخ من جبال حيفا، عن حُسن نسائها وشهامة رجالها حدثه حتى إعتنق ناصر العودة واهتدى إليها بما قلده إياه جده في وصايا ومفتاح بيتهم الكبير في القرية المنكوبة لتتجلى الوصية فدائيا صارخًا عبر النهر، نهر الأردن بعدته وعتاده، بعد أن فشلت محاولات تسلله من جنوب لبنان بسبب الإجراءات الأمنية المشدّدة من قبل العدو الإسرائيلي فعبر ناصر النهر برفقة أعضاء مجموعته الفدائية مُشتبكًا وإياهم مع العدو إلى أن تسلل إلى هنا إلى عين المرجة، التي

شعر منذ لحظة إختبائه الأولى في رحمها بأنها أم الزينات التي رسمها في مخيلته. كان قائده المسؤول عن عمليات الأرض المحتلة قد أوصاه مشددًا عليه قبل أن يعبر النهر: في حال حدوث خلل في تنفيذ العملية الجأ إلى جبال رام الله وابق هناك إلى أن تُؤَمِّن نفسك وتخف حِدَّة المطاردة، ومن ثم تذهب إلى المدينة، حيث العنوان الذي عليك أن تحفظ طريق بلوغه كاسمك.. كلمة السر هي الكنافة النابلسية أشهى من حلاوة السمسم.. وهناك سيتم تأمينك داخل الوطن إلى أن نؤمن عملية إعادتك إلى القواعد في لبنان.

في غارهِ كان يحلم بتذوّق حلوى الكنافة من مكان إعدادها الأصلي في نابلس، لم تكن تبعد عنه سوى عِدّة أميال، لكنه في واقعه المتفجر لن يتذوقها سوى كلمة سر. في غاره كان مستعدًّا للعدو، للمتطفلين، للحيوانات المفترسة، للحشرات والزواحف السامة. كان ينام محتضنًا بندقيته كامرأة تمنحه الحب والأمان معًا، مقاتل فدائي لطالما حلم بهذه اللحظة التي يلتحم فيها ويشتبك مع العدو على أرض الحبيبة التي أمّنتْ له في شهرين داخل رحمها زادها البري وماءها العذب، كان مُستعدًّا لكل شيء سوى هي.. سنية.

- أنتِ بِكْر هذه الأرض.

- ماذا تعني؟

- أنتِ بريئة جدًّا يا سنية.. براءتك قاسية تجنني!

تضحك سنية وهي تناوله رغيف الطابون المغمس بزيت الزيتون وحلاوة يديها. اعتنت به سنية كما اعتنت الأشجار، كما لو كان لعبتها السرية التي عثرت عليها في ظل جبل المكسور، لم تفهم أحاديثه وتباريحه وأوجاع

قلبه وخذلانه، كانت تحاول قدر براءتها فهم الحد الأدنى من هذيانه، ولكن هَمَّها الأول كان اكتشافه والاستمتاع برفقته في حرية هذا الجبل الخالي من كبت البشرية وآفات الأعين المتلصصة.

- تعال.. سأشربك أعذب وأطيب ماء لم تشرب له مثيلًا طيلة عمرك.

أمسكته من يده ثم خطرا معًا يتسلقان حبائل الجبل، إلى أن بلغا مجموعة صخور فاقتربت سنية من إحداها ثم نادته: هيا.. اشرب من هذا «النُّقر».

- نُقْر؟! سألها مستغربًا.

فضحكت بمرح قائلة: نعم.. نعم هذا تجويف صخري صغير تتجمع فيه مياه الأمطار.

فلم يتجاوب معها، فرمقته ببدايات غضب طفولي واضعة يديها على خصرها النحيل، فقال مداعبًا: حسنًا.. أمري لله سأشرب.

- اشرب فهذه دموع الجنة.

لعبا، ضحكا، تراشقا بالماء والأزهار، سكنا بين حنون الغزال وشقائق النعمان والنرجس. هكذا هجرت سنية القرية وعليّة بيت جديْها.

كانت تتسلل إليه بنجاح كما تسلل هو إلى أرضه المحتلة، وقتهما معا كان وقتًا ورديًا عابقًا بالبراءة والندى. تناسى ناصر برفقتها هموم مصيره المجهول، ولعن زمن عدوه المتربص به، لم يشعر معها بمرور الأيام بعد أن أحالت سنية غاره إلى جنة عشق مكلّل بسماء الطهر وسَجِيَّة الأرض كان ينثر عليها الرياحين والشعر معًا: «من رموش العين سوف أخيط

منديلاً، وأنقش فوقه شعرًا لعينيك.. وإسمًا حين أسقيه فؤادا ذاب ترتيلًا.. يمد عرائش الأيك.. سأكتب جملة أغلى من الشهداء والقبل فلسطينية كانت.. ولم تزل. فلسطينية العينين والوشم.. فلسطينية الإسم.. فلسطينية الأحلام والهم. فلسطينية المنديل والقدمين والجسم.. فلسطينية الكلمات والصمت.. فلسطينية الصوت.. فلسطينية الميلاد والموت.. حملتك في دفاتري القديمة نار أشعاري.. حملتك زاد أسفاري.. وبإسمك صحت في الوديان.. خيول الروم أعرفها وأن يتبدل الميدان! خذوا حذرًا من البرق الذي صكه أغنيتي على الصوان.. أنا زين الشباب وفارس الفرسان أنا.. ومحطم الأوثان.»[1]

ثم صمت مأخوذًا بالشعر وعينيها معًا، سألته بدهشة بعد استيقاظها من حلم كلماته: ما هذا الكلام الجميل الذي تقوله لي؟

- هذا شعر.

- وما هو الشعر؟

- كلام منظوم على إيقاع القلب.

كيف تعود سنية إلى ارتعاشات الظلال في القرية ولؤم العيون، «سنية القاروطة» تعثر على أمير جنتها السرية، وتعلو ثم تعلو ثم تعلو عن العلية وبيوت القرية المرهقة من مصائرها المكتوبة على جدرانها المتهالكة، تهجر سنية القرية لتسكن زمانها مع ناصر، وتنسى دفعة واحدة البيت والعلية وحاكورتها الصغيرة ونهايات جديها وآهات سعاد التي طالما سمعتها في أحلامها كألف نحلة، بكل هذا العنفوان المطري المدهش سكنت ركن ناصر الأبي، فهي لم تكن قد اكتملت نضوجًا لتحفظ درب العودة والتخفيف

(1) محمود درويش ديوان عاشق من فلسطين

من جِدَّة براءتها والحلم في دمها، إلى أن انتبه ناصر بعد أكثر من شهر من رقصهما الجبلي أن سنية ستظل طفلة مهما كبرت، فهي ترفض الترجل عن صهوة براءتها، وتريد أن تبقى هكذا بضفيرتيها، وأوشحتها الساحرة وأزهارها البرية، من يروض البرية ويضع حدًّا لسجيتها وفطرتها: سنية غدًّا سأذهب إلى رام الله للقاء بعض الأصدقاء.

حدقت سنية في وجهه للحظات ثم قالت برجاء وخوف: بخاف عليك من اليهود والضباع.

- لا ما تخافي أنا بعجبك. أنا زين الشباب.

- متى ستعود؟

- بعد يومين.

- خليك مَتْروحش مشان الله.

تهصر فؤاده بتوسلها الطفولي المبكي، تغرز فيه رماح براءتها الحادة، فقد كان يدرك في قرارة نفسه مدى تنامي تعلقها به وتعلقه هو أيضًا، هو الذي لطالما قال لنفسه: أحمق من يترك سنية وراءه ويمضي.. سنية وطني الأجمل.

غير أن الذي ترعرع على الواجب وتنفيذ الأوامر والانضباط العسكري عليه أن يفعل شيئًا هذه المرة، يدفعه في ذلك إنارة مصيره المجهول بنور سنية، سيمضي إلى رام الله ومن ثم سيرتب هناك أمر خروجه من البلد، وما إن يصل إلى لبنان حتى يقوم بترتيب مجيء سنية إليه من خلال أقاربه الموجودين في مخيمات الأرض المحتلة لكي يذهبوا إلى بيت جدها ويخطبوها له على سُنة الله ورسوله، كل هذه الأفكار والشطحات اللامعقولة راودت عقل ناصر في غاره بعد أن سكنته التي حدثته قصتها

الصغيرة كعمرها والحالكة السواد كضفيرتيها، سكنت اليتيمة يتيم الوطن: سأعود لا تخافي.. سأعود لأنثر عليك المزيد من الورد والشعر.

لم تجبه. حدقت فيه بصمت وغموض، وما إن شارفت الشمس على أخذ طقسها الأخير هذا برفقة غروبها حتى وقف ناصر وقبلها على جبينها قبلتها الأولى البكر ثم ودعها قائلًا بتودد: هذه ليست قبلة عمر الشريف بل ناصر الزيني.

فضحكت مختنقة بدموعها وتبدد أجمل الطقوس اللوزية في حياتها.

***

تذبل الحاكورة في غياب ناصر، فعلى مدار يومين لم تنم سنية إلا شرودًا في عليتها، جدتها أم ناجي لم تفتها غرابة أطوار حفيدتها التي طالما كانت ضحكاتها الصافية تتردد طربا في أنحاء المنزل: «ما بالك يا بنتي ذبلانة سيدك زعلك؟»

ولكن سنية لا تجيب، لا تبوح، بل تصر على الصمت والغياب، فالوقت لم يسعفها بيومين من الوعد المنتظر، بل أيام لم تعد تشي بالعودة.

كانت تذهب على صهوة أصيلها، إلى هناك، إلى جبل المكسور لعلها تعثر عليه، تدخل إلى غاره، تبحث في ثناياه عنه عن رائحته، تتسلق أعلى أشجارها باحثة عن أثره لتصطدم بالخواء وتبدد الزمان البريء الذي جمعها به، تقع سنية، تتعثر بضفيرتيها وخطاها، تدميها حجارة الجبل، جبل المكسور الذي كسر فؤادها ومنحها في نفس الوقت التعرف على معنى الفراق والحزن، على قيمة الحزن وقدرته على انضاج الجمال في فتاة استطاعت أخيرًا التخلص من زحف الطفولة كي تقف على ضفيرتيها أمام بيت جدها مكتملة الجمال والنضج المبكر الذي تكسوه هالة حزن

أليست غريبة على طفلة زاد عمرها ربيعًا آخر لتزهر ستة عشر شجرة لوز؟

***

مرّ أكثر من شهر وسنية تنتظر فمن ذا الذي يقوى على نزع الأمل باللقاء من فؤادها البريء؟ فهي تجاهلت ملاحظات جدتها وانتباه هذه الأخيرة لانتكاساتها وشرودها وإصرارها على المضي قدمًا في مملكتها السرية داخل جبل المكسور، غير أنها في نفس الوقت لا تمتلك أدنى قدرة من الجرأة المفقودة في قريتها لكي تقول لجدتها أن ثمة شابًا فدائيًا ملعون المصير سيبعث أهله لخطبتها في القريب العاجل، لتذبح على عتبات بيتها خلال لحظات.

كما أنها لم تكن تعلم أيضًا أن فداحة غياب ناصر وقلقها على مصيره وأخباره ستجعلها غير مكترثة بأحاديث جديها المسائية في الحاكورة:

- البنت كبرت يا أبو ناجي.

- قلت لك هذا الكلام منذ زمن ولكنك أصريتِ على أنها طفلة وتركتها تذهب وتجيء على سجيتها في البرية.

- كلامك على الراس والعين.. شوف المناسب.. إنت فصّل واحنا بنلبس.

ما الذي ستلبسينه يا سنية سوى مقدمة الخوض في مآسي الحياة، التي تشرف على البدء فاهبطي عن جبل المكسور وامضي إلى استقبال مصيرك المجهول فناصر لم يعد بعد.. ربما لن يعود أبدًا.

الفصل الثاني:

وسنية تحتجب..

جاء خريفها في عز الشتاء، شجرة حرقها زمهرير كانوني، في عليتها تساقط زهرها عنها، شجرة توشك على الجفاف واللعنة وكوابيس لا يبزغ منها ناصر نورًا يضيء لها درب العشق اللوزي، ترتدي الجرح المبكر، شقائق نعمان تنتابها في ركن الصمت صمتها المتقن والمُعد ببراءة من حزن شديد على طفولتها وجمال آسر تحرسه ضفيرتاها في عليتها.

سكنت سنية وانعزلت عن بيت جديها والقرية وأجوائها ، لتذبل تارة في خريف الهجران، ولتزهر تارة أخرى إثر حلم جمعها بناصر في جبل المكسور أو بيروت التي لن تراها يومًا حقيقة أو نهاية لحبٍ طارئ ما إن شارفتْ على التعرف عليه والتوحد في معانيه حتى رحل بلا أثر، ناصر الفدائي الذي خلّف وراءه قلبًا محطمًا في فجر حُبّه الأول، علّقها من ضفيرتيها في عليّة البؤس دون أدنى رحمة، دون أن يفك طلاسم صمتها ويجعلها تنطلق يانعة كربيع زاهٍ بالفراشات والأزهار، وهي التي معه مع ناصر فقط عبقت وباحت وغردت وازدهرت وانطلقت وتكلمت، نعم، معه سنية أطلقت لصوتها العنان بأسئلة بريئة وإجابات طفولية، معه

فكّتْ الحرف والكلام وضفيرتيْها، فوق نسائم من رحيق وحلاوة كانا معًا، حلّقا حلّقا حلّقا إلى أن حطّ بهما القدر أمام مفترق طرق لم تألفه سنية العاشقة البكر، ليركنها ناصر في عليتها، ماضيًا إلى عالم لم تستوعبه هي بعدْ، إلى بيروت ومنظمة التحرير الفلسطينـية وفصائلها وقواعدها العسكرية والتي طالما سعى ناصر جاهدًا إلى شرح وإيضاح معانيها ودلالاتها لها وما الذي تعنيه له، ولكنها هي التي كانت تستقبل كلامه بأهازيج وزغاريد القرية لم تحفظ سوى اسمه الذي رحل ومعه أيضًا رحل صوت سنية.

وسط كل هذه الأجواء الخريفية كانت سنية تكبر ويكبر برفقتها جذاها، وإذا كان كل الزمن القادم به من المسافات الشاسعة التي تتسع لعمرها فإنه لم يعد يتسع لعمر جديها القلقين عليها، بعد أن لعنت وعذبت نفسها بالمزيد من الصمت والعزلة، وهذا ما أثار حفيظة جدتها أم ناجي التي أخذت بالتقرب أكثر من أي وقت مضى من حفيدتها والصعود إلى عليتها رغم ثقل حركتها وأنفاسها، في سعي منها لكشف أحوال سنية، خاصة بعد أن ترددت في أنحاء القرية أصداء حكاية سنية وبأن زهر اللوز قد سرقها بالفعل، وأن كل هذا الجمال الزاخر بالسحر والأبهة الذي تتمتع به ينقصه العقل، إذ لم تعد سنية القاروطة فقط بل سنية «الهبلة» التي هبلتها الأشجار وجبل المكسور، ولذلك لم يصبر عليها جدها أبو ناجي كما يقول أهل القرية في ثرثرة إشاعاتهم ونميمة نسائهم فحبسها في العلية لكي لا تجلب عليه العار خاصة بعد آخر قصة كارثية انبعثت بقوة من خيالات بعض النسوة في القرية والتي تقول بأن جدها وأثناء بحثه عنها في إحدى الليالي عثر عليها في جبل المكسور وهي عارية كما خلقها ربها تحتضن شجرة لوز وتنوح ببكاء يصمّ الآذان.

التهمتها قصص القرية وتقاسمت لحمها الغضّ البريء أمام عجز جديّها عن فهم حالتها المستعصية، فأم ناجي لم تألف عوارض العشق يومًا من أيام الحصاد والزيتون والطابون وبيت زوجها «أبو ناجي»، لم يرد في بالها أن حفيدتها القاروطة قد ذاقت شهد الحب برفقة فدائي في جبل المكسور.

ورغم كل هذا البلاء المُخيّم على علية البيت، سعت أم ناجي إلى إنزال سنية عن عرش عزلتها من خلال إغرائها بمرافقتها إلى المدينة لكي تخفف عن نفسها قليلًا أثناء بيع جدتها للزبيب والتين المجفف والبيض والجبن، أغرتها بأجواء المدينة لكي تزيل لعنة العزلة وترد عنها ألسن أهل القرية مُثبتةً لهم أن سنية الجميلة ليست هبلة أو معتوهة كما يدّعون، بل قاروطة صغيرة لم تدرك بعد الحياة بلا عائلة وأب وأم، توسلتها «أم ناجي»، يدفعها في ذلك الوفاء لذكرى أمها زكية:

- يا سنية لقد أصبحتِ كبيرة وحلوة وبنات جيلك تزوجن وأنتِ لم يطرق بابك أحد بسبب عاداتك الغريبة وصمتك، ياستي وين راح صوتك؟ هذا لا يجوز إرحمينا مشان الله.

ولكن التي حلّقت في حلم العشق لم تعرف كيف تهبط، كيف تعود إلى الأرض، لتسقط، لتهوي فجأة، لتتحطم وتصاب بآلام التشظي والشرود والخبل والهبل. سنية ابنة الأشجار والربيع، وأثناء سعي جدتها إلى إشراكها ودمجها في أجواء القرية من خلال أحد الأعراس لم تدرك المثل الذي رمتها به ابنة مختار القرية في طقس الفرح والزغاريد:

- «اللّي ما عندو أصل يشتريلو كفن».

جلّ ما أدركته سنية هو عجز جدتها عن الرد على ابنة المختار، إذ من هي ومن جداها في أجواء النسب والحسب القائم على العائلة العريقة

والحمولة الكبيرة، ابنة اللا أب واللا أم، ساحت في القرية تبحث عن أعمامها وأخوالها وأقاربها فلم تجد سوى الأشجار وقهر جديها وعجز بيتهما عن الإيفاء بحق حفيدتهما وجمالها، فلم يكن كفنها سوى الصمت وما أسبغته القرية عليها من إمارات الهبل وزهر اللوز وشؤم جمالها الخارق. قالت لها جدتها مواسية في طريق عودتهما من العرس:

- بنت المختار مكيودة من حلاتك يا ستي.. نحن لدينا أصل ونحن أبناء أصل ولنا أقارب.. خالك ناجي يعمل بالكويت وعندما سيعود سترين الجاه والمال.

من خالها ناجي ذلك الذي لم يُنجِ عائلته مما هي فيه من بؤس؟ ومتى سيعود؟ هكذا كانت تسأل نفسها وهي سارحة في صورة خالها المعلقة على حائط غرفة جدتها، باحثة في ملامحه عن أمها.. عن عودته.. عن أبنائه وزوجته كانت تمتلك تلك القدرة العجيبة على غزل حكايات من وهم وخيال لتصاب إثرها بنزلة هشاشة في التعامل مع الواقع وقسوته.

***

فشلت محاولات جدي سنية كافة الرامية إلى دمجها في واقع البيت والقرية، بإصرار سنية العجيب على عزلتها وصمتها وهبلها الذي أخذت تحبه وتألفه قناعًا حاميًا لها ولعنة تزج بها في سجن العنوسة والسخرية في الوقت الذي حرّمت فيه على نفسها الذهاب إلى جبل المكسور، إذ هجرت مملكتها السرية وعرشها اللوزي والغار الذي تنزل فيه عليها وناصر وحي العشق، لتقتصر حركتها اليومية وشرودها الحزين ما بين عليتها وحاكورة البيت، فما إن تزرع في الحاكورة بعض البذور وأشتال الورد حتى تقوم باقتلاعها وتقطيعها والبصق عليها بعنف مُهمْهمة بكلمات غامضة ومن ثم تشرع في دفنها كما لو أنها كانت جثثًا هامدة في أعماق تربة طفولتها

وسط ذهول جدتها التي اقتنعت أخيرًا أن حفيدتها قد فقدت عقلها قبل أن تبدأ حياتها.

كانت تتمتم بكلمات عجيبة غريبة، إذ تُصيخ السمع لها «أم ناجي» فلا تفهم منها شيئًا، تراها في حوش البيت جالسة تحتضن باقة من حشائش وأزهار ذابلة كانت تهدهدها كما لو كانت طفلها، ومن ثم تقوم بنثرها في أرجاء الحوش بضحكات مخيفة وحزينة.

أتقنت سنية إمارات الجنون كافة، فما الذي كانت تسعى إليه؟ ما الذي يدور في عقلها اللوزي؟

هكذا.. تبتعد.. تهاجر إلى ركن لا عقل فيه، دون أدنى هموم تحتل عمرها الذي لم يزدهر بعد.

اعتقدت في حالك عليتها أن مسربها الوحيد المتاح هو الإيمان بفداحة الهجران ورحيل ناصر وأقاويل القرية المندلقة على رأسها، لتسرح في هبلها الحزين والذي بعثرته عليها وعبثت به كما تشاء بلذة ربما في أنحاء البيت العتيق.

جدتها أم ناجي اقتنعت، يدفعها الأسى الشديد على ذبول سنية بأن هذه الأخيرة أصابتها عينٌ حسود خارقة، وكانت ترى أن جمال سنية هو السبب الحقيقي وراء تحولها إلى كومة أزهار ذابلة، كما أدى أيضًا إلى نعيق نسوة القرية بالحسد والغيرة والكيد والتطير من رؤيتها خاصة عندما تكون سنية مزدانة بوجنتيها المتوردتَيْن وضفيرتَيْها العابقتين بالحرير والكافور، تجوس خَلَل القرية خفيفة مُهفهفة، إلى أن قضت عليها موجة عارمة من القهر والحسد، فما كان من أم ناجي إلاّ السعي باستعادة حفيدتها من خلال التعاويذ والتمائم والبخور والخرزة الزرقاء التي أحاطت بها في جيدها العاجي.

في سرها كانت سنية تضحك بسخرية ممزوجة باليأس من محاولات جدتها إنقاذ ما يمكن إنقاذه من عبير وجمال حفيدتها، واستعادة صوتها صوت كروان لطالما صدح في أنحاء البيــت، ولكن الصوت لم يعد وسنية صمّمت بإصرارها الطفولي على اعتناق الصمت والهبل والعلية ومزاولة هواية فكّ ضفيرتيْها وإعادة ضفرهما مئات المرات في اليوم الواحد أثناء شرودها وهجرتها للجبل المكسور على متن غيمة برفقة ناصر.. ناصر؟!

***

في عبث عليتها كانت عندما سمعت ذات أصيل لا يمتّ إليها بِصلة صخب جديّها المنخرطين في جدال غريب عنهما، أطلّت من النافذة صوبهما لتراهما واقفيْن في الحاكورة يقابل أحدهما الآخر على أهبّة شجار لم تألفه بهما يومًا:

- من أين ستأتي بالهبل.. هل ستشتريه؟ بالطبع منك ومن زكية!

- زكية الله يرحمها.. لا تذكرها بسوء يا أبو ناجي.

- والله أنتم عائلة من المجانين.. هذا ما كان ينقصني بنت مجنونة.

- حرام عليك البنت بعدها صغيرة.

- حرام عليكي إنتي التي تركتها تسرح وتمرح في جبال القرية.. أنظري ماذا حدث لها.. إسمعي يا أم ناجي غدًا سيأتي عريس لخطبتها.

- من هو؟

أجابها متسائلًا بسخرية: هل تعتقدين أنه ابن المختار؟ غدًا ستعرفين.

صمتت أم ناجي صمتت القرية. هدأت أجواء عاصفة القهر واليأس، ارتدّتْ سنية نحو سريرها بصاعقة مسّتها بقشعريرة حادة كما لو أنها استيقظت الآن من سباتها العميق الحلمي، أحرقها ذكر الزواج وإصرار جدها «أبو ناجي» هذه المرة عليه، وما أثار حزنها ودهشتها بشدة هو خضوع جدتها ورضوخها أخيرًا لقرار زوجها، الزواج، نعم، ألم تُلمّح لها أم ناجي به في الفترة الأخيرة من هبلها خوفًا عليها من العنوسة؟ تململت سنية في فراشها دون أدنى إغفاءة وهي تتحرّق وتتألم من لدغات الحقيقة القادمة، من العريس الذي لطالما غزلت أنفاسه وأوصافه في أحلامها وحواراتها مع الأشجار، عريس، زوج قادم، لم يخطر في بالها أبدًا أن أقارب ناصر هم الذين سيأتون غدًا لخطبتها، بعد أن أيقنت يقينًا لا لُبس فيه أن ناصر لن يعود أبدًا، ولكن هل سيكون العريس على شاكلته وفدائيته ووسامته وقصائده وعبقه؟ ومن سيتزوجها بعد أن تماهت بما قيل وأشيع عنها أنها سنـية الهبلة؟ من سيتزوج مجنونة سوى مجنون مثلها؟

هكذا كانت تسأل نفسها في العلية وفجر لا تعلم ماذا يخبئ لها نهاره.

***

- صابر؟!

- نعم صابر.. أنا أريد الستر لنا ولسنية.

- الله أكبر يا أبو ناجي ضيّعت البنت وفضحتنا!

«صابر عطوة البشيري» في الصيف يلوح من بعيد قيظًا ليحلّ في حاكورة «أبو ناجي» خاطبًا ودّ سنية.

من يقف أمام بيت تهالك عجزًا وأرذل العمر تسكن عليته سنية الهبلة، سنية القاروطة سوى صابر؟

من يأتي لفك طلاسم ضفيرتيها بعد اقتناع جديها بمصيرها الأهبل؟

ذات مساء صيفي قائظ، هبّ عليهم فجأة كعاصفة رملية جرحت ذراتها الحادة عزلة سنية مزقتها عنوةً وألقت بها من حالق البراءة إلى واقع البؤس الذي استسلم له جداها العجوزان.

نعم صابر، وأي امرأة من نساء القرية لم تكن تخشى ذكره أو مروره من أمام بيتها؟

إلى سنية ابنة الستة عشر جاء ابن الأربعين قيظًا والماضي الكريه المشبوه، كومة متراكمة من اللحم والشحم والشعر مربوع القامة بهيئة لا تشي إلا بالتوحش صفيحة زيت قديمة صدئة مجعلقة، تزوج للمرة الأولى عندما كان عمره ثلاثين عامًا من فتاة لأسرة من أتعس وأفقر الأسر في قرية «كفر راس» المجاورة لعين المرجة، ليأتي بها إلى بيته الواقع في جنوب القرية القصي فلم يرحمها، لتقضي الفتاة ابنة السبعة عشر عامًا عمرها الضئيل تحت وطأة صابر الشديدة والقاسية عليها. كان صراخها في ليالي الهتك يتردد صداه في أرجاء القرية كافة، دون أن يجرؤ أحد من أهلها على التدخل وإنقاذ الفتاة التي همدت فجأة وهجرت حياة البؤس والشتائم والتعذيب لتسكن قبرًا صغيرًا في تربة عائلتها التي سلّمها صابر صبية جثة مهترئة مُدماة لتسلّم بدورها أمرها لله.

ليس هذا وحده كان سبب نبذ أهل القرية لصابر، بل ماضي أبيه المشبوه الذي باع جبلاً بأكمله لليهود إبان احتلال عام 1967م ليبنوا عليه المستوطنة المجاورة للقرية، وما إن أوشك «أبو الصابر» على الاستمتاع بالمال الحرام حتى قتله أحد الفدائيين شرّ قتله حين قَطّع جسده إربًا ونثره فوق الجبل الذي باعه، منذ ذلك العار هاجر أخوة صابر الأربعة إلى أصقاع العالم ما بين دول الخليج وأمريكا، إذ لم يحتملوا فضيحة ومصيبة أبيهم سوى أخت صابر

الوحيدة «أم فارس» التي حرمها زوجها وجعلها تتحلل من أي ارتباط بعائلة أبيها الخائن، وصابر الذي واجه العار بالسكر والتشرد والعمل داخل إسرائيل متحديًا بسفور عادات وتقاليد القرية مما زاد قرف واحتقار الناس له، حيث كان أهل القرية حذرين كل الحذر من التعامل معه مما حال دون زواجه مرة أخرى بفتاة من قريته أو القرى المجاورة.

صابر كان عنوانًا للقذارة ومرجعية نتنه لمزابل الأرض كافة، كان يقضي معظم أيامه بعيدًا عن القرية، غارقًا في «إسرائيل» وأشغالها وملذاتها وعاهراتها، وحين تحلو له العودة كان يعود إلى قريته كالمتسلل، كالسارق يدخل إلى بيته الذي هجرته لمسة الانتماء والرأفة.

هذا هو صابر بماضيه الكريه يقف أسفل نافذة سنية ليخطب ودّها بباقة عمره الذابل، شيطان أشعث اقتنص الفرصة بعد أن اقتنع بثرثرة القرية والإشاعات التي طالت علية سنية القاروطة، لئيمًا كان في توجهه وتفكيره الرامي إلى إنزال سنية من علّيتها وأخذها إلى بيته، فقد كان ثمة تناسب مظلم حالك ما بين ماضيه وشخصيته المؤذية وما بين نسبها وأصلها وهبلها، لتلتقي النزعات والتطلعات في موكب يرافق صابر البشيري المكسور الجاه إلى بيت «أبو ناجي» لترتدي سنية ما فصّله لها جدها من مصير عبثي مظلم.

ألقت نظراتها الخائفة عليه وهو جالس في حاكورة البيت، اقتنصت وجهه ورأت كل ما توخت الحذر منه، رأت كل شيء، لم يُخفها وجهه بقدر ما أخافها وجه جدها الجاد والصارم في القبول وإلقاء هذا الهم اللوزي الأهبل عن عاتقه وعاتق زوجته التي لم تمتعض كثيرًا لدرجة طرد صابر وأنفاسه الكريهة من بيتها، إذ اكتفت بالصمت وممارسة دورها الطبيعي في الطاعة المطلقة في حضرة الذكر العجوز.

لم يأخذوا موافقتها، قالوا إنّ صمت الفتاة البكر هو علامة الإيجاب والقبول، ولكنهم لم يعلموا أن صمت سنية كان علامة الذهول، سنية التي عاقبت نفسها بتلبّس الإشاعات المقذوفة عليها من أفواه نساء قريتها، ها هي تدرك أن مسألة مصيرها باتت جدية ومأساوية ومخيفة، وهذا ما لمحته في عيني صابر الزائغتيْن، عينين ذكوريتين متوحشتين لا لون لهما، اقتنصتا سنية على حين غرة وألقتا بها من حالق عليتها.

صابر هو بعلك القادم، زغردي يا سنية وافرحي فليس الجاه العريق هو الذي طرق بابك بل الأصل المنحط هو الذي أخذك ليخوض في غمار هبلك المصطنع وزهر لوزك الذي لن يصمد كثيرًا حتى يذوي في مواجهة العاصفة الصابرية الهوجاء.

ذات صيف جاء ليساوم جديكِ عليك، فاصغِ جيدًا لتفاصيل مصيرك القادم لعلّك تستيقظين من سبات ضفيرتك:

- طلباتك يا عمي أبو ناجي؟

- لا طلبات سوى الستر والرأفة بهذه القاروطة يا صابر.

- لك مني رعايتها وصونها وتدليلها.

باطل الأباطيل والمهر مهر سنية هذا هو القدر النجس الخالي من أهازيج أحلامها وأماني جبل المكسور، مهرها لم يكن ذهبًا ولا فضة ولا ملابس زاهية ولا حناء حمراء تنقشها على راحتها اسمًا للعشق، مهرها لم يكن الزغاريد التي طالما صدحت باسمها، مهرها لم يكن سوى ظل رجل يستر عليها ويحميها من هبلها وجوْر الأيام بعد رحيل جديها عن زمان القرية، هكذا قال أبو ناجي:

- مهر البنت زلمة يا صابر.

- وانا سيد الزلام.

«أبو ناجي» لم يكن طماعًا هو الذي كان واثقًا بأن سنية لو كانت عاقلة لما قبل مهرًا لها سوى وزنها ذهبًا، ولكن العقل هو الذهب، وعقلها هي ذهب مع زهر اللوز وأحلام طفولة تلبّستها ورفضت الرحيل عنها.

حفيدته الهبلة أخذها صابر عطوة البشيري هكذا رأس برأس كما يقولون، جدها «أبو ناجي» كان له رجاء واحد فقط:

- ما رأيك بتأجيل العرس إلى أن نعرف مصير أبناء القرية في لبنان.

- ولا دقيقة واحدة، العرس غدًا، جهّزوها لي غدًا ستصبح زوجتي.

جدها «أبو ناجي» عبد العادات والتقاليد، لم تفته حرب صيف حزيران 1982 وحصار منظمة التحرير الفلسطينية من قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي، أراد لسنية وصابر عرسًا هادئًا، رغم اقتناعه بعدم حضور ومباركة أهل القرية حفل الزفاف، إلاّ أنّه رأى أنّ تأجيل العرس إلى ما بعد معرفة مصير أبناء القرية الذين يحاربون ويقاومون في بيروت أفضل وسيجعله يكبر بعض الشيء على الأقل في أعين أهل القرية بيْد أن صابر القزم جدًا في نظر أهل القرية رفض رفضًا مطلقًا مصرًا على الزواج في عز الحرب وحزيران بدمائه ومجهوله.

تلوا الفاتحة على نية التوفيق، سورة الفاتحة التي تصلح للموت والحياة معًا ثم منحوا صابر براءة القرية وشجرتها الأجمل.

جهزتها أم ناجي في الحمّام كطقس غسل الموتى، كانت سنية تتقلب ما بين يدي جدتها دون أدنى تنهيدة أو دمعة أو حتى إلتفاتة إلى عينيْ جدتها المهلوكتين حسرة وبكاء، تُقلّبها، تارة وتسكب عليها ماءً وتارة دمعًا ثم ألبستها ملابس بيضاء ناصعة بلا ضفيرتين كانت بشعر حريري أسود

منسدل على كتفيها، مسحت على وجنتيْها خدود الورد، وعطّرتها بأريجها الزكي.

كم أنتِ ممشوقة القهر والحزن يا سنية، تفرك جدتك جسدك قطعة قطعة، تُمسده، تلقي عليك التعاويذ على الجسد الغض البريء الذي سيمضي بعد قليل إلى مثواه الأخير في بيت صابر.

على مشارف الزواج كانت شاردة كخاطرة لم يسعفها شاعر بقصيدة، إذ لم تعد سنية إلى بيت جدتها إلى الحمام إلى العلية، لم تعد سنية إلى مِسك جدتها وارتدائها لما فصّله لها جدها، هكذا تستسلم، دهاها المجهول، حفرة سوداء جذبتها إلى أعمق أعماق العُته والخيبة والاستسلام، بماذا تفكر الصبية ما الذي يجول في خاطرها أثناء إعداد جدتها لها لوزةً شهية حلوة لعريسها القادم صابر، لتخرج من بيت العجوزين العاجزين دون أدنى زغرودة أو حفل زفاف بثوبها الأبيض كفن أصلها وهبلها المزيف، فالمأذون أذن والكتاب قد كُتب وصوتها رحل.

***

مساءٌ..

عندما كانت القرية توضّب أحداث يومها لتدفن نفسها في فراش النوم، وصل موكب سنية المُكوّن من جديْها وصُرّة ثيابها إلى بيت صابر الذي كان ينتظر على أحر من الجمر والرغبة زوجته الجديدة.

منحها «أبو ناجي» إليه كما يليق بأصله المتواضع، لا بل رماها كلعنة على عتبة صابر بعد أن عانقتها جدتها عناقًا حارًا أخيرًا كما لو أن سنية سترتقي منصة الإعدام بعد لحظات لتشنق بضفيرتيها. لم يكن ثمة صوت يطغى على مساء الزفاف سوى خوار صابر ولهاثه ولسانه الذي اندلق فجأة

عندما رأى جمال سنية ولولا ذرة خجل ضئيلة انتابته لأخذها على مرأى جديها، ولكنه حطّ بيده الثقيلة على كتفها وأدخلها إلى البيت بعد أن صرف جديها وما تبقى لهم من عمر في هذه الحياة.

- ادخلي يا سنية.. ادخلي يا حبيبتي لا تخافي هذا هو بيتك وأنا زوجك.

ودخلت إلى حوش البيت مترددة خائفة، شعرت بخدرٍ في ركبتيْها عندما سمعت صوت الباب الذي صفقه صابر بعنفٍ عائدًا إليها بلهاثه ورائحة أنفاسه الكريهة.

سنية ها هو يقترب.. ها هو يلامسك.. ها هو يحتلك بيديه الثقيلتيْن..

ها هو قد أعد لكِ وليمة ليلة الدُخلة، مائدة من الدجاج المُحمّر المحشو بالصنوبر والأرز والزبيب، ورغباته الدنيئة إلى جانب المقبلات وزجاجات ذهبيٌ سائلها وبعض المكسرات وغرفة في آخر حوش البيت ينبعث منها ضوء أحمر شفيف:

- اجلسي يا سنية.. لماذا لا تتكلمين.. سمعيني صوتك.. تعالي هذا هو عشاء عرسك.. هيا كُلي.

بصوته الأجش راودها، فاقشعرّ بدنها وهي تتلفت كشبح أبيض إلى ما حولها وسط الحوش متفقدة بيتها الجديد الذي لم ترَ فيه أي شجرة أو حوض أزهار، لا شيء سوى الاسمنت والكراسي الخشبية وصابر ووليمة العشاء.

جثا صابر أمام الطعام طالبًا منها النزول عن دهشتها ورعبها:

- هيا.. تعالي.. انزعي الشال فأنتِ حلالي الآن.

هزها بعبارته، زلزلها.. زلزل سنية حلاله في الزمن الحرام، ونزلت.. ترجّلت عن خوفها مترددة إلى أن حطت بجانبه جاثية على ركبتيها، قال لها بلطف مُصطنع وهو ينتزع بفظاظة فخد الدجاجة:

- هيا خذي.. كُلي يا حياتي.. ليش ساكتة خايفة؟

فهل تُجيبه؟ هل ترد عليه وهي التي تسبر أغوار وجهه الكريه المرعب؟

حدقت به سنية بقسوة عينيْها السوداوين، شعر برهبة حادّة مسته، فهو كان يعلم بإمارات هبلها المتداولة في أرجاء القرية، لذلك كان حذرًا في التعامل معها كصياد ماكر ساعيًا في استدراجها إلى فخه، ولكن الغزالة لم تستجب له، استمر هو في مداراتها ومجاراتها إلى أن نفذ صبره بعد أن أحاله جمالها الخالص إلى ممسوس ملعون، ففتح فمها عنوةً حاشرًا فخد الدجاجة فيه، فقذفتها هي في وجهه ثم هربت من أمامه إلى أين والبيت مغلق والحوش صغير والأسوار عالية وبعيدة عن القرية وبيت جدتها.

هربت إلى داخل البيت.. إلى الغرفة ذات الضوء الأحمر أغلقت مزلاج الباب بسرعة وذعر انطلق صابر وراءها ككلب جحيمي:

- افتحي يا مجنونة.. ولك افتحي ماتخافيش مني.. أنا زوجك.

اشتد طرقه عُنفًا، زلزلة الجنون بعثرت أركان البيت، وسنية مختبئة أسفل السرير أخذت تبكي بخفوت، بنشيج طفلة خبأت وجهها بشعرها المنسدل كنهر من حرير أسود لعله يحميها أو يجرفها بعيدًا عن أمواج صابر الهادرة، اختنقت بكاءً وضيقًا مُرتعدة من صوت الطرق العنيف وصراخ صابر.

عضّت على أصابعها لا ندمًا بل خوفًا ورشدًا عاد إليها متأخرًا، رحل صوتها لم تعد تذكر أنها صدحت كلامًا في يوم من الأيام. إلى أن سمعت

صوتًا عنيفًا اكتشفت أنه صوت مطرقة ثقيلة لن يصمد باب الغرفة أمام طرق صاحبها الممسوس بشهوة شيطانية ليتهاوى الباب على الأرض محدثًا ضجيجًا ورعبًا عارمين في قلب سنية.

لمحت قدميه سمعت صوته طاردها لهاثه الهائج. اصطادها اشتمّ رائحتها كغول:

- أين أنتِ يا مجنونة.. أصلاً أنا مجنون مثلك.

وما إن أكمل كلماته هذه حتى قَلب سماء سنية وملجأها الصغير جاعلاً أعلاه أسفله، انتزع عنها درعها السريري بساعديه القويتيْن، ليَراها خاضعة كفيْها الصغيرتيْن وشعرها الأسود تخفي وجهها، كما لو أن هذا سيحميها ويمنعه عنها، انقضّ عليها وإنتزعها عن الأرض بيديه الشرستين مُلقيًا بها فوق االسرير بعد أن أعاد إليه هيئته الأولى المتمثلة بتحمله بآلام الهُتك وتململ الرغبات، قال لها بهمس مخيف انبعث من وجه ينزّ عرقًا ورغبة عينيْن مُحمرتيْن:

- الليلة يا سنية الهبلة سأعيد إليكِ عقلك المسروق.

ثم صفعها بعنف على وجهها، صفع خد الوردة فانساب خيط دم رفيع من فمها إلى عنقها، لم يسعفها كثيرًا من شدة الصفعة إذ انقضّ عليها كذئب ممزقًا ثيابها ثياب عرسها البيضاء، أحالها خلال لحظات إلى جسد أبيض غضّ مرتجف، لم تتجاوب معه سنية كما لم تدافع عن نفسها أمام سطوته المتوحشة، هكذا استسلمت مرة واحدة لشراسته، تفاجأ هو من سكونها وخضوعها ولكن ما هاله أكثر هو هذا الجسد الممشوق بالفتنة الخاضع أمامه، الجسد البكر الناضج بإتقان الفتنة والشهوة. الجمال كله زهر اللوز كله.. كله مُلْكُ صابر الليلة.

فاغر الفاه بزبدٍ يتطاير منه ولسان اندلق فجأة ليمارس بذاءة صاحبه فوق جسد البراءة وسنية صامتة مكتومة الأنفاس والصوت بعينيْن مغمضتيْن وجسد مفتوح أمام سطوة صابر، باردة كالثلج كانت، مسّها فلم تتوهّج. لثمها فلم تحترق. دفنها في أعماقه فلم تئن كلعبة عبث بها ثم توقف للحظات محدقًا بها ثم أخذ في لطمها على حين غرة، لطمها على وجهها. قبض على شعرها حتى كاد أن يقتلعه من جذوره فلم تئن، لم تصرخ. لمح فقط دمعة منسابة على وجنتها فاستفزه المشهد أثاره. قبض على شعرها من جديد وصفعها على جسدها كل جسدها، ومن ثم توقف فجأة وقام بسرعة متوجهًا نحو دولاب ملابسه ليجلب منه حبالاً قنّبية حدقت به وهي المضرجة بالدم والخرمشات بسكون وخضوع. دنا منها ثم دفعها إلى الخلف وجعلها تستلقي على ظهرها ثم قام بتوثيق أطرافها وشدها بزوايا السرير ثم.. ثم انتهكها.

أخذت تئن أنينًا خافتًا متقطعًا. أدمت شفتيْها من شدة الألم تألمت. أُنتهكت سنية. ولجها صابر بعنف ووحشية كما ولج أذنيها بشتائمه وعباراته البذيئة دون أن يرحم جسدها الصغير.

سنية تغمض عينيْها ولا ترى إلاّ شجرة محترقة وضفيرتيْن في جهنم صابر الذي ما إن انتهى خلال لحظات من إفراغ حمم وطره حتى ابتعد عنها، وجلس على حافة السرير منكسًا رأسه، حوّط وجهه بيديه ثم أجهش بالبكاء، كان نشيجه يشبه نشيج طفل أضاعته أمه في سوق كبيرة وبعيدة.

بكلمة واحدة لم تعقب سنية التي قضت ليلتها الأولى في بيت - صابر عطوة البشيري - مشبوحة بدمائها ودموعها، ولكن من الذي افترع الآخر سنية أم صابر أم هبلها أم ناصر؟

***

الفصل الثالث:

ما بين لحظة وأخرى، ما بين طفلة وامرأةٍ طفلة، ما بين نُوّار سنية وذبولها في بيت صابر تتبدّل ألسنة أهل القرية المندلقة على ابنة الربيع، فقد قالوا إنّ هبل سنية لا يعني على الإطلاق إلقاءها ما بين أنياب صابر الحادة، وأن جدها أبو الناجي الذي انتقل إلى رحمة ربه بعد زواجها بشهرين لم يحتمل رؤية حفيدته شجرة ذابلة ذاوية آثارُ التمزيق والدماء تحتل جسدها الغض، وأن الله انتقم منه كما سينتقم قريبًا من جدتها أم ناجي التي باتت وحيدة في آخر عمرها تناجي ربها وتستغفره على ما ارتكبته من إثم بحق ملاك بيتها سنية.

فهل حقًا كانوا يعلمون علم اليقين بما كان يجري داخل بيت سنية الجديد؟ إذ كانوا يتجاذبون أطراف سريرها وبيتها، قالوا بأن صابر كان يوثقها ككلبة صغيرة قبل خروجه من البيت للتسكع والعمل واضعًا أمامها شيئًا من الماء والطعام لكي تبقى على قيد الحياة.

قالوا إنها نجحت بالتحرر من وثاقها ذات ظهيرة وانطلقت مُضرجة بجراحها وويلات ليلها الصابري إلى جبل المكسور، ركنها القديم الآسر اختفت في إحدى مغاراته لأكثر من ثلاثة أيام لحين اكتشاف صابر أمرها ومخبئها بعد أن توّجه إلى جدتها وفضحها وفضح حفيدتها وهبلها وجنونها،

فأوْحت له بجبل المكسور، قالوا إنه سحبها.. جرّها بعنف فوق أشواك الصبّار والحجارة والتراب، إلى أن وصل البيت وأسرها هذه المرة بسلسلة حديدية قاسية على جسدها النحيل.

قالوا عن سنية إنها لم تبُحْ، خرساء لم تنطق في بيت صابر، فقط كانت تصرخ من هوْله ولطمه وشتائمه، صراخ يخرق سكون القرية ويلعن ألسنة أهلها ويقتلعها ويلقي بها إلى الكلاب.

وبقدر ما كانت سنية بارعة في الصمت كانت تزداد حيرة صابر الذي كان في بعض الأحيان الثملة يستجديها، يتوسلها ويبكي في حضنها العاري:

- مشان الله يا سنية.. مشان الله يا حبيبتي سمّعيني صوتك الآن فقط.

هم قالوا وسنية لم تقل بعد..

سنية..

يا لعثرتك يا امرأة الصدفة والهبل وجبل المكسور، فراشةٌ أنتِ حلّقتِ وحلّقتِ ثم انجذبتِ هكذا فجأة ذات جبل وشجر وزهر إلى نيران ناصر، واحترقتِ. لم تذبلي ورقةً ورقة بل احترقتِ دفعة واحدة، أحرقك أهل القرية بوقود الهبل والعُته يا أم الضفيرتيْن والغمازتيْن تُولدين الآن من جرح الجنون من رحم البيت الملعون، تولدين امرأة للتبعثر والركام والذبول.

***

جدتها أم ناجي الأرملة التي حفرت إلى جانب قبر زوجها ما سيقيها من شر أهل الأرض مدركة أن أوانها سيحين بعد قليل، كانت تلعن نفسها مرارًا

على إلقائها لحفيدتها في تهلكة صابر، كما كانت تخشى زيارتها وتفقدها بعد ثوران زوجها البغيض صابر بركان حقد وخيلاء، إذ بعد أن تفقدتها عقب زواجها بأسبوع ورأت ما رأته عليها من وحشية أحالت سنية إلى كومة لحم زرقاء مُدْماة، عاتبت صابر وطالبته بالعطف على سنية غير أنه هددها وتوعدها بتقييدها إلى جانب حفيدتها إذا ما حشرتْ أنفها بما ليس من شأنها، وهي العجوز العاجزة لمن تذهب لمن تشكو وهي التي زرعت بذور الشر في قلب صابر بعد أن رضخت لرغبة زوجها «أبو ناجي» المدفوع بألسنة أهل القرية وهبل سنية نحو هذا الزواج، بيد أنها لم ترضخ لتهديدات صابر ومطالبات زوجها «أبو ناجي» في آخر أيامه بالكفّ عن زيارة سنية فالبنت جُنَتْ ونحن جننّاها كما قال لها، لم تستسلم أم ناجي إذ دفعها إحساس هائل بالذنب نحو حفيدتها في زيارة أخيرة ربما لتطمئن عليها وتواسيها وتعيد إليها صوتها الشجي، والأهم من ذلك لكي تسامحها سنية وتغفر لها ما ارتكبته هي وجدها من خطيئة بحقها هي القاروطة الصغيرة:

أهكذا يا صابر.. نوصيك بها خيرًا.. فتحيلها إلى امرأة على وشك الموت؟

- أنا زوجها يا ختيارة وأنا حر بمالي وحلالي.

- ارحمها يا صابر قليلًا فهي ما زالت صغيرة.

ثم تدلف إلى حجرة سنية الملاك الذي أحاله صابر إلى شبح، تُغسّلها بدموع الندم وسنية تبعدها، نعم تخلعها عنها بعنف وصرامة ثم تحدجها بقسوة فتقول لها جدتها بصوت مُتهدّج: أنا ستك يا حبيبتي.. لا تخافي تعالي إلى حضني.

ولكن سنية تنزع عنها غطاء السكينة، تنتفض خارجة من سريرها

بانقلاب مفاجئ ثم تصرخ. تصرخ في وجه جدتها صرخة حادة هزّت أركان البيت وجدتها وسطوة صابر ثم نطقت جهْرًا بعد دهر من الصمت والقهر وخذلان حرق عمرها اليانع، نطقت بصوت حازم رغم بُحّة المرارة التي اكتسته، نطقتْ كما لو أن الصوت منبعثٌ من أعماق امرأة عمرها أضعاف عمر الطفلة المرأة:

- أنا لستُ حبيبتك ولا حفيدتك.. أخرجي من بيتي الآن أيتها العجوز هيا انصرفي.

ثم اندفعت فجأة بمسّ شيطاني أصابها نحو جدتها فانتزعتها من السرير ودفعتها خارج الغرفة، خارج البيت، خارج زمانها ومكانها مرة واحدة وإلى الأبد، أمام ذهول صابر وصبره وسعادته الخفية من تصرف سنية المباغت، لم تُعقّب جدتها بكلمة واحدة بل لملمت نفسها وثيابها وجسدها العاجز ومضت برأس مُنكّسة متدحرجة اصطدمت في آخر الدرب بشاهدة قبر زوجها، ثم أكملت دحرجتها إلى أن بلغتْ بيتها وعلية سنية القديمة.

هالَ صابر صوت سنية المبحوح، وقف أمامها داخل الغرفة هي التي ما لبثت أن انسلّت من جديد داخل فراشها، عادت إلى سيرتها الأولى بطلة فيلم حزين صامت وطويل، هزّها بيده فلم تُجبه، نزع عنها الغطاء بفظاظة ثم دفعها بقسوة ألقتها عن متن سرير الصمت فتأوّهتْ بخفوت من السقوط المباغت على الأرض الصمّاء، كان يبحث عن مصدر الصوت الذي أحالها قبل قليل أمام جدتها إلى عاصفة صوتية مبحوحة، لملمت جسدها بالغطاء.. خنقت نفسها به، أزاله عنها من جديد وقال لها متوسلاً بصوته الأجش:

- هيا تحدثي.. انطقي مثلما نطقتِ قبل قليل فصوتك جميل.

رمقته بحدة، واجهته بفمٍ مزموم مغلق أمام توسلاته، حدقت به، أخافته بسواد عينيْها ولكنه اقترب منها من جديد مُصرًا على حقه الزوجي التام بصوتها، فقد أصبحت المسألة بالنسبة إليه مسألة وجود وتحد، فهو لا يريد أن يعاشر ويضاجع امرأة هبلة وخرساء في نفس السرير. أطبق بكفيه الغليظتيْن على رأسها وهزّها بعنفٍ وقسوة قائلًا:

- هيا قولي.. أين الكبسة التي تشغلك.. هيا قولي أي شيء.

(أي وحشية سادية شيطانية يمارسها صابر الدنيء في هذا الوجه الملائكي؟)

ثم توقف يائسًا لاهثًا عن مزاولة وحشيته بها، لم تبكِ سنية، لم ترتجف، لم تلهث بل وقفت أمامه فجأة كالحال التي تلبّستها قبل قليل أمام جدتها، ثم تأملته من علوها وطول ضفيرتيْها، فبادلها ذات النظرات الصارمة، ثم قالت له ببُحة الجرح والانكسار:

- أنا تحت أمرك.. شو بدك يا حبيبي يا زوجي؟

قفز صابر كقرد رغم ثقل عمره الأربعيني، وقف مقابلها مرتجفًا جذلًا ثم أمسك رأسها بلطف هذه المرة قائلاً بنعومة:

- قولي يا سنية.. قولي.

قلْدت سنية صوته ولهجته بسخرية:

- ماذا أقول يا حبيبي؟!

لم يُعر سخريتها انتباهًا من شدة سروره بحلول صوتها عليه:

- أي شيء.. قولي أنا بحبك يا صابر.. اذبحني يا صابر.

- أنا بحبك يا صابر اذبحني يا صابر.. أنا بحبك يا صابر.. اذبحني يا صابر.

ردّدت ما توسلّه بسخرية ثم بعصبية ثم بضحكة خليعة فاحشة هزّت أركان البيت، ضحكة مُجلجلة لأنثى وُلدتْ من رحم الشيطان، ضحكت سنية، ارتمتْ على السرير بعد أن أفلتَ يديْه عن رأسها مستغربًا، لم يكن يعلم تمامًا هل كانت تبكي أم تضحك أم تنزف أم تئن، ولكن هذا ما لم يهمّه، كل ما كان يعنيه هو أخذها في أجواء ضحكاتها المبحوحة.

***

ما الذي حدث؟ أيّ شيطانٍ مسّ قلب سنية؟

المرأة الطفلة البارعة في تقمّص أدوارٍ ليست لها، ها هي بعد أن أتقنت الوقوف فوق خشبة مسرح الجنون والهبل والانسياق وراء تُرّهات القرية، ها هي تتقمّص دور الزوجة المطيعة الخانعة لزوجها وطقوسه المتوحشة، قد نطقت سنية، باحت ببُحّتها بكلمات مُتعثرة تتناسب وواقعها الجديد داخل بيت صابر فهي زوجته وامرأته الجميلة، زغرودة لسنية، فلتُزهر سنية في بيته، فليسود نوّار اللوز بيتها.

هو يريدها هكذا امرأة خانعة مُوثقة أسفله بوثاق رغباته الغريبة ونزعاته المخيفة، وسنية تنطلق بدورها الجديد في مسرحية حياتها، كان بإمكانها أن تستمر لائذة في الصمت رافضة صابر وبيته اللعين، أن تهرب مثلًا، أن تلجأ إلى أحدهم إلى أي أحد في القرية، في الجبال ولكنها على العكس آثرت الرضوخ هذه المرة كما لو أن هبلها احتلها وأحالها إلى كومة أنثوية لا تستطيع التمييز ما بين المنطق والجنون، بين الهرب من بيت صابر والرضوخ له، فإذا كانت سنية الهبلة فلماذا لا تتهبّل أكثر؟ ما الذي

يمنعها عن الخوض أكثر بالعُته الأسود.. بديجور يئست من بزوغ فجره؟ وبالرغم من انتقالها إلى هذا الطوْر العجيب في عش الخراب إلاّ أن هذا لم يقيها من شر صابر وحباله وعنفه اللامبرر وتحفظّه عليها دائمًا في القيد الحديدي خوفًا من هربها، مع أنه كان في بعض الأحيان عندما يطمئن لغياب هبلها كان يحنّ عليها مرخيًا وثاقها، لا بل كان يطلق سراحها لتجول في أنحاء البيت الصغير قبل أن يمضي إلى مشاغله ونزواته الأخرى في بلاد الله الواسعة، حيث كانت سنية تستغل فرصة غيابه لكي تعمل على إنشاء وزراعة حاكورة صغيرة في حوش البيت، إذ داومت على نقل التراب الأحمر من الأرض التي يقع عليها بيت صابر، كانت تعمل بحزم وإصرار بمفردها وسط حيرة النسوة المارات من أمامها في طريقهن إلى عين الماء. كن مؤمنات بهبلها وخبلها وهذا ما أثبتته لهن هي التي لم تكن لتلقي عليهن التحية أو تتجاذب وإياهن أحاديث القرية أثناء نقلها للتراب بصرر قماشية التي كانت جدتها تشتريها وتهديها إليـها.

كانت منصهرة خاشعة في عبادتها الترابية، بأثر جمالٍ باهتٍ مبعثر على هيئتها المتربة الرثة وشعرها الذي أعادت إليه ضفيرتيه ولكن هذه المرة بعُصبة سوداء تحميه من أعين النسوة الحاسدة وقبضة يد صابر الثقيلة، صابر الذي كان بدوره يلاحظ غرابة زوجته الطفلة دون أن تحتله المفاجأة والدهشة من جديد، فقد كان مقتنعًا بهبلها ولكن ما لفتَ انتباهه وأسره هو تطورها باتجاه خضوعها له وحديثها الذي وبالرغم من تلعثماته وتأتأته إلاّ أنّه كان جميلًا وسط انشغالها بإقامة أحواض زراعية جنائنية داخل حوش البيت، وهذا ما طمأن صابر أكثر ليقرر بالنهاية إطلاق سراح سنية من القيد الحديدي .

بذلت سنية جهدًا هائلًا في سبيل حاكورتها فهي ابنة الربيع وهذه رئتها

وأفقها الأرحب الذي نجّاها من موت مبكر في بيت صابر، فما أن انتهت من نقل الكمية الكافية من التراب الأحمر المخضب بعرقها وأنفاسها حتى زرعته بأبهى الأزهار وغرسات اللوز والرمان، وسقته من مائها السحري الذي كانت تغرفه بكفيْها مُتمتمة فيه تعاوذيها السحرية، ليزهر اللوز والرمان وتتفتح الأزهار في تطلعها عرشًا لسنية وظلًا يقيها من شمس صابر الحارقة. اندمجت في العمل اللوزي أصلها الأبهى، أبدعت، أحالت حوش البيت إلى جنّة صغيرة دافنةً ذكرياتها الضئيلة في تراب الجنة وسط ذهول صابر من تغير أحوال زوجته الطفلة وبيته معًا، كان يعود وغالبًا ما كان يعود ثملًا مهترئًا من مشاغل يومه وتهتكه في ميادين المدن الإسرائيلية وعمله هناك الذي لم تكن سنية حتى ذلك الوقت تعلم عنه شيئًا، كان يوقظها في ساعات الليل المتأخرة في بعض الأحيان كانت تصحو عليه وهو يُعريها بنهم وعجلة، فإذا كان مزاجه رائقًا مسرورًا فإنه لا يوثقها بزوايا السرير، وأما إذا كان متوحشًا غاضبًا من أمرٍ ما تعثر به فإنه كان يدمي ليلها ويُحيلها إلى دُمية مُمزّقة، وهذا ما حدث في تلك الليلة الصاخبة التي تلت زواجها بشهريْن، حيث أيقظها بعنف وغلاظة بأصابعه التي كادت تنغرز في لحمها الطريْ:

- هيا.. استيقظي يا هبلة قومي.

سألته بذعرها المعتاد: ماذا هناك؟! خير؟!

أجابها بصوته الأجش الثمل وهو يوثق يديْها ويشدهما إلى طرفي السرير:

- سيدك أبو ناجي مات.. الله يرحمه كان يريد أن يؤجل العرس لحين إنتهاء الحرب في بيروت.. ها هم جماعته هناك حشرهم الأمريكان بسفينة وألقوهم في البحر.

لم تفهم شيئًا من هذيانه المفعم بالسُكر سوى رائحة الموت والفقدان، تساءلت بهبل كأنها تُحدث نفسها:

- سيدي مات؟!

قهقه ساخرًا من تساؤلها بعد أن هيّأها لطقس العذاب:

- وَلِك يا هبلة.. النبي مات فلماذا لا يموت سيدك.. هل سيعيش مُخلّدًا؟

لم تعقب بكلمة. تنهدت بحرارة جدها الذي ألقاها في جهنم صابر مات، فهل تحزن عليه؟ هل تنوح كما ستنوح الآن في خشونة صابر كان ينقصها موت آخر يجتث أصلها بموت أم ناجي تمسي سنية القاروطة بيد صابر ويُصبح هو نسبها الوحيد في هذا العالم، ثم بكتْ سنية وصرخت سنية ونزفت سنية الأسيرة أسفل صابر.

***

كيف اعتادت سنيّة الحياة داخل طقوس صابر الوحشية وعزلتها عن أهل القرية وواقعها؟ ولكن من الذي قال إنها اعتادت واقتنعت بمصيرها وقدرها؟ حاكورتها كانت ركن مواساتها والابتعاد عن المصير الذي خلقته لنفسها بعد مشوار هبلها الحزين داخل أزقة القرية واقتناع صابر اللذيذ أنها دميته الأهبل والأجمل، التي يلعب بها كما يشاء دون أن يكترث للحظة بأن موتًا مفاجئًا قد يُخدق بسنية، بيد أنها هي ابنة الربيع أحالت بيتها ربيعًا، بعد أن كانت رائحة العفن والصديد والموت تفوح منه بات موطنًا للأزهار وسنية والأشجار وزوج لم يعبأ يومًا بنزوات زوجته الطفلة الهبلة. كما أن سنية لم تجد تفسيرًا لتصرفاته اللئيمة الشرسة إزاءها، كانت تسعى قدر الإمكان لتخفيف هوْل عذابه من خلال مجاراته ومداراته واللجوء أكثر

فأكثر إلى الحاكورة، كانت تستمع إليه ليلًا وهو يهذي ويتمتم بلغة غريبة ستعرف بعد قليل أنها اللغة العبرية، دون أن تجد تفسيرًا لحالة زوجها المستعصية على الفهم، كما أنَّها لم تفكر للحظة واحدة باللجوء إلى جدتها التي طردتها من بيتها أو إلى صديقة ماضيها القريب سعاد أم السعد، إذ اعتكفت في رحاب حاكورتها بجمال لا يبوح بأقصى حضوره البهي والشذي في جبل المكسور بل بحضور باهت مرهق من صابر ونزعاته وحباله .

خاطرة واحدة لم تكن تنتاب سنية لتقودها وتسرح بها إلى أبعد من حدود بيتها وحاكورتها الصغيرة، إذ هو المصير المُحتّم الذي لا تهرب منه وتلجأ من جديد إلى جبل المكسور، القيد الخفي الذي يشدها إلى واقعها المُخيف، مُقتنعةً ببيتٍ صغير على هامش القرية بعيد كل البعد عن مواسم أهلها ومجريات أيامها على أتمّ الانعزال حتى عندما كانت تريد جلب الماء إلى البيت فإنَّها كانت تمضي إلى عين الماء في المساء أثناء خلوّها من نسوة القرية وتعليقاتهن وأحاديثهن التي لا تترك أحدًا إلاّ وقد مسّته وانتهكته في القرية، هو الخواء والنقص والخذلان يتناوبون عليها بشراسة دون أن تعي بسذاجتها هذه المفاهيم في معمعان سرير صابر واهتزازاته، فمعه لم تشعر بالأنثى في داخلها، بحلاوة روحها وروعة جسدها، معه تحولت إلى دمية مهترئة لا تشعر بأدنى لحظات الحب واللذة، فمن هو صابر؟ من هو الجلاد الذي تئن أسفل ذكورته المنتفخة؟ وحش آدمي مقيت لا يكترث إلاّ بالسطو عليها واغتصابها في ارتعاشات الليل وظلاله الدموية، ليحتمل جسدها النحيل إحتلاله السافل، لتقوى على الصمود بآلامها وجراحها ونشيجها السري قصيدة تروي بها أشجارها الصغيرة في حاكورة أفقها الجميل.

هكذا لا تموت سنية، لا تذوي بل تنجو وتمضي إلى آخر مصيرها

قانعة بدورها الجديد والراضخ لرغبات صابر، دون أن تعي للحظة ما الذي سيحدث بعد قليل، ما الذي ستؤول إليه أمور حياتها الصعبة في قرية قذفت بها في حجر صابر.

***

تعرفت سنية على الألم الحقيقي، ليس ألمًا نفسيًا هذه المرة كان جسديًا فتاكًا في ظهيرة يومها الدموي تعتني بشؤون حاكورتها الصغيرة، حيث شعرتْ بالوهن لاحظت فجأة إنسياب خطوط حمراء لزجة تخطّ على ساقيْها نزيفًا مؤلمًا، تراخت قليلًا ثم تهاوت فوق أزهارها على وشك الإغماء وانقضاض الشمس الحارقة عليها، تململتْ فوق التراب ثم أخذت تصرخ بكل ما أوتيت من ألمها واضعة يديْها أسفل بطنها مذعورة من الطارئ الذي احتلها في لحظات انشغالها بوردها وأشجارها.

المرأة الطفلة تتألم، تصرخ، تناجي شمس ربها ابتعدي عن وجهي لكي أواجه ألمي، عضتْ على شفتها من شدة الألم، ابنة الستة عشر والنصف شجرة وزوجة الوحش المستلقي في سرير البؤس والبربرية صرخت: صابر.. الحقني.. مشان الله يا صابر.

تناهى صوتها المستغيث من شدة الألم إلى مسامع زوجها الذي أخذ يستفيق من رقاده وثمالته بعد ليلة انفجارية قضاها فوق جسدها، تململ قليلًا، زفر بغيظٍ فاركًا وجهه بكفيْه ثم أجابها من سريره مُزمجرًا بصوته الأجش:

- ماذا هناك يا هبلة.. لماذا تعوين؟

أتاه صوتها كأنه منبعث من أعماق بئر:

- مشان الله.. مش قادرة.. يا يّما الحقيني رح أموت.

- موتي الله يريحني منك.

ثم ساد صمت ثقيل في منتصف الظهيرة لعدة لحظات، انتفض أثرها صابر من سريره بعد أن أيقن صدق توسلاتها وخطورة أوجاعها، رآها تتخبط في الدماء والتراب ما بين الأزهار، فهرع صوبها: شو في يا سنية شو مالك؟

- مش عارفة بطني تؤلمني.. أشعر أن فيها كلب ينهشني.

- الله يلعنك ويلعن الكلاب معك.

ثم حملها بتأفف وقرف ومضى بها إلى غرفتها، ألقى بها فوق السرير كأنها دمية معطوبة، وقف بجانب السرير عاجزًا أمام صراخها وآلامها وتوسلاتها له، لم يعرف ما الذي عليه فعله عاجزًا عن إدراك شؤون النساء وآلامهن إلى أن ومضتْ في باله صورة القابلة «أم محمود» قابلة القرية التي لا تفوتها شاردة ولا واردة في شؤون النساء، ورغم الكره المتبادل بينهما إلاّ أنه كان خائفًا من موت سنية، فهو لا يريد جثة أخرى في بيته، مدفوعًا بهذا الهاجس هرع إلى بيت القابلة التي لم تنتظر خطاب توسلاته ومسكنته حتى مضت برفقته مدفوعة بحسّها الأمومي وأصول مهنتها:

- إسم الله عليك يا بنيتي.. ما الذي جرى لك؟

سنية تتلوّى وتتألم وتهذي وتشتم، هدأتها أم محمود، مَسَّدت جبينها ورأسها بالماء مُبسملة مُتعوّذة، ثم لحظتْ وجود صابر بجانبها في الغرفة، فطردته بقسوة وعدة شتائم لم تخطر في بال صابر السوقي يومًا، ثم عادت إلى الانشغال في بطن سنية، كشفت عليها بعينيْن مُدربتيْن وخبيرتين في هذه الشؤون: يا ويلي عليكِ أنتِ حامل..

ثم قامت منتفضة باتجاه صابر طالبة منه ماءً ساخنًا وقُوطًا نظيفة،

وما أن أحضر ما طلبته بهيئة الملهوف والخائف والخجول من نظرات أم محمود القاسية اللائمة، حتى شرعت في مواساة سنية ومطالبتها لها بتحمل الألم فما ستقوم به القابلة ليس المساعدة في إنجاب طفل يشبه سنية، بل إجهاض كتلة لحمـية حمراء لجنين يشبه صابر ولكنه لم يكتمل.

صراخ.. تأوهات... نداءات.. توسلات.. حياة.. شتائم، كل لحظاتها المريرة مرت أمامها في صرخة واحدة ثم أُغمي عليها.

مسّدتْ أم محمود جبينها، جسّتْ نبضها، الحمدلله لم تزل حيّة، مسحت دماءها، ألبستها ثيابها حوطتها بالمعوذات وأدعية الشفاء، ثم همست بسخط:

- الله نجاك من الموت يا بنيتي.. الله يلعن زوجك هالخنزير.

ثم خرجت صوبه تحتلها نوبة غضب عارمة:

- حرام عليك يا ابن الكلب.. هذه بنت صغيرة.. جسدها لا يتحمل الحبل الآن أيها الثور.. ارحمها الله يلعنك ويلعن أمثالك.

لم يُجبها صابر الذي كان متكومًا في زاوية الصالة منكسًا رأسه.

- يجب أن يهتم بها أحد غيرك فحالتها لا تزال حرجة.

بمن يأتي صابر؟ وأي امرأةٍ تجرؤ على الدخول إلى بيته الدامي؟ جَدَّة سنية أم ناجي لم تحتمل البقاء في القرية بعد وفاة زوجها وطرد سنية لها، حيث هجرت البلد وسافرت إلى ولدها ناجي المقيم في الكويت ليعتني بها في آخر عمرها، كما أن شقيقة صابر أم فارس حرّم عليها زوجها الاقتراب منه أو من بيته، وعليه فقد قام بقدرته الهائلة على التوسل والاستجداء بمناشدة أم محمود بعيادة زوجته الطفلة والاهتمام بها مؤكدًا لها أنه

سيكافئها على معروفها، وما بين أخذ وَرد استجابت أم محمود لنداء قلبها الأمومي لا إلى نداءات صابر الملعون.

في هذه الأجواء وعلى مدار أكثر من عشرة أيام تأرجحت روح سنية ما بين حبائل الحياة والموت. في أعماق الحمى الحارقة، حمى الرحم وصراعها المرير مع الألم وجرحها السقيم، تُصرّ على الموت تتشبث به في غيابها المحموم عن بيت صابر تارةً وهروبها إلى حياة في فضاء اللوز تارةً أخرى، اجتاحتها الكوابيس بظلالها المرتعشة لتهبلها بشدة وجاءتها أمها زكية التي لم تعرفها يومًا بأوشحة تقطر دماء لتشنقها بها، أبوها مصطفى أوْلمَ لها خنزيرًا محشوًّا بقهقهات نساء المستوطنة، جدها اقتلع ضفيرتَيْها وأحرقهما، جدتها أسقتها كأسَ حنظلٍ من دمها، وصابر ما أقساك يا صابر واقعك كابوس وكابوسك واقع، في أعماق قهقهات الموت ومهاويه، لم يزرها «ناصر» أمير عشقها الفدائي لم يطمئن عليها، لم يجلب لها في الحمَى لوزًا أو مشمشًا أو رمانًا، لم يُمسّد رأسها بيده الدافئة وقصائده الوطنية لتهوي سنية إلى أعماق سوداء جرداء لا يقيم فيها أحد سوى صرختها الصافية.

في مواجهة مع الموت، الطفلة الغضّة البريئة هُتِكَتْ فُسِخت أزيلتْ عن وجه براءتها ووجه القرية التي اندلعتْ في أزقتها قصة دماء سنية وإجهاضها بفضل أم محمود التي بقدر أمومتها ورأفتها لم تسيطر على آهات سنية، حيث علمت القرية بكل آذانها الصاغية بآلام المرأة الطفلة وعنجهية زوجها الغاشم، لتتطاول الحكايات والإشاعات على ابنة الربيع من جديد ولوْثة عقلها اللوزي التي وقفت حاجزًا ما بينها وبين أي أحد من أهل القرية قد يُغيثها وينتشلها من براثن صابر لتغدو وحيدة منعزلة حتى مطالع الشفاء والعودة الأزلية إلى البيت.

***

لا أحد لكِ في القرية فأين تهربين وأنتِ التي نطقتِ بعد صمت الجرح هبلًا وخنوعًا؟

أين تركضين وكل طرقات القرية تسخر منك ومن ضفيرتيْكِ من الشجرة التي قُطعتِ منها غصنًا ذابلًا نحيلًا على وشك التعفن؟

ومن لكِ سوى هذا القبر وزوج لعنه الدهر بتوحشه وغبائه ووقاحته؟

تستفيق سنية لا تزهر بل تتنفس ككل الكائنات، تعود من موتها المشتهى إلى واقعها المسجّى عليها بثقل صابر وأكوام الخذلان، لا تذكر ما ألمَّ بها، تنسى الدماء، ترفض البحث عن أسباب آلامها وأوجاعها.

لم يكن صابر في البيت حين استفاقتْ، لا تبحث عنه ولا تناديه بل تمضي إلى حاكورتها بثيابها الرثّة وشعرها المُبعثر، تلحظ ذبول أطفالها من الأزهار والأشجار الصغيرة، تتفقد الورد تداعب خدوده الذاوية، تنحني، تحط على التراب بهيئة رثائية حزينة، تقبض على حفنة جافة منه في كفها، تقبض عليها بقوة، تسحقها بيدها ثم تضعها في فمها، تلوكها كأنها فاكهة لذيذة مُحرمة، تهمهم، تتنحنح، تقذفها من فمها، تنتصب فجأة كعاصفة هوجاء لتقتلع كافة الأزهار وأشتال الأشجار الصغيرة في الحاكورة، المجنونة قضت في لحظات على أفقها اللوزي، تضحك تُجلجل ضحكتها، تتململ فوق التراب تنثره فوقها تفرك به جسدها وشعرها، حمراء مصبوغة في التراب إذ تقبضه وتجمعه في ثوبها ثم تتفاخر راكضة في أنحاء البيت لتنثر التراب فيه، في السرير، في أواني الطعام، في حوش البيت، ترقص متقافزة تضحك المرأة الهبلة في أحلى لحظات جنونها إلى أن هدأت وتعبت وتهاوت ونامت.

وما أن عاد صابر إلى البيت الترابي ورأى ما رآه من قمة الجنون التي

تسلّقتها زوجته الطفلة حتى انقضّ عليها ككلب مسعور دون أدنى رحمة باللكم والشتائم، حتى أنه فتح فمها عنوة حاشرًا فيه حفنة تراب ثم صفعها بقوة، وهي لا ترد ولا تجيب، لا تصرخ، لا تشتم، لا تبكي، إذ عادت إلى سيرتها الأولى لوزة صمّاء، سحبها من يدها بعنف نحو السرير:

- اليوم ستتعرفين على جنوني يا بنت الكلاب تعالي.

وثقها كالمعتاد، ثم أشعل سيجارة من أنفاسه اللاهبة وأطفأها بها وهكذا حتى مطالع الجسد المنهوك.

***

لم تعد سنية تعتني بالحاكورة ولا بالبيت الذي أمسى ركامًا وترابًا وراعيته شبحًا مُخيفًا، في الوقت الذي كان فيه صابر يمتلك قدرة خارقة على الصبر والتحمل والقيام ببعض شؤون البيت بعد عودته من عمله في «إسرائيل»، حيث كان يجلب معه طعامًا جاهزًا إثر إصرار سنية على القيد الحديدي والأدهى منه قيود هبلها، كان يقذف أمامها الطعام كأنها كلبة صغيرة جائعة، وعندما تتمنّع كان يطعمها رغمًا عنها، هكذا اتحد بها واندمج مع حالتها الفريدة، يُؤمّن لها طعامها ونظافتها لتؤمن له نزواته ورغباته الوحشية، في بعض الأحيان كان يتحول إلى طفل وديع يداعبها بحنان ويضمّها إلى صدره بدفء ونعومة مُستجديًا صوتها، إلاّ أنّها لم تكن تعلم أن استسلامها له ببرود قارس كان سبب استثارته واستفزازه إلى أن يدميها، فهو لم يكن يحلم في يوم من أيام حياته القذرة أن يتزوج أو أن يلتقي على الأقل بأنثى على شاكلتها، وتخلّعه في أزقة المدن داخل «إسرائيل»، هكذا إذن لم يكن صابر يشعر بها زوجة بل دُميَة تسد رمق جوعه لجسدها النحيل، لم يكن يتخيّلها يومًا زوجة ستصبح بعد قليل أمًّا لأولاده، لا ولن يتخيلها أبدًا كذلك. لتفقد سنية هويتها ووجودها كأنثى،

كامرأة تنزع دومًا نحو البيت والأسرة والاستقرار في حضن زوج ورحمٍ يمنحها أطفالًا يشبهونها ويملؤون البيت عليها ضجيجًا وبراءة، إذ بعثرها صابر حرثها ببذوره السامّة السيئة، لتصحو في بيت الرعب على بطن باتت تنتفخ وتكبر، نعم هذه المرة شعرت بذلك بعد أن خبرت الدماء والإجهاض وتلك التقلبات الغريبة في أحشائها، كما شعر صابر بذلك أيضًا من خلال ثقل حركتها وشرودها الدائم وإقبالها الشديد على الطعام، ليلجأ إلى أم محمود من جديد والتي ما إن رأتها حتى صرخت في وجه صابر:

- إياك أن تمسّها.. البنت حامل في الشهر السادس.

- بشرفك يا أم محمود؟

أجابته بلسانها السليط الساخر:

- لأ بشرفك أنت يا عديم الشرف.. نعم هي حامل، وعليك أن توفر لها الغذاء والنظافة التامة حتى لا يصيبها ما أصابها قبل فترة.

لم يرغب صابر يومًا بذرية صالحة أو طالحة، ولم يكن يطمح أن يصير أبًا يتحمل مسؤولية أطفاله بعد أن اعتاد على حياة اللهو والخمر والتسكع في ميادين تل أبيب والقدس الغربية، أهكذا سيصبح أبًا بعد أن تجاوز الأربعين وزوجة هبلة؟

وأما سنية فلم تصدق ما بشّرتها به أم محمود، لم تمسها قشعريرة تشي بسعادة عارمة لامرأة على مشارف الأمومة، لا ولم تُزغرد، كأن أم محمود نعتها وألقت عليها كفن موتها، كيف حدث هذا؟ لماذا لم تنزف؟ لماذا لم تُجهض؟ لماذا نمتْ في داخلها بذرة صابر الشريرة؟

تغيرت حياتها، انقلبت رأسًا على عقب بعد هذا العبء الجديد المنتفخ

في داخلها الذي أراحها مؤقتًا من صفعات صابر وحباله النارية ولكنه لم يرحمها من تقريعه وإهاناته لها لحظات ثمالته:

- حبلى يا بنت الـ. كيف يعني؟! معقول هذا الذي في بطنك ابني؟ أنت بنت هبلة من الممكن أن يكون رجل ابن حرام نام معك في سريري!

يا لقذارتك ودناءتك يا صابر، أهكذا تطعن بشرف إبنة الربيع التي اهترأت أسفل سافلك مصرًا على انتهاكها دائمًا بأعمدة شرفك الزائف ورجولتك القذرة؟

في نشيجها الحارق كانت تتململ سنية، تغيب مبتعدة عن رجل البؤس والخراب متمنية لحظة هوجاء تقتلع من رحمها هذا الجنين القادم إلى حياة الهبل والمجنون والعربدة، في لياليها الثقيلة اللزجة النزقة كانت تتوسل السماء رأفةً بحالها وموتًا خاطفًا يقيها من شر زوجها اللئيم، ولكنها لم تجهض ولم تمت بل ثمة نداء سري غامض انبعث في داخلها وطالبها بالصمود والمكابدة، إلى أن جاء يوم المخاض وويلات الإنجاب.

أم الضفيرتيْن تعضّ على ضفيرتيها متوسلة أم محمود الرأفة بها:

- مشان الله يا أم محمود.. مشان الله، إنزعيه مني.. خلصيني من الوجع.

- إصبري يا بنيتي.. شدي حالك.. خذي نفس وشدي.

من التي تشد؟ من التي تأخذ نفسًا؟ سنية المرهقة بسبعة عشر عامًا كيف تلد ولمن تلد لصابر؟!

على أعتاب الموت تناشد ربها سنية، تصرخ، تشهق، تتنهد، تتجرّع

غصص الألم والحرقة، وأم محمود منهمكة بالدعاء والمواساة إلى أن خمد صوت سنية إثر صرختها الحادة الأخيرة ليخترق الصمت صراخ مخلوق خرج لِتوّه من رحمها مضرجًا بمائها ودمائها:

- ولد.. ولد يا سنية.

حملته أم محمود بين كفيْها وأرته لسنية التي ذعرت من مشهده الدموي فأشاحت بنظرها عنه متوسلة:

- هذا ليس إبني.. إبعديه عني.. مشان الله إبعديه عني.

تفاجأت أم محمود من نداءات وتوسلات سنية التي باتت أمًّا، فهذه هي المرة الأولى التي تصادف فيها امرأة تُنكر طفلها البكر ولا تضمّه إثر ولادته.

هرع صابر إلى الغرفة بعد أن نادته أم محمود في حيرة من أمرها وهبل سنية:

- ولد يا صابر.. ولد.. صاغ سليم.. مبروك.

- الله يبارك فيك يا أم محمود.

- ماذا ستسميه؟

فأجابها دون تردد بكل سرور:

- سليم.. سأسميه سليم لأنه ولد صاغ سليم.

الفصل الرابع:

لا حليب أمومة في نهديْ طفلةٍ تأبى طفلها البكر المولود لِتوّه من رحمها، المرأة الواهنة تتداعى على مرأى أم محمود القابلة وصابر الذي أصبح في منثور سنية الممزق داخل البيت أبًا دون أن يغوص في أعماق هذه القيمة الجديدة عليه، هو الذي لا يحوز أدنى قدر من المسؤولية ورعاية بيت باتت أنفاس جديدة تتردد فيه، أنفاس بحاجة ماسّة إلى الاهتمام والأمان وكل هذا لا يتوفر في البيت الملقى كمنبوذ على طرف القرية.

لقّمته سنية نهدها بعد أن توسّلتها أم محمود لعلّ الحليب يحنّ عليها وعليه وينفر بقوة من صدرها الجاف إلى فمه الجائع، ولكن حليب الحياة لم ينفر من صدرٍ خاوٍ من العشق، فكيف تعشق سنية التي هُجِّرت من جبل المكسور وفدائي علّقها على شجرة لوز ومضى في حال بندقيته وأحلام ثورته؟

هل كانت سنية مجنونة حقًا؟ يتراقص السؤال، يَدُقُّ ما بين صابر وأم محمود المذهوليْن الخانعيْن لهبل سنية وصراخ طفل كابد آلام الجوع منذ يومه الأول في الحياة، لتخطفه أم محمود من حضن سنية ماضية به إلى أثداء نساء القرية ليرضع الصغير قرية بأكملها، ليرضع أقاويلهنْ وأحاديثهن

وشفقتهن أيضًا على أمه الطفلة وحال بيتها السوء، وما بين حليب الأمومة المُتوسّلَة والحليب الاصطناعي نجا سليم وسلِم من عُته أمه التي ارتمت في بيتها جرداء قاحلة لا تعي واحة الأمومة. إذ يترامى طفلها الأول بصراخه ما بين أحضان النساء وأثدائهن في البعيد عن دفئه وحليبه الأصل، في البعيد عن أمه التي كانت تعيده إليها أم محمود في أمسيات أشهره الأولى من حياة البؤس، لتتلقفه بنفور ودهشة إثر توسل أم محمود لها باحتضانه ورعايته، فهو بكرها وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى تعتاد عليه وتألفه، وهذا ما لم يحدث أبدًا في حمَى الرحم التي انتابتها وألقت بها في مهاوي العبث والشرود منقلبة إلى امرأة خاوية هجرت جمالها وخضرتها وأزهارها، حتى أنها أصبحت تُوثّق نفسها عارية قبل عودة صابر من عمله إلى البيت في استسلام ورضوخ تامين، هكذا اختزلت سنية حياتها إثر رفضها للأمومة وواقع بيتها المتهالك أسفل زوجها الماجن وتناسي طفلها الذي يصرخ طلبًا للحليب والدفء، فهل حقًا كان صابر هو الآخر مُقتنعًا راضيًا بما توفره له سنية برضاها أو رغمًا عنها من جسد غض بريء يفترعه مرارًا وتكرارًا مُحققًا سيادته عليه؟ ألم تتعربش عليه وتخنقه مشاعر الأبوّة ومعانيها؟

بلى، لقد كان صابر وبالرغم من ثمالته المقيتة ونبذ أهل القرية له يفكر بجدية في لحظات صفائه ويقظته النادرة بانتشال سنية من الهبل والشرود، أن يتحايل عليها هذه المرة بشيء من المنطق البعيد كل البعد عن الضرب والتنكيل والشتائم، كان يدرك في قرارة نفسه أنّ سنية ليست مجنونة أبدًا، فهو كان يراقبها في بعض الأحيان وهي تحاول احتضان طفلها واستيعابه، يلحظ تصرفاتها في غيابه، يراقبها من نافذة البيت بخفية ليراها عاقلة حازمة، فلماذا كانت في حضوره ولعنات القرية مجنونة؟

يستوعب صابر الأمر، إذ يجب عليه أن ينتزع من رأس زوجته الجميلة الجنون من خلال سَدّ طريق هروبها إليه، فالخوف هو الذي قادها إلى هناك، الرهبة، الوحشية، وعليه هذه المرة أن يتصرف بحذر شديد وعناية فائقة إزاء سنية خاصة بعد تأكده التام من براءتها الصافية، نعم لقد كانت سنية تحوز براءة من معجزة ربانية لا تشوبها شائبة شيطانية، لا تفقه شيئًا في الحياة سوى ماضيها القريب المتعثر وحواكير الورد وأشجار اللوز وبَرِّية مملكتها المهجورة، سوى ذلك لم تفقه سنية فكيف كان يجدر بصابر انتشالها؟

***

المساء خالٍ من الوقت الخاص بها، وقتها الحلم الذي ترقص على إيقاع دقّاته ونبضه ماضية صوب هويتها أمّاً ترعى شؤون صغيرها وبيتها وأمنيات صعبة المنال بأن ينال زوجها حصته من الرحمة والأبوّة والحد الأدنى من إنسانية تقيها شر البيت وبرده وآثامه، زمان سنية لن يبدأ من مطالع هبلها المُزيف بل من انتشال صابر لها من عبثها وانغماسها في مسرّات الهبل الخالي من المسؤولية، ساعيًا في هتك وحدتها القاسية، دارئًا عنها نبذ القرية ونورها منه ومنها، إذ كيف ينجو بها نحو الصواب وبيته الشرير لم يطأه أحد سوى أم محمود القابلة رغمًا عنها، أيُّ إمرأةٍ تزور بيته لمواساة سنية واستيعابها وشقيقته أم فارس مُحرّم عليها أخوها؟

في ذلك المساء كانت مُنغمسة في ملاعبة سليم وهدهدته، تغني له، تحتضنه مُتململة فوق سريرها، مُعلّقة في أعالي اللحظة الحانية عليها والبعيدة كل البعد عن عذابات صابر، تداعب طفلها بضفيرتيْها الناعمتيْن كأنامل ملاك، فيضحك ابن العام والنصف، يضحك مُستجيبًا لنداء الأمومة المنبعث من أعماق سنية التي خرجت لتوّها من جحيم حمى الرحم وواقع

مخيف لطالما هربتْ منه ماضية نحو ملاجئ هبلها الحصينة، خرجت ولكنها لم تنبعث شجرة لوز نُوّارها يكسف بدرًا، بل خرجت أكبر من طفلة وأصغر من ربّة بيت لترتب أولوياتها تبعًا لواقع البيت وصاحبه، ما بين المنطق والجنون، ما بين الرضوخ والكفر بنعمة صابر.

طفلة التناقضات الصارخة كانت سنية، ليحتار صابر عاجزًا ليجن تائهًا في مدارات هذه الكائنة الغريبة التي لطالما فاجأته بهبلها المُحبّذ تارة والمخيف تارة أخرى، كان يعتقد أنّ طفلًا ببهاء سليم سيُعيد لها عافية عقلها وجسدها الفاتن، وبأنها ستتغير ماضية نحو المرأة الأم التي رغم قسوة زوجها ونزعاته الشرسة تضع ما لديها، ولكن جميع توقعاته واعتقاداته ذهبت أدراج هبل سنية وقدرتها على قهره بصمتها وشرودها وكيانها الجميل الصافي الذي لم يجد له مثيلًا في دروب حياته الملتبسة.

في ذلك المساء سمعت سنية صوت جلبة وأصوات صاخبة تحيط بيتها، خلّفتْ سليم وراءها فوق السرير وهرعت صوب باب البيت حافية القدمين، فشرعته لترى وتسمع الصوت الذي أحدثته عربة نصف نقل وصابر الذي كان يُنزل منها صندوقًا خشبيًا كبير الحجم، سعيدًا كان وهو يحمل الصندوق داخل البيت يساعده في ذلك سائق العربة، وما أن وضعا الصندوق داخل البيت حتى شكر صابر السائق ومنحه أجرته وهو يلهث ثم رافقه إلى عربته بسرعة واندفاع خاصة بعد أن لمحه وهو يحدج سنية بنظرات لا تخلو من دهشته ورغبته كأنه يقول: «معقول هذه المرأة الشلبية هبلة؟!»

عاد صابر إلى صالة البيت كما جاء بسرعة ولهاث، شرع في فتح الصندوق بلهفة أمام حيرة سنية وصمتها ويدها التي وضعتها على خدها بهيئة طفولية صافية، تعلّقتْ عيناها بالجهاز الأسود الذي أخرجه من

الصندوق ووضعه فوق المنضدة الخشبية، إلى أن لحظ دهشة سنية واستغرابها أثناء انهماكه في الجهاز العجيب بزجاجه الرمادي المعتم وأزراره وأسلاكه، فقال لها ضاحكًا متهكمًا:

- ألا تعرفين ما هذا؟

ثم أشار بيديه بحركة مسرحية نحوه:

- هذا تلفزيون يا زوجتي الهبلة، لقد اشتريتُ لكِ تلفزيون لكي تشاهدي من خلاله الأفلام والمسلسلات والعالم.

اقتربتْ بهيئتها الطفولية المذهولة وتحسسته بإستغراب ثم قالت ببُحّة نفضتْ غبار الصمت عن حبائل صوتها:

- هل هذا يعني أنني سأرى عمر الشريف في هذا الصندوق؟

أطلق ضحكة ساخرة ثم سألها:

- من أين تعرفين عمر الشريف يا هبلة ولك أنا جوزك صابر أحلى وأحسن منه.

ثم انهمك من جديد في إعداد التلفاز وتوصيل أسلاكه وضبط اللاقط الهوائي به وسط سرور مباغت احتل سنية من هذه المفاجأة التي جاء بها زوجها الملعون إلى البيت، فهي لم تألفه يومًا إنسانًا قادرًا على رسم البسمة والسرور على وجهها، وها هو اليوم يجلب لها تلفازًا لتتسلّى به وتنشغل بما ينطلق ويندلق منه.

أعدّ صابر كل شيء ثم ضغط على الزر السحري ليتحول الزجاج المعتم إلى فضاء مزدحم بالألوان والحياة، صندوق العجائب هذا لا يوجد مثله في القرية إلاّ في بيت المختار وبيت «أبو أكرم» وبيت صابر «أبو سليم»:

- تعالي شوفي يا سنية

صفّق بيديه جذلًا مسرورًا كطفل صغير ثم أخذ يشرح لها بغبطة كيفية عمل التلفاز وما هي القنوات التي يلتقطها من خلال الهوائي:

- التلفزيون يلتقط قناتيْن على الأقل هما قناة «إسرائيل» وقناة الأردن وإذا كانت السماء صافية قد يحالفك الحظ بالتقاط قناة مصرية وبإمكانك أن تتابعي أفلام عمر شريف على إسرائيل يوم الجمعة، كل يوم جمعة «إسرائيل» تبث فيلمًا عربيًا، وأما محطة عمان بإمكانك أن تتابعي عليها مسلسلات «غوار» والمسلسلات البدوية كل شيء في العالم بين يديك

ثم عانقها بشدة قائلًا بسرور:

- تابعي زي ما بدك يا حبيبتي.

في تلك الليلة أخذها صابر في لحظة تلفزيونية مُلوّنة ملقيًا بطفله أسفل السرير ليبوح لها بالكثير، الكثير التي سمعته للمرة الأولى في حياتها الصافية من قذارات الواقع، حيث أوضح لها طبيعة عمله المتمثل بالسرقة، نعم لقد كان لصًا محترفًا، يسطو على بيوت اليهود في تل أبيب والقدس الغربية بعد أن يكون قد عمل فيها بنّاءً أو بستانيًا أو زبالًا، أسرّ لها بأن التلفاز الذي جاء به هديةً لها ما هو إلا قطعة مسروقة من بيت ثري يهودي في القدس الغربية، قال لها ضاحكًا:

- السرقة أسهل إشي.. بعدين ولك يا هبلة هذول يهود والسرقة منهم حلال.

من هي على عتبة الحياة والفهم لتستوعب السرقة واليهود وأسماء مدن وأماكن غريبة عنها كل الغرابة؟

كل ما علمته بإحساسها الطفولي الذي لا يخيب أنّ زوجها لا يمتهن مهنة شريفة ترفع الرأس بل السرقة التي قد ترفعه إلى أعلى عليين أو ترده إلى أسفل سافلين، كما يردها الآن ويعلو بها على متن اللذه.

***

هل لعن صابر اللحظة التي فكّر بها بجلب التلفاز إلى بيت الجنون؟

بلى، فقد انغمستْ سنية بلا حدود وبكل جوارحها في هذا الصندوق المرئي الذي يقذف أمامها العالم، لتصحو الآن، نعم لقد استفاقت سنية من سبات هبلها لتحاكي ما تعرضه أمامها الشاشة الصغيرة الملونة من مسلسلات وأفلام عربية وأجنبية، كانت تتوحدُ في فيلم يوم الجمعة المصري الذي كانت تعرضه قناة إسرائيل، وأين قناة إسرائيل هذه لم تكن سنية تعلم، ولكنها علمتْ أن اللغة الغريبة الخشنة التي كان يتفوه بها صابر في لحظات سُكْره كانت اللغة العبرية، وهذا ما جعلها تؤمن حقًا أن زوجها الملعون مُنغمس حتى أذنيه في إسرائيل.

كانت تشاهد الأفلام بلهفة، بعيني الطفلة التي سقطت فجأة من غيمها البريء في أوج عاصفة رعدية هوجاء مزّقتها ونثرتها في خيالات الأفلام والمسلسلات، لتقلّد أبطالها في تصرفاتها وحركاتها اليومية في البيت ما بين طفلها الناشئ وزوجها السكير التي طالما كانت تنهمر عليه بالأسئلة بعد أن لمس هو بدوره استيقاظها من هبلها أثناء متابعته لنشرة المساء الإخبارية التي كانت تبثّها قناة إسرائيل:

- شو يعني مُخرّبين من منظمة التحرير يا صابر؟

فيُجيبها بتأفف وسخط لأنها قطعت عليه متابعته للأخبار:

- يعني ناس يريدون تحرير فلسطين هبايل مثلك خلص إخرسي.

ومن الذي يَسُدُّ رمق جهلها وحاجتها إلى فهم بديهيات حياة محيطة بها، كانت بمثابة ألغاز بالنسبة إلى عقلها الذي أخذ يتفتح بسبب صندوق العجائب؟

مدفوعة بحاجتها إلى استيعاب الواقع كانت تتلقف بلهفة ما يلقيه التلفاز عليها من أفلام ومسلسلات وبرامج ونشرات إخبارية منهمكة في هذه المرات التي لم تكن سوى مرآتها الأولى المكتظة بالمباغتة والدهشة، أكثر من عشر ساعات كانت تتسمّر أمام الشاشة وسط صراخ طفلها وبكائه وحاجته للرعاية ولعنات صابر المستمرة لها والمطالبة بالاهتمام بالبيت الخرابة، ولكن سنية لم تدّخر وقتًا إلّا وبذلته في متابعة لحظاتها التلفزيونية، لتترعرع على مفاهيم جديدة ووقائع غريبة وحدود حياة لم تكتشفها بعد، لقّنها التلفاز ما هي بحاجة إليه من معرفة بسيطة قادرة على الإطاحة بعرش جهلها المستبد بها، امتلكتْ صوتها هذه المرة وأصبحت تعي تدريجيًا أن ثمة عالمًا كبيرًا تعيش فيه رغم أنها منعزلة عنه، عالم أوسع وأكبر وأجمل من القرية التي لفظتها ونبذتها على هامشها، عالم تلفازي أشعل تباريحها القديمة في جبل المكسور، تلك التباريح المفعمة بكلمات ناصر الفدائي، إذ كانت تلتقي ببعض كلماته وأحاديثه معها في نشرات وبرامج إخبارية مثل منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات، تونس، لبنان، حرب المخيمات، حركة فتح، لتكتسب الحد الأدنى من المعرفة التي تكفل لها تفسير ألغاز ناصر العتيقة، غير أن الأماكن التي يشدها أكثر هو ذلك العالم الوردي العابق في الأفلام والمسلسلات التي غالبًا ما تكون نهايتها وردية سعيدة، كانت تتقمّص الشخصيات لاهية ما بين فاتن حمامة وسعاد حسني ومريم فخر الدين، باحثة في صابر عن محمود قابيل أو أحمد مظهر ولكنها لم تلمس في ختام فيلمها البيتي الخاص سوى الكلام والشتائم وعار هبلها الأبدي.

في لحظات زمانها النادر كانت تتجرأ على صابر عندما يكون ثملًا عاجزًا، كانت تصيح في وجهه، تتهجّم عليه، تبصق في وجهه على مرأى سليم الذي لم يدرك بعد تفاصيل الحياة الزوجية لوالديْه، حتى أنها قامت ذات ليلة عاصفة ثملة بتكبيل صابر بحباله هو كما كان يأسرها ويوثقها.

مُتفجّرة سنية كانت ممتلئة بلحظاتها التلفازية، صفعته وسط ذهوله وعجزه التاميْن وثمالته الخالصة:

- هل تعتقد أنني مجنونة يا ابن الكلب.. ها.. تظنني هبلة.. الليلة سأريك من هي سنية.

ثم قامت بتمزيق ثيابه بوحشية لبؤة، ابتسم ابتسامة صفراء خبيثة قائلًا باستفزاز:

- نعم هذا ما أُريده.. أريني جنونك الحقيقي يا..

قطعت عليه شتيمته بصفعة قوية أطاحت بثمالته:

- اخرس لا أريد أن أسمع أنفاسك يا ابن الكلب.

- نعم.. أنا كلب.. كلب.

ثم أخذ يعوي بتبذّل وفحش، استفزّها، فانقضت عليه، أطبقت على عنقه بيديْها وضغطت بكل قوتها وألمها وحقدها، ولكنها لم تخنقه، كانت عاجزة واهنة بيديْن خُلقتا لمداعبة خدود الورد لا عنق صابر الخنزيرية، ابتعدت عنه مُجهشة بالبكاء فسخر منها قائلًا: هذا ما تعرفينه فقط البكاء والنواح يا مجنونة.

انقضت عليه مجددًا بعاصفة من اللكم والشتائم، لم تلاحظ أنه بدأ يتحرر من ثمالته ووثاقها العنيف إلى أن نجح في ذلك وأحالها أسفله في

لحظة نارية مليئة بالتمزيق واللعنات وصراخها هي سنية التي اعتقدت للحظة أن ما رأته في التلفاز ليس خيالًا بل واقعًا سيقيها شر صابر.

***

سنية التي كانت تحفظ وصايا الأشجار وأسماء الأزهار وكل حجر وحفنة تراب في جبل المكسور، سنية لوزة الربيع تفوح في بيت صابر امرأة من لحظات خيالية، باقة ورد اصطناعية تُزين غرفة نوم صابر المُمعن في الغياب عن أبوته لطفله البكر سليم الذي باتَ بثلاثة أعوام في حوش البيت مُتمرّغًا بتراب أمه العتيق، أمه سنية هل كانت أمه حقًا؟!

هي التي أحالته إلى دميتها الصغيرة التي كانت تحتضنه طفلةٌ لا أمًا تداعبه وتتسلّى به تارة وتنفر منه وتهمله تارة أخرى دون أن تكتشف أو أن تعي للحظة ذلك الرباط المقدس الذي يجمع الأم بطفلها، بكلماته الأولى التي يتمتم بها اسمها القدسي في البيت المختل ما بين أب سكير وأم تتراقص ما بين الجنون والعبث والتلفاز والمنطق.

سنية تحجب عقلها فمن الذي يقوى على ولوجه واحتلاله والخوض في غمار ما يعتمل في ذهنها، ما الذي كان يدور في بال سنية؟ وكيف استطاعت المزج ما بين هبلها وواقعها؟ ما الذي كان يمنعها من التحرر من قيود صابر وهل كانت كل هذه الأسئلة تدور حقًا في فضاء مجرتها المذهولة؟

***

في أجواء عزلتها عمّا يُحيط من عالم وواقع لا يعترفان بها ولا يعلمان أيضًا بعدوان صابر عليها تنمو في أحشائها بذرة أخرى، يعلق بها دم صابر من جديد لتتأجّج بأنفاس الحياة المترددة في رحمها والمطالبة بالتحرر من ظُلمات الرحم، لتلد سنية هذه طفلة للحياة التي لا ترحم.

قالت لها القابلة أم محمود بغبطة وسرور: بنت يا سنية.. تُشبهك لوزة مثلك.

لم تمنحها اسم أمها المرحومة «زكية» ولا اسم أم زوجها المرحومة «نجاة» كما لم يأبه صابر كثيرًا بما ألقته سنية في وجهه من مولود آخر، سيشغل باله ويثقل كاهله الخالي من المسؤولية والأبوة:

- سأسميها فاطمة يا أم محمود.. فطومة..

قالتها باللهجة المصرية كما لو أن لحظة سينمائية، انتابتها في تلك اللحظة، فاطمة، هكذا أسمتها دون تردد، وهكذا ينفر الحليب من ثدييها المكتنزين بالأمومة لترضع طفلتها التي تشبهها:

- أتمنى من الله أن تصير مثلك.

هكذا بالتقريع والإهانات كان ينتابها صابر الذي كان آخر همّه أن يرى أطفالًا يُزيّنون بيته.

- بنت يا بنت الحرام هو أنا ناقصني مجانين.. ألا يكفي إهمالك لسليم؟

وسنية تضحك في وجهه ضحكة عصبية مجنونة:

- عندما تصبح أبًا محترمًا تعال حينها يا زوجي يا حبيبي اسألني عن أولادك.

- اخرسي يا فاجرة.

فتخرس لترضع فاطمة الوافدة الجديدة إلى بيت صابر وسنية، فاطمة التي جاءت في الشتاء ليتحول يأس أمها إلى عنفوان ترسمه الأمطار على وجهها البهي، لتنخرط في أمومتها المكتشفة حديثًا، متباهية بها أمام صابر،

متناسية سليم منشغلة عنه بالأحرى باحتضان ورعاية فاطمة ومنحها حليبًا حُرم سليم منه، لتزهر أمومتها «بفطوم» في أواخر العام الذي اندلعت فيه النيران وتساقطت الحجارة في محيط عالمها:

- ولّعت يا سنية ولّعت في البلد كلها.

سألته بلا مبالاة عندما كان يتابع الأخبار في المساء بتوتر شديد وإثارة:

- ما الذي حدث؟

كان صابر يتابع الأخبار بقلق على وشك الاختناق إلى أن أجابها بتأففه المعتاد:

- الناس هبّت في وجه اليهود بعدما دهسوا العمال في غزة.. وها هي الدنيا كلها مشتعلة في نابلس وغزة ورام الله وفي كل مكان.. انظري.

- يعني شو رح يصير؟

سألته وهي ترضع فاطمة، حدجها بغضب قائلًا:

- إنتفاضة يا هبلة.. إنتفاضة سوف تقطع رزقنا.

ما الذي كان يتفوه به صابر في أوائل كانون أول من عام 1987؟ انتفاضة.. رزقنا.. أطفال الحجارة.. مستوطن؟! داهمتها الأسئلة غير أنها كانت تعلم أن زوجها بدلًا من الإجابة سيمنحها الشتائم، لتتابع الأخبار باهتمام زائد لكي تتلقّف أي خبر أو معلومة تستطيع من خلالها أن تفهم ما يجري من حولها في عالم تراه الآن من شاشتها الصغيرة مشتعلًا بالأطفال والحجارة ورصاص الاحتلال نعم الاحتلال ألم يشرح لها ناصر الفدائي في جبل المكسور عن هذا المفهوم الوحشي؟ ألم يقل لها إنه تسلّل إلى الأرض التي يعشق ليقاوم المحتل؟

أليسوا هؤلاء الذين تراهم الآن أخوة ناصر؟ ولكن بحجارة وصدور عارية فقط.

انغمست سنية في حيثيات هذا الواقع الجديد المتفجر التي كانت تسمع وتشاهد أحداثه في بعض الأحيان في أنحاء القرية، عندما كانت تراقب من نافذة بيتها-محتضنة طفليها- المواجهة اللامتكافئة بين شبان وأطفال القرية وجنود كوحوش كوابيسها الطفولية يقذفون نيرانهم في صدور أولئك الذين لا يمتلكون سلاحًا سوى الحجر، كانت ترى شبان القرية وهم يغلقون الشوارع بالحجارة والإطارات المطاطية المشتعلة، وتسمع أصوات الأعيرة النارية وتستنشق رائحة الغاز الخانق للقلب والمسيل للدموع في ظل دهشتها هي التي انشغلت بهذا الحراك الجديد الذي تدور رحاه في قريتها التي لم تعهد يومًا في أيام واقعها سوى السكون والرتابة، كانت تلمح في بعض الأحيان شبابًا في مثل عمرها وهم ينسلّون في كرم الزيتون المقابل لبيتها لينبعثوا منه بعد فترة من الوقت بزي الانتفاضة الكاكي مُلثمين بالكوفيات، كل هذه المظاهر الغريبة والعجيبة والجديدة عليها هي سنية التي كانت تشاهدها وتسمعها في الوقت الذي لم ترَ فيه صابر يشارك أهل قريته فعاليات الإنتفاضة:

- هؤلاء مجانين مثلك.

- أنا مش مجنونة يا صابر وهم ليسوا مجانين فاهم؟!

- الله يلعنك شو بدك أعمل؟! أذهب إلى إلقاء الحجارة؟! ماذا تفيد الحجارة؟!

- بتصون الكرامة.

- الآن أصبحتِ تعرفين الكرامة يا مجنونة؟

- وأنت لا يوجد عندك كرامة.. أنت لست رجلاً..

قاطعها بانتزاع فاطمة من حضنها بعنف لينهال عليها لكمًا وشتائم.

- من يصرف عليك وعلى هذين الجروين؟ من يطعمك؟ من أحضر لك تلفزيون يا بنت الكلاب؟ من يصونك في بيته يا مجنونة أليس أنا؟

مثلما يواجهون عدوهم شبان قريتها كانت سنية تواجه صابر بلسانها اللاذع وأسئلتها الجارحة وصدّها للكماته وشتائمه، كانت في مقدمات انتفاضتها الخاصة تسعى قدر إمكانها نحو هضم الواقع من حولها بنفض غبار الهبل عن عقلها الذي كانت تؤمن به وأنها لم تكن يومًا هبلة أو مجنونة كما كانوا يقولون عنها، بل وحيدة وحزينة ومخذولة ومفجوعة ومهجورة ومُفترعة.

شعرت سنية أن واقع الانتفاضة الجديد الذي تعرفت عليه من خلال ما تراه من نافذة بيتها والتلفاز معًا أنها يجب أن تُمزّق ثوب هبلها خاصة بعد إنجابها لفاطمة سنيّتها الصغيرة، فهي أم لطفلين الآن المتململين في حوش البيت وزوجة صابر الذي بات يغيب لفترات طويلة عن البيت منشغلاً بأعماله في أعماق إسرائيل، إذ أبعدته الانتفاضة عن بيته ولآلئ سنية وأبهة هبلها الذي كان يعشقه حد المرض.

يغيب صابر ولا يعود إلّا عندما كانت الأمور تهدأ والعواصف تسكن معلنة خفوت حدة المواجهات ما بين أطفال الحجارة والمحتل:

- ها شو حرّروا جماعتك المجانين فلسطين؟

فترد عليه بتهكم أقسى:

- كلا فقد كانوا ينتظرون عودتك من إسرائيل لكي تساعدهم في هزيمة اليهود.

فيقبض على ضفيرتيْها بغضب وسخط:

- من أين تعلمت هذه الوقاحة والمسخرة يا مجنونة؟ أنا أعرفك جيدًا.. يمكن في غيابي نمتِ في سريري مع أحد الزعران.

لحظة سكون، فاصل قصير ترتاح فيه سنية لتألف صابر، لن يكون أبدًا، لتمضي هكذا في حياتها ما بين تطاول على شراسة زوجها لطالما سعت إليه وعجز لطالما أحاط بها بشدته وعنفه وقذارته، عجز كانت تراه وتلمسه في طيات نفسها وهي تحتضن طفليْها في سرير الألمْ والمعاناة فمن كان على قيد الجنون هي أم هو؟

***

تتابع سنية الأحداث الحية التي تحيط بها، ليحتلها النشاط والاندفاع، لا، بل العنفوان المفاجئ الذي أدى بها إلى العودة لممارسة عشقها المقدس في الزراعة وإحالة بيتها الميت إلى حيّ نابضٍ بالزهر والخضرة، كانت سنية مدفوعة بحماس غريب مسّ فؤادها، حماس انبثق من غياب صابر المتكرر والطويل لتولد فسحتها الأجمل التي أسكنت فيها طفليْها، بيد أنها لن تنسى أبدًا إهانات صابر وعودته العنيفة المتجددة لاحتلالها، فما كانت توشك على لثم جراحها حتى ينتهكها ويفترسها أشد إفتراس، إلى أن جاء اليوم الذي قررتْ فيه الانتقام.

حين علمتْ من خلال المنشورات والبيانات المسموعة والمكتوبة التي كان يلقيها شبان الانتفاضة على الناس أن العمل في «إسرائيل» ومستوطناتها بات ممنوعًا باسم الانتفاضة، وأن من يخالف هذا القرار الوطني سيتحمل المسؤولية وسينال عقابه الشديد باسم كل الشرفاء، حين سمعتْ سنية بهذا القرار تراقصتْ فرحًا وسرورًا، لأن فرصتها قد لاحت بعد أن تأكدت تمامًا أنْ صابر لم يكن يمتهن مهنة شريفة ترفع رأسه ورأسها في ميادين الانتفاضة والبلد، بل كان سارقًا بارعًا عاملاً ليلاً في المدن والمستوطنات

«الإسرائيلية»، استغلتْ فرصة تخفّي الشبان في كرم الزيتون لتلاقيهم حين يخرجون منه متأهبين للمواجهة:

- مشان الله يا خوي.. إسمعني شو بدي أحكيلك.

فأجابها أحد الشبان المقنعين بذهول واستغراب: ولك ألستِ أنتِ سنية الهبلة؟!

جرحها بسؤاله وبعثرها فلكزه الذي بجانبه قائلًا لها بصوت حازم: ماذا تريدين يا أختي؟

فقصّت عليهم القصة كاملة بلسانها الثقيل المتعثر وارتباكها من حضورهم المُهيب، كما لاحظوا أثر الكدمات على وجهها ومعصميْها بالإضافة إلى جمالها الآسر رغم شحوبها وذبولها. لم يطل الأمر كثيرًا، فسنية اعلمتهم أن صابر غالبًا ما يعود إلى البيت في أيام السبت بسبب العطلة اليهودية التي لا يوجد فيها أعمال ولا أشغال، وهذا ما حدث، يومَ عادَ منهكًا ثملاً من عمله داهمته مجموعة من شباب الانتفاضة الذين ناشدتهم سنية برد اعتبارها وكرامتها مدفوعة بالانتقام السري الطفولي من زوجها الذي ذُعر من اقتحامهم لبيته عنوةً في منتصف الليل: ماذا تريدون من أنتم؟

سأله أحدهم بحزم: ألستَ تعلم أن العمل في إسرائيل ممنوع بقرار من الانتفاضة؟

فأجابه صابر متهكمًا متأثرًا بثمالته:

- وأين أعمل يا حبيب إمك؟

- أنا سأقول لك أين تعمل.

ثم انهالوا عليه بالضرب والهراوات على مرأى سنية الجذلى جذل الهبل والتشفي والطرب من آهات وصراخ زوجها الذليل، الذي سحبوه معهم لتصحو

القرية في اليوم التالي عليه وهو موثق بجذع زيتونة رومية في منتصف القرية غارقًا ببوله ودمه إثر ليلة انتفاضية لعنتْ فيها سنية أصله الأول منتقمةً منه بسواعد شباب الانتفاضة، بيد أنها لم تكن تعلم أن الفضيحة قد حلّتْ، إذ وبالرغم من ماضي أبي صابر المشبوه وسيرته السيئة، إلاّ أن ما ألمّ به هو من ضرب وتنكيل وتشهير كانت فضيحة مُجلّجلة على مرأى ومسمع القرية التي لعنته ولعنت زوجته الهبلة بعد أن علموا بإشاعة أو بأخرى أنّها هي التي وشتْ بزوجها لشبان الانتفاضة لكي يعذبوه ويؤدبوه.

لم يصبر صابر كثيرًا، فما إن حلّ مختار القرية وثاقه طالبًا منه العودة إلى بيته والاتعاظ مما تعرض إليه، حتى سمعتْ القرية بأناسها وأشجارها صوت سنية المجروح وصراخها الذليل:

- فضحتيني وَلك يا مجنونة.. بماذا سينفعك هؤلاء الزعران.. هكذا تُسلّميني لهم.. أقسم بالله إنك هبلة بالفعل.

وثقها على مرأى طفليْها المذعورين، ثم انهال عليها لكمًا وجلدًا بسوطه الناري، وهي تئنّ وتصرخ وتنشج غير أنها في نفس الوقت كانت سعيدة لأنه بات مذلولاً مكسورًا:

- الله لا يردك يا ابن الجاسوس.. أصلًا أنت جاسوس مثل أبوك.

فاغتاظ بشدة منهمرًا عليها بالويلات والعذابات الدامية:

- يعني أبوكِ أشرف يا هبلة..؟! الذي كان يضاجع نساء المستوطنة من أجل المال.

***

نعم لم يصبر صابر أكثر على الفضيحة والمذلّة والحطام الذي أصابه في أرجاء القرية، اختنق، لم يعد يدري ما الذي يتوجب عليه فعله، شعر أنّ القرية بأجمعها تلعنه وتتلصّص وتبصق عليه، تتناهى إلى مسامعه الذليلة

الإشاعات والأقاويل أنَّه عميل وخائن مثل أبيه، وأنَّ سنية الهبلة كانت تذهب برفقته إلى العمل في بعض الأحيان وأنها فضحته، لأنَّه لم يعد يخرج ساعيًا في مداواة جراحه وإنكساره، مُمعنًا في تعذيب سنية اليومي قاذفًا عن متن أمومتها طفليْها اللذيْن لم يشعر بهما ولم يشعرا به أبًا أبدًا، وتملّكه الخوف من وشايتها مجددًا إذ عادت سيرته الأولى ميادين «إسرائيل»، وما أغاظه وخنقه أكثر هو تطاولها المفاجئ والآخذ بالتصاعد عليه، وتلميحها الدائم له بالكسر الذي ألمَّ به وأحاله إلى ركام رغم قسوته وحباله وعنفه إزاءها، غير أنه كان يعلم أنه بات عاجزاً ناقصًا جدًا أمامها هي التي تحولت لكماته ولطماته لها إلى مداعبات لطيفة تنبع من ضعفه وخوفه وجبنه، إلى أن بات يُفكّر مليّاً في كيفية معالجة هذا الحدث الطارئ وما تلاه من انعكاسات وتداعيات أحالته إلى منبوذ كريه عاطل عن العمل.

صابر الذي تحدى القرية وسيرة أبيه بإصراره على العيش فيها كما يريد ثملًا وحيدًا في بيته المقذوف خارج حدود القرية وعاداتها وتقاليدها، هل سيعجز يائسًا أمام هبل سنية وألسنة أهل القرية وهراوات شباب الانتفاضة.؟

نعم لقد كان يخشى أن يعيدّ المنتفضون الكرّة ولكن هذه المرة من خلال قتله بعد أن انتشرت ظاهرة إعدام المتعاونين مع الاحتلال الإسرائيلي، ولذلك حسم أمره وخياراته في خيار واحد أوحد ألا وهو الهجرة والرحيل عن قرية (عين المرجة) لا بل التقيؤ عليها وعلى سيرته وسيرة سنية الهبلة وأرجائها:

- سنية جهّزي نفسك أنت والولديْن اليوم سنرحل عن القرية.

سألته صارخة كأم ثكلى إنبعثت لتوّها من فيلم مصري حزين:

- لفين؟ - إلى أين؟-

- إلى جهنم.

الفصل الخامس:

تقف أمام مرآتها الجديدة داخل الركن المخنوق من مكانٍ لا تألفه..

لن تألفه وتأتلف معه شجرًا وورودًا، فالمرأة الطفلة كبرت، تكبر ولم تعد طفلة في منطقة «الرام» الواقعة إسفلتًا وحديدًا جنوب مدينة رام الله.

هي سنية التي تقف أمام المرآة ولكن لماذا؟

بعد أن قامت بتدليل شعرها الحريري الشاسع بالسواد والنعومة، مشّدته، سرّحته، سَدَلَته ستارًا فاتنًا يحرسُ نور وجهها، جالت في نعومته بأصابعها النحيلة الطويلة ثم ضفرته أم الضفيرتيْن بأغاني طفولتها والهمس، كانت توشوشه، أروع ضفيرتيْن لسنية البهية، بالتناسق التام والليل المُكتنز بهما سرمدًا يرافق زغاريد القرية البعيدة، تقف سنية بشموخ ممتشقة بيدها المرتعشة مقصًا كبيرًا صدئًا.

قصّتْ سنية ضفيرتيْها أثر رضوخها لقصتها الحزينة، ولكن لماذا؟ لماذا اقتلعت سنية أثر طفولتها وعبق جبل المكسور؟

هل دفعتها للخيبة جارتها الجديدة سليطة اللسان عندما ألقتْ عليها مثلًا معجونًا بماء النار شوه مشهد سنية الجديد في الرام:

«اللّي جوزها نذل ترخي السوالف ليش؟»

أمْ أن السبب الحقيقي هو انتقال سنية من طور الهبل إلى طور البؤس الذي جعل من طفلة صغيرة امرأة ناضجة؟

سنية تقتلع الضفيرتيْن اللتيْن لطالما شُنقتْ بهما أكثر من مرة في رحلة حياتها التي لم تتضح ولم تبدأ بعد.

***

ما بين الرام ورام الله بضعة كيلومترات فقط، غير أنها بالقيمة والمعنى فإن المسافة ما بينهما لا تحدّها أرض ولا سماء، حيث تتراوح الرام ما بين قرية وضاحية تنمو وتكبر ما بين القدس ورام الله بفمٍ إسمنتي كبير يتسع لكل الذين يبحثون عن مسكن أو ملجأ رخيص التكلفة وقريب من المدن الكبيرة. هي أكبر قرية وأصغر من مدينة باكتظاظها السكاني والإسمنتي العشوائي المليء بالحياة ومجرياتها وعذاباتها وأوْج انتفاضة الحجارة رغم شتاء عام 1989 القارس.

في الرام. داخل شقة في الدور الأرضي من عمارة سكنية مُكونة من ثمانية أدوار ألقى صابر بسنية وهبلها وطفليْها، ليرتاح أخيرًا من عاره ولؤْز زوجته المر.

قال لها جذلًا:

- هنا يا سنية لا يعرفنا أحد..

ثم نهرها مردفًا:

- كما أنك ستكتشفين أمورًا جديدة.. ولذلك عليك أن تتخلصي من هبلك.

كانت فاطمة على يدها وسليم يدور في أرجاء البيت الجديد الأكبر من

بيتهم القروي الخالي من كرم الزيتون والحاكورة وطريق اللوْز وعين الماء.. كان ما يُحيط بها يحتلها بغرابته وصرامته وحياديته الإسمنتية الباردة، تراقب سنية واقعها الجديد ساعية إلى فهمه والاعتياد عليه بلا أدنى ذرة تراب أو نسيم يُخفي في ثناياه اللطيفة عبق الحياة البرية في القرية.

حشرها في شقة صغيرة صابر المُمعن في تمزيقها المستمر وصدمها ما بين لحظة وأخرى بأحداث وحيوات ومصائر قاسية.

صابر الذي اعتقد للحظة أن هذا المكان البعيد عن قريته سيداري سوءته وعاره وفضيحته وهبل زوجته، خاصة بعد أن شعر بفقدان الأمن والحماية إثر اندلاع الانتفاضة الشعبية وعدم قدرته على العودة إلى عمله وأنشطته داخل «إسرائيل» بعد أن وشت به سنية لشباب الانتفاضة. فكيف يبقى صابر في عين المرجة؟ إذ لا يستطيع أن يضمن صمت سنية أو المراهنة على اعتدال عقلها وتخلصها من هبلها المتعمد، رغم أنه لمس عودتها واكتشافها لأمر المنطق في عقلها خاصة بعد إنجابها لفاطمة، بيد أنه قرر التخلص من كل شيء، من حياته في القرية وبيته الجميل فيها ليهاجر إلى ركن آخر ليس فسيحًا ولكن به من السعة لاستيعاب صابر ونزعاته الشيطانية وأعماله الدنيئة وزوجته الهبلة وطفليْها الصغيريْن.

انكسر صابر، ومن المستحيل على رجل في مثل عمره الزاحف نحو الخمسين أن يعالج إنكساره العلني أمام جميع أهل القرية، مسّه الخراب الذي ردم به سنية في الرام، إذ لم يعد يغيب لفترات طويلة عن البيت، بل لم يعد يعمل ويكسب المال الوفير كالسابق بسبب إرهاقه المتصاعد من شدة السكر وما لاحظته سنية عليه من إمارات الرضوخ والبلاهة بعد تدخينه لِلُفافات تبغية غريبة ليست كالموجودة في علب السجائر التي كانت تشتريها له من البقالة، لتكتشف فيما بعد أن زوجها صابر بات

حشاشًا مدمنًا على الحشيشة، لينفث في البيت الجديد سُمّه في جسدها بعد اشتداد وتيرة الانتفاضة وإغلاق الطرق ومنع التجول المستمر، بالإضافة إلى تهديد نشطاء الانتفاضة الدائم للذين يعملون في إسرائيل ومستوطناتها وتحذيرهم من العمل هناك، في ظل تزايد وتيرة إعدام العملاء المتعاونين مع الاحتلال.

وأما هي، سنية المهاجرة من عين المرجة، شرعت في نزع أسمال هبلها عنها، لترى الواقع الجديد الذي زجّها به صابر، تكتشف دوّامة ضخمة بها من الأحداث والقصص ما يفوق القرية لها، وسط تحذير صابر الصارم لها بعدم التعرف والتواصل مع أي أحد من الجيران أو الانخراط بثرثرة حارات الرام وأزقتها:

- سنية هذه ليست عين المرجة.. هذه الرام يا هبلة.. هل تعرفين شو يعني الرام؟

فتسأله ببلاهة متعمدة وهي تُقلّد نبرة صوته:

- شو يعني الرام؟

فيجيبها ساخطًا:

- يعني الهبل ممنوع.. هنا يوجد مصائب وذبح فقط فهمتي يا هبلة.

بلى، سنية فهمت كل شيء، وسمعت ورأت ولاحظت ما يفوق ما عايشته في القرية من مواجهات يومية مع جيش الاحتلال.

كانت تلمح خشية زوجها من شدة المواجهات عندما كان يغلق البيت ونوافذه منزويًا في غرفته مثقلاً بالحشيشة والخمر، غافلاً عن طفليْه

وزوجته المثابرة على متابعة أحداث الانتفاضة وتلفازها، ومراعاة شؤون سليم وفاطمة بما يسمح به عقلها الذي أخذ ينمو ويتفتح فجأة على هذا الواقع الجديد. إذ إنها لم تمارس دورها المعهود والمتمثل بالأمومة، الأمومة فقط لا أقل ولا أكثر، فهي لم تستوعب في علاقتها مع سليم وفاطمة أنهما طفلاها اللذان انبثقا من رحمها، بل لعبتاها اللتان تلعب بهما كما تشاء مُقلّدة ما يُبهرها به التلفاز من خيالات وأوهام لن تنجلي حقيقة في الشقة الإسمنتية الأرضية، لدرجة أن طفلها سليم الذي بات على مشارف الخامسة من عمره لم ينطق بعد، لم يتمتم باسم أمه وأبيه، دون أنْ تستغرب هي لذلك الأمر المريب أو حتى أن تدرك حاجة طفلها للنطق للمناداة للتلعثم، بل كانت ترعاه بالطعام والنظافة وحمايته من افتراس أبيه الحشاش له، فعندما كانت تنتاب صابر الرغبة العارمة كان يأتيها وسليم في حضنها غافيًا، ينتزعه كهرٍ صغير ملقيًا به أسفل السرير، ليُمعن في سنية كما يشاء.. يُقلّبها.. يُبعثرها، لتنفلت هي من هوْل ثقله هارعة نحو طفلها لتخرجه من غرفة أبيه الدامية، ثم تعود أدراجها إليه بعد أن تغلق الباب ممزقة عارية راضخة له ولنوبات سُعْرِه.

لم تتحرر منه سنية بعد، رغم موجات الجرأة التي كانت تجتاحها في بعض الأحيان والتي غالبًا ما يكون فيها سابحًا في حشيشته، غير أنها لم تستيقظ من سباتها إلاّ عندما اكتشفت أن صابر تغير كثيرًا في الرام، إذ لم يعد يضربها كالسابق رغم تصاعد وتيرة شتائمه بحقها في أجواء البيت الذي باتت ملامح الفقر والحاجة تكتسيه:

- شو فش شغل اليوم؟

تسأله بتذمر فيجيبها بخدره وثمالته:

- لأ.. اليوم فش شغل.. اليوم في إنتفاضة.

ثم يضحك بعصبية.

- بدنا أكل وحليب للبنت.. من وين نجيب؟

- روحي اشتغلي وإصرفي على الدار.. الشغل مش عيب.

ثم يضحك مجددًا، فتنفر منه ماضية إلى احتضان طفليها والتلفاز، منشغلة عنه بهما إلى أن يجبرها على السرير مجددًا وقت ما يشاء.

***

في بيتها الجديد تُحيط بها التباريح، تلمسها سنية إذ هي تشتاق الآن إلى ربوع القرية وفيافيها، إلى جبل المكسور.. عليتها العتيقة.. جارتها سعاد أم السعد.. حتى حبال صابر هناك كانت تشتاق إليها سنية السجينة في الرام داخل الدور الأرضي من عمارة لم يتعرف عليها سكانها إلاّ من خلال شتائم صابر وصراخهما المنبعث من مشاكلهما الزوجية.

من البيت لم يطلقها صابر إلاّ صوب البقالة المحاذية لعمارتهم، لم يأخذها للتنزه أو حتى قضاء فترة الأعياد في الأماكن المُعدّة للفرح مُتذرعًا بظروف الانتفاضة تارة وبعدم توفر المال تارة أخرى، معه لم تشعر يومًا بكيانها الجميل، بوجودها الإنساني في واقع مليء بالأحداث التي تخصها ولا تخصها، لم تستوعب بيتها وطفليها، لم تلامس الحياة ببشرها ووقائعها إلاّ تلفازيًا، بيد أن الفرق شاسع ما بين المرئي والملموس، وهذا ما بدأت سنية تدركه حين كانت لا تشعر بأنوثتها إلاّ في الفسحة المتاحة ما بين بيتها والبقالة، الفسحة المكتظة بشباب الحيِ الذين كانوا ينتظرون لحظة خروجها لاصطيادها بأعينهم المراهقة والمفتونة بها هي الغزالة القروية التي تخطر أمامهم بجمالها اللوزي وضفيرتيها الليليتيْن لتعبق بسرورها

الخفي المرفوع بكبرياء أنوثتها الصارخة القادرة على إذلال العيون وسحقها تحت حذائها.

***

في الرام تُدرك سنية أيضًا تلميح صابر الدائم لها بالعمل، وأن العمل ليس عيبًا ولا حرامًا، فتلتقط سنية طعمه وتجذبه بشدة، نعم تجذبه فيصطادها هو بصنارته ما بين لحظة وأخرى لتقتنع هي بالنهاية أن زوجها لم يعد قادرًا على العمل، انتهى صابر منزويًا مكسورًا في تبذير ما ادّخره من مال على لذائذه ورغباته والحد الأدنى من متطلبات البيت.

هنا، وفي هذه الأجواء، لا تنبثق سنية من جديد شجرة لوز ربيعية، بل تشرع في التخفيف من حدة هبلها الذي اعتادته، إذ تنتزعه تدريجيًا من دمها ورأسها وقلبها، وهذا ما عكس حضورًا جديدًا لها في البيت، حيث أخذت تدرك حاجتها ما بين صراخ طفليْها وانغماس صابر في رغباته، هنا تنزع سنية حجاب الهبل عن عقلها لتتعرف على منطق الحياة الذي لا يرحم.

تستيقظ مرة واحدة في الرام وعاصفة الانتفاضة وغياب زوجها، تصحو في البيت على واقع مخيف لن يرأف بها أبدًا إذا ما بقيت مستسلمة له ولهروبه اليائس من مواجهته، تحرق ركن هبلها، تتلقّف مرة واحدة كل ما يحيط بها من إمارات ونداءات وانعكاسات تطالبها بالنهوض خاصة في الوقت الذي باتت فيه مقتنعة بانكسار صابر وغيابه، صابر الذي لم تعهده يومًا زوجًا رؤوفًا معطاءً ها هو اليوم بنعومة يناديها، برقّة يعاملها، تلك الرقة المصطنعة النابعة من عجزه وفقدانه للسيطرة على واقعه لتنقلب لعنات سنية عليه وتحتله مُلقيةً به في زاوية الخدر والنشوة. كالمقبل على الموت كان صابر في تحوله المفاجئ من شيطان إلى ملاك، أما هي

فقد أقبلت عليه بلا تردد أو أدنى حذر، لتكتشف الرجل الجديد الذي راود زوجها عن نفسه حتى يعاملها بهذا الأسلوب الجديد والغريب عن نوازع قلبه الشريرة، لم تكن سنية لتدرك في البداية أنّ صابر بات في حاجة ماسّة إليها هي ابنة الاثنتيْن والعشرين سنة، إبنة الربيع التي بقدر ما تعاني تُزهر وبقدر ما تكبر تُينع، نعم لقد أينعت سنية بجمال لا يكلّ عن التطاول والامتداد عليها.

كانت في بداية مشوارها إلى المنطق عندما أخذ صابر في ترويضها وجذبها إليه بحنانه الزائف ورأفته المصطنعة لغاية في نفسه وهي تقترب، سنية تقترب تجذب الطعم بشدة فينتشلها صابر بصنارته:

- إذا دبرت لك شغل في رام الله.. هل ستشتغلين؟

حدقت به بعريها التام وهي مُستلقية إلى جانبه في سرير اللذة البائدة التي لم تشعر بها يومًا، حدقت به بصمت أخفت في ثناياه علمها بنواياه ثم سألته بخفوت:

- ما هي طبيعة الشغل؟

- يعني أكيد مش رح تشتغلي دكتورة.

قال لها مازحًا بسخرية ثم أردف: في بيت لجماعة محترمين ساكنين في حي «الماصيون» في رام الله ويريدون خادمة محترمة وآدمية، يعني شغل مريح.. أكل وشرب ونوم ببلاش وبقشيش ومعاش نعيش منه.. شو رأيك؟

أجابته بحزم دون تردد: موافقة.. متى العمل؟

رمقها مستغربًا ثم قال: سأعلم صديقي رجائي غدًا وبعدها تذهبين إن شاء الله.

- ومن رجائي هذا؟

- صديق قديم يعمل سائقًا لدى هذه العائلة وهو الذي قال لي إنهم بحاجة إلى خادمة.

***

للوهلة الأولى ترددت سنية بعد أن شعرت بجدية أمر العمل ورهبته، غير أن سبب ترددها الأهم كان هو ذلك الحدس الطاغي الذي تتمتع به والقاضي أن وجه زوجها المكسو بالعجز والذبول يخفي وراءه الاتكالية والاستغلال والخديعة التي انطلت عليها بإرادتها أو رغمًا عنها؛ فهي بالنهاية كانت مأخوذة بسطوة صابر عليها مُختزلة بدرايتها قذارة الواقع من حولها وحوله، ترددٌ ما لبث أن تبدد عندما طرق باب بيتها في الأسبوع التالي صديق صابر «رجائي» الذي جاء لمرافقتها إلى العمل خادمة.

كان يصغر زوجها بعشرة أعوام، طويل القامة بوجه مُستطيل نحيل لا يخلو من وسامة تشعّ من عينيْه العسليتيْن لتضفي حيوية لا تشي بعمره الأربعيني.

اكتشفته سنية، سبرتْ أغواره لترى صابر، وكأن رجال العالم اختُزلوا جميعًا في رجل واحد هو صابر، ولذلك لم تألف رجائي وعينيْه الفطْنتيْن اللتيْن التهمتا جسدها على مرأى زوجها حين كان يشرح لها عن طبيعة العمل ومحدداته في قصر «آل شكيب» أثرى أثرياء رام الله، موضحًا لها أنهم أناس طيبون رحيمون إزاء من يعملون لديهم: والله يا أختي أم سليم أنك سوف ترتاحين بالعمل لديهم ولا تخافي فأنا سأكون بجانبك.

تدخل صابر مدفوعًا بصمت زوجته وما تبقى من أثر هبلها مُمازحاً: أم سليم بألف زلمة يا رجائي لا تخاف عليها.

كانت سنية على أهبة الاستعداد واقفة بصرّة ملابسها بهيئة الخادمة الحقيقية كأن دور الخادمة في الأفلام المصرية تلبّسها فجأة وأعانها على هذه المرحلة الجديدة، إذ غطتْ رأسها بمنديل أبيض تدلّت منه ضفيرتيْها، مرتدية كنزة صوفية خضراء وتنورة سوداء طويلة، ساعية في طمر هندامها لملامح جسدها الصارخ بالأنوثة، مُطرقة كانت بشرودها الحزين وسط الحوار الثنائي المبحوح بالحشيشة ما بين صابر ورجائي، ثم انسحبت من أمامهما ذاهبة نحو طفليْها، حضنتهما وقبّلتهما ثم قالت لسليم:

- دير بالك على فاطمة يا سليم.. لن أغيب طويلاً..

ثم ضمّته بحنان قائلة:

- لمّا أرجع.. رح أجيبلك سيارة صغيرة تلعب فيها.

فهزّ رأسه مُجيبًا بصمت هو الذي لم يتقن الكلام بعد بحروف أمه، إلى أن ناداها صابر قائلًا لها بوداعة زائفة:

- هيا يا سنية لا تخافي على الولدين.. رجائي مستعجل.. الله معكم.

وقفت قبالته بمعهود عينيْها السوداوين الحارقتيْن، حدقتْ به فتبعثر حضوره أمام صديقه فقال لها مرتبكًا بصوته الأجش:

- إن شاء الله رجائي سوف يُعيدك كل يوم سبت كما اتفقنا وفي الأوقات التي لا يكون فيها هناك عمل كثير.. منيح يا سنية؟

فأجابته بصوت هامس حيادي: منيح يا صابر.

ومضت برفقة رجائي صديقه، ركبت في المقعد الخلفي داخل السيارة السوداء الفارهة من ماركة مرسيدس، فطلب منها رجائي الجلوس إلى جانبه

في المقعد الأمامي، كانت خائفة منه لا بل مذعورة، فقد اشتمّتْ رائحة زوجها منبعثة منه، رائحة القذارة والفظاظة، لتتذكر بدافع خشيتها منه أنّها كانت قد لمحته أكثر من مرة أمام البيت منهمكًا في حديث سري هامس مع صابر.

ركبتْ بجانبه على مضض ومضيا إلى حي الماسيون الذي يبعد بضع كيلومترات شمال غرب الرام، كان ذلك مساء صيفي من عام 1990 بعمرها البهي مضت سنية إلى واقعها الجديد المخيف، لتكون هذه المرة الأولى التي لا تكتشف بها الواقع بل نفسها، تكتشف الأمّارة بالجديد والغامض والمذهل، هكذا ما بين الهبل وصابر تصحو على نفسها داخل سيارة فارهة برفقة سائق بذيء إلى قصر ستعمل فيه خادمة.

سخرتْ من مصيرها قائلة في سِرّها: هذه هي المرّة الأولى التي سأعمل فيها خادمة.

كل المرات الأولى هي لك يا سنية فتشظّي واهوي أكثر وتحطمي بشدة علّ شظاياك تتطاير وتنغرس في صميم هذا العالم الذي لن ولم يحفل بك أبدًا، امرأة جميلة وبريئة حد الجنون. كانت تراقب شوارع رام الله المشتعلة بالمواجهات مع المحتل، تراقب من وراء زجاج السيارة الداكن ما يجري في محيطها من حجارة وإطارات مشتعلة ورصاص، كأنها في جزيرة نائية يحيط بها البحر الهائج والموج المتلاطم، قطع عليها رجائي شرودها بصوته الخشن ونبرته التي تحولت فجأة من الاحترام إلى التبذّل:

- شو يا ستي مالك مش مرتاحة.. خايفة؟

لم تجبه سيدة الصمت، فأعاد الكرّة من جديد:

- لا تخافي.. أنتِ بعيوني.. وكما قلتُ لك الجماعة محترمين.. بس إنتي لازم تكوني شاطرة.

التفتت نحوه وسألته بحدة: كيف يعني شاطرة؟

نجح في استدراجها إلى مصائد حديثه فقال:

- يعني كل شيء يحدث معك.. كل شيء تقومين به يجب أن تعلميني بأمره.

- يعني شو رح أعمل غير المسح والشطف والطبخ والغسيل؟!

أجابها بغموض مائلًا عليها أثناء سياقته: أشياء كثيرة وكل شيء في وقته حلو.

أيقنت سنية في هذه اللحظة التي تجلس بها بجانب رجائي أن ما هي مقبلة عليه سيكون معاناة حقيقية ومجهول مخيف، خاصة في ظل وجود هذا الرجل الكريه الذي ومنذ اللحظة الأولى التي رأته بها تأكدت أنه لا يكنُّ لها أية نوايا بريئة أو أخوية كما قال لصابر في البيت.

ولكن ما الذي ستقوم به سنية في القصر سوى القيام بدور الخادمة التاريخي المتمثل بالطبخ والغسيل والتنظيف؟

***

القصر المنيف بحديقته الغنّاء وحمّام السباحة، القصر بأرضه الأجمل في حي الماسيون، القصر بأسواره المنيفة، القصر بقاطنيه الأغنياء في مواجهة سنية التي لم تعد قاروطة هنا ولا هبلة فحسب بل سنية الخدامة أيضًا، القصر كما في أفلامها المصرية كان لا أقل ولا أكثر، تدخل إليه بكل ما أوتيت من دهشة وذهول.. تتعثر.. تقع متخبطة بملابسها الرثّة وتجربتها البكر في معترك الحياة، في أيامها الأولى لم تلتقِ سنية بأحد من سادة القصر، إذ قام رجائي بتعريفها على طاقم العمال والخدم من البستاني

وصولًا للحارسيْن وانتهاءً بأم علي الطباخة، وسط ذهولها الناتج عن لقائها المفاجئ بهؤلاء الناس الذين ورغم قِلَّتهم إلاّ أنهم كانوا مفاجآتها الكبرى التي اصطدمت بها، فهذه المرة الأولى التي تلتقي بها أناسًا حقيقيين غير الذين كانت تراهم على شاشة التلفاز، على أتم الذهول كانت سنية أمام أم علي التي شرحت لها موضحة طبيعة الحياة في القصر وما هو المطلوب منها، وما هي حقوقها وواجباتها، أدخلتها إلى أجواء القصر أم علي بصوتها الأمومي وحضورها الحنون إلى أن استرعى انتباهها صمت سنية وعودة البلاهة لإحتلال وجهها، فسألتها بوّد ممازحة:

- لم يقل لي رجائي أنك خرساء يا بنتي.. شو مالك ساكتة؟

شهقت سنية كالتي انتُشِلت لتوها من بحر هائج ثم تنهدت قائلة:

- لأ يا خالتي.. أنا بس مستغربة.

- أول مرة بتشتغلي؟

- نعم.

- ما تخافي يا بنتي.. الشغل مش عيب وإن شاء الله بتتوفّقي معنا هنا.

ولكن سنية هي التي تخاف، لا بل تُذعر من هذا الكم الهائل من التفاصيل والمحددات الجديدة في حياتها المضنية، سنية السابحة في فضاء القصر وفخامته وزينته تقول لنفسها: يا إلهي كم أنا صغيرة في هذا المكان!

ثم تنخرط في العمل، متفانية به، تُنفذ ما تطلبه منها أم علي التي تفاجأت بدورها من همّة سنية ونشاطها وصمتها الدؤوب في العمل.

في أيامها الأولى شرعت سنية بالاستجابة لطبيعة الحياة داخل هذا المكان الرغيد، مأخوذه بما أحاطتها به أم علي من رعاية ورأفة، حتى عندما كانت تخفق بالقيام بأمر معين تطلبه لم تكن لتصفعها أو تؤنّبها كما كان يفعل صابر، كانت تنصحها وترشدها إلى القيام بالأمر الصواب.. في عدة أيام سطع حضورها الزاهي في القصر خاصة عندما اكتشفت الحديقة الفردوسية، إذ وقفت على مشارفها قائلة بدهشة:

- يا حبيب الله.. هذه الحاكورة أكبر من حاكورتي وحاكورة أهلي.

تكتشف سنية الحديقة كما لو أنّها اكتشفت قارة جديدة. تعود إلى جذورها الزهراء والخضراء، إلى أصلها اللوزي. في الحديقة تعرفت على أشجار ونباتات جديدة، مُؤتلفة مع البستاني العجوز «أبو هاني» الذي أدرك منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها تداعب الأزهار بشغفٍ وحنان أنها بالفعل شجرة تسير على قدمين ولديها من الخبرة والدراية بشؤون الزراعة والحدائق ما يؤهلها لفهمه واستشارتها في شؤون هذه الجنة.

تعود غزالة، تخطر سنية في الحديقة برفقة «أبو هاني» التي لم تحتاج لمقدمات ومجاملات اصطناعية لكي تعثر فيه فجأة على أبيها أو صديق عجوز تتجاذب وإياه قصص الأرض وخضرتها وخيراتها. بعدة أيام فقط وما بين اللحظة الأولى التي دخلتْ فيها القصر خائفة مكسوفة وما بين هذه اللحظة الأخيرة التي تعود فيها إلى أصلها اللوزي في حديقة القصر تتفاجأ أم علي وأمثالها من خدم القصر وعماله من حضور سنية المباغت والساحر والعفوي، الذي تسبب لها في مطالع عمرها الزهري بالغيرة والحسد والنميمة مما أدى إلى وقوعها في بئر الهبل، ولذلك كَبَحَتْ سنية بسرعة جموح عفويتها وبراءتها عندما لمست بدايات الغيرة في عيون الذين

يحيطون بها، لتحط على الأرض، لتحبو من جديد مُخفَفة من حدة جمالها وروعتها، بلا عنفوان خانعة للذين لا يملكون أدنى قدر من جمالها وبراءتها، هكذا كُتب عليها، هكذا تدرك واقعها الجديد بمنطقها المستجد أيضًا، إذ لو أمعنت في براءتها مُطلقة العنان لعفوية جمالها لَتَحَطَّمت مرة أخرى ولألقوا بها خارج أسوار القصر، هذا ما تستوعبه سنية وتتعلمه من تجربتها السابقة، حيث عادت إلى حظيرة أم علي منفذة أوامرها بدقة وهذا ما أزال عنها حدّة الحسد والغيرة والكيْد.

غير أنها حتى الآن لم تلتق بأحد من أهل القصر، قال لها رجائي إنه سيُعرفها على «منير شكيب» المليونير الكبير صاحب القصر الذي يملك شركة للاستيراد والتصدير ومعامل للمواد الغذائية والحلويات، كانت تلمحه من بعيد، من نافذة المطبخ حين يخرج من باب القصر الكبير يهرع رجائي نحو سيارته الفارهة يفتح له بابها مُتصنّعًا المذلّة والخنوع، كان في أواخر الخمسينيات، هكذا قدّرتْ سنية عمره، أنيق أناقة رشدي أباظة هكذا شبّهته ووصفته، وعندما كانت تراه بقامته المُمتدة بالعافية المديدة والجسم السليم وفوديْه الفضييْن وما وقع بينهما من وجه حنطي يُزينه شارب أسود رفيع كانت تتنهد، لمحته ولكنها لم تلمح أو ترَ أو تسمع شيئًا عن زوجته وأولاده إلى أن سألت أم علي مدفوعة بفضولها فأجابتها مُتبرّمة: سنية الأسئلة الكبيرة والكثيرة بتخرّبْ البيوت.

تساءلت سنية بخنوع: شو حكيتْ يا أم علي.. أنا بس بسأل عن أسرته؟

زفرتْ أم علي بحرارة قائلة:

- حسنًا.. زوجته في جناح القصر الشرقي منعزلة فيه بعد أن أصيبت بالشلل النصفي جراء حادث سير مروع وقع لها على طريق القدس، وابنته الكبرى متزوجة وتعيش في أمريكا، وابنه

الصغير فادي يدرس في بريطانيا إدارة أعمال.. شو بدك كمان يا مدام؟!

ختمتْ أم علي حديثها بتهكم مقصود لكي تُخرس سنية فضولها وتهتم بعملها داخل القصر الكبير رغم حسرتها وغيظها حين علمت أن كل هذه الأبهة والخدمة والبذخ والترف هو في سبيل رجل غني وزوجته المشلولة المنعزلة في جناحها الفردوسي، لتلوذ سنية إلى غرفتها الصغيرة البائسة بجانب مطبخ القصر هائمة في عطايا المكان الفخم الذي راودتها فيه الأحلام التي لا تكون فيها إلاّ أميرة القصر وسيدته الآمرة الناهية، تتقاذفها أيادي وأمواج واقعها الجديد في أسبوعها الأول من العمل كخادمة، لتتفاجأ أنها غفلتْ في غمرة القصر عن بيتها الإسمنتي وزوجها وطفليْها، إذ لم تمسّها تباريح الاشتياق والاختناق من الابتعاد عن بيتها، فهي لم تهجر بيتًا في الجنة بل هجرت بيتًا مؤثثًا من لهب الجحيم، إلى أن جاءها رجائي مساء يوم الجمعة ليذكرها ببيتها أثناء انهماكها بمساعدة أم علي في إعداد العشاء:

- شو سنية يبدو أنكِ اندمجتِ بسرعة بالعمل هنا.. هل أنتِ سعيدة؟

رمقته للحظات بصمت نتج عن ضيقها وقرفها من حضوره وهيئته أمامها ثم قالت له بضيق مُتهكمة: مبسوطة كتير.

اقترب منها في ظل حيادية أم علي، تأكدت سنية من سطوة رجائي عليها وعدم قدرتها على مواجهته، إذ كانت أمامه تتحول إلى امرأة ذليلة خانعة فهو الذي يقبض في يده على مفاتيح رزقها وعنقها، وبالتالي لم تكن أم علي تقوى على مواجهته أو حتى على ذكره بأي سوء أثناء حديث عمال القصر الهامس عنه وعن قذارته والمعاملة الخاصة التي يتلقاها من منير شكيب، فهو ليس سائقه الخاص فقط بل كلبه المُدلل أيضًا كما يقولون.

اقترب منها أثناء إعدادها لأطباق الطعام، شعرتْ بأنفاسه التي تفضح سكره، فابتعدت عنه قليلاً، فقال لها ساخرًا:

- بعد العشاء يا ست الحُسن سأعرّفك بالسيد منير ولكي تأخذي منه راتبك الأسبوعي.. وغدًا سأوصلك إلى بيت أبو سليم.. منيح يا ستنا؟

ردت عليه كأنها تطرده من أمامها: منيح.. منيح كثير يا رجائي.

ثم عاد أدراجه متثاقلاً بسُكره، لم تُعقّب أم علي بحرف كأنها لم تسمع أو ترَ شيئًا. زفرت سنية بضيق قائلة:

- من يعتقد نفسه رجائي.. هل هو صاحب القصر؟

تشاغلت عنها أم علي، فالأمر لم يكن يعنيها، فهي بالنهاية لا تريد سوى الستر والرزق في هذا المكان.

لم يطل الأمر كثيرًا حتى وقفتْ سنية الخادمة مُنكّسة الرأس بين يدي السيد منير في غرفة مكتبه الفسيحة والضخمة، كان جالسًا في مقعده الوثير وراء مكتبه بكل الأبهة منهمكًا في مراجعة مجموعة من الأوراق فيما كان رجائي يقف بجانبه بخشوع وصمت، إلى أن وجّه سيد القصر نظره إليها رافعًا رأسه، حدّق بها بنظرته الأخّاذة العميقة، ثم سألها بصوته الرخيم:

- هل أنتِ مرتاحة بالعمل لدينا يا بنتي؟

فأجابته بخفرٍ دربتها عليه أم علي: نعم يا سيدي.

ثم سألها من جديد بحيادية وبرود تامين: هل تريدين معاشك كل أسبوع أم كل شهر وكم تريدين؟

فأجابته بذات النبرة المكسوفة: الذي تراه أنت يا سيدي.. اللي بطلع من نفسك.

لم يرد عليها، أخرج من جيبه رزمة أوراق مالية أخذ منها ورقتيْن من فئة العشرة دولار واعطاهما لرجاني لكي يمررهما بدوره إليها ثم قال لها بوّدٍ مُصطنع: إذا أردتِ أي شيء.. لا تترددي.. قولي لرجاني وهو سيُعلمني.. مع السلامة.. الله معك.

- الله يحفظك يا سيدي ويديمك فوق روسنا.

ثم خرجت سنية الخادمة برفقة رجاني الذي قال لها بسخرية: هذه المرة عشرون دولار المرة القادمة قد يزداد المبلغ أو ينقص.

- ماذا تقصد؟

لم يُجبها بل أخذ يُصفر لحنًا شعبيًا ماضيًا إلى مسامرة ليلية برفقة حارسي القصر مُخلّفًا وراءه سنية «الخدامة».

***

عندما عادت إلى بيتها بعد الأسبوع الأول من عملها، لم تكن مُتلهّفة للقاء زوجها أو حتى طفليْها، كان لقاءً باردًا حياديًا، حيث أقلّها رجاني، ألقى بها أمام البيت هي والأكياس الممتلئة ببقايا الطعام وعطف وخيرات القصر، ثم مضى دون أن يلقي تحية على صديقه القديم صابر.

دلفتْ إلى البيت، عانقها صابر بأنفاسه الكريهة وهيئته الرثة ثم سألها بلهفة:

- ها كيف كان الشغل.. مرتاحة.. كم أعطوك معاش قولي حبيبتي؟

أجابته ببرود وهي تدفعه عنها: عشرين دولار.

أخرجت المال من صديرتها، «جعلكتْه» بيديْها الصغيرتيْن ثم قذفته في وجهه ماضيـة إلى طفليها، لم يرد عليها صابر بقسوة وشتائم كما كان يفعل، بل التقط المال عن الأرض وقبّله ثم وضعه في جيبه قائلًا بجذل:

- شو مالك يا سنية مش مبسوطة في الشغل؟ عشرين دولار نعمة كريم.. بكرا بزيدو.

كانت تداعب فاطمة وسليم وتطعمهما مما جاءت به من حلويات مُخزّنة في ثلاجة القصر الضخمة متجاهلة صابر تمامًا إلى أن حطّ بيديه الثقيلتيْن على كتفيها قائلاً: بمداعبة زائفة:

- إشتقت لك كثير يا حبيبتي يا سنية والله ما بتسوى الدار بدونك يا مجنونة.

فانفجرتْ به بغضب مُتحررة من ثقل يديه:

- لا تقل عني مجنونة.. أنا مش مجنونة يا صابر.. إنتو جننتوني.

هالته ردة فعلها الصارخة فقال لها بخفوت:

- حسنًا.. حسنًا.. خلص لا تزعلي.

ثم أخذ يداعبها رويدًا مُمَرّرًا يده فوق صدرها وهو واقف خلفها هي الجالسة على مرأى طفليْها فأبعدته بجفاء:

- عيب.. الله يخزيك.. الولدين قاعدين.

في هذه اللحظات أدرك صابر أنّ الأسبوع الأول من العمل أحدث اختلافًا في معاملتها له، فما بالكم الأسبوع أو الشهر الذي سيليه؟ ابتعد عنها صابر قليلًا ثم دعاها إلى غرفته بلهجة متوسلة فرفضت قائلة:

- تعبانة وجيعانة.. كما أنني أريد أن أنام مع سليم وفاطمة لأنني سأعود غدًا إلى العمل.

فقال لها بخنوع وهو ينسحب من أمامها:

- حسنًا كما تريدين.

قرفته سنية التي كانت مُوقنة في داخلها أن زوجها يعرف دناءة صاحبه رجائي، وأنه يدرك تمامًا طبيعة العمل في القصر خاصة في ظروف امرأة جميلة مثلها صغيرة السن وفاتنة، كانت وهي تحتضن طفليْها وتداعبهما تسأل نفسها: هل يُعقل أن صابر لا يغار علي؟ معقول سلّمني لهؤلاء الناس ولصاحبه النذل رجائي؟

لم تفصح له بذلك، وهي تجيب في المساء عن استفساراته وأسئلته المتعلقة بطبيعة القصر وأصحابه ومحتوياته، وهي تُجيب مُسهبة ببراءة وعفوية، إلى أن سئم هو الأسئلة وطالبها بإجابة واحدة واضحة، إجابة لا تُفصح إلاّ عن شيء واحد فقط جسدها.. صراخ جسدها.

***

في القصر..

تزاول سنية مهنتها بالعمل الدؤوب وصمتها الذي حبّذته بانتظار أمر طارئ. كانت على يقين بذلك مدفوعة بحدسها وفطرتها اللوزية التي تقول إنّ رجائي لن يتركها بحال سبيلها بعد تلميحه المتكرر لها أنْ ثمة أمرًا معينًا مطلوبًا منها، وعليها أن تقوم بتنفيذه، دون أن تستوعب ما الذي يريده هذا الأحمق بالتحديد واثقة في نفس الوقت أن زوجها صابر متواطئ مع صاحبه رجائي خاصة عندما كان يُلمّح لها بدوره عن ضرورة تداركها واستيعابها للقصر وصاحبه ومحتوياته:

- ولك يا سنية أنتِ في الجنة.. تشاطري قليلاً.

- كيف يعني يا صابر؟.. ماذا تريدني أن أفعل؟ هل تريدني أن أسرق؟

قال لها بلهجته اللطيفة المفضوحة التصنّع:

- أنا أقصد أن هذا حق لنا.. شو يعني إذا أخذتِ شيئًا من القصر دون أن ينتبه أحد.

تصرخ في وجهه:

- خدامة وقلنا آمين.. تريدني الآن سارقة مثلك.

فيُهدئ من روعها قائلاً بخفوت:

- سنية.. رجائي قال لي إنّ صاحب القصر ارتاح لك وأنكِ الوحيدة التي يسمح لها بالدخول إلى مكتبه لترتيبه.. زبْطي حالك معه.

تقفز سنية من جانبه عن السرير، تستر عريها على عجل بقميص نومها ثم تجيبه بغضب وذهول:

- تريدني قحبة يا خنزير؟ أنت خنزير.. خنزير.. من أين أشتري لك كرامة وشرف؟

فيطلق ضحكة هستيرية ألقت بها خارج الغرفة:

- أهلاً وسهلاً بالشرف والكرامة تفضلوا!

تزعزع إحساسها بالأمان، فأصبحت حذرة أكثر من أي وقت مضى في القصر، لا تلوي على شيء سوى الالتصاق بأم علي، أو التواري ما بين الأشجار في حديقة القصر برفقة عجوزها الأصيل «أبو هاني»، إذ تكتشف

سنية أمر زوجها وصاحبه، زوجها الذي ذبحها وجلدها أكثر من مرة ها هو يلقي بها على عتبة الحرام والتهتك في فراش الأغنياء، هكذا يريد أن يُؤجّر جسدها لينعم هو بالمال الذي سينهمر عليه من ورائها.

كانت عندما تلحظ السيارة الفارهة مركونة في مرآب القصر ترفع درجة تأهبها الأنثوية مُترقبة ما سياغتها به رجائي، بأعلى درجات الحذر كانت تواسي نفسها مُهدئة من روْع حدسها أنَّ الموضوع حتى الآن هو مجرد تخمينات وتصورات لا أساس لها على أرض الواقع، مختنقة كانت ووحيدة، وما جعلها تُقاسي بشدة هو سكوت أم علي التي كانت تعلم بكل شيء فهي صاحبة تجربة عريقة في بيوت الأغنياء وتدرك أن جمال سنية سينزل عليها لعنات كثيرة في هذا القصر، بيد أنها لم تحذر سنية أبدًا بصورة مباشرة بالذي يحدث وما الذي يتوجّب عليها فعله، كانت تتحاشى ذلك خاصة عندما كانت تلمس شرود سنية واقتصار نشاط عملها على المطبخ والحديقة وصالات القصر الفسيحة، لم تعد تذهب إلى الأجنحة العلوية وإلى غرفة المكتب الخاصة بالسيد شكيب.

كانت تفكر مليًا بالعودة أدراجها إلى بيتها وشياطين زوجها ودميتيْها الصغيرتيْن، إلاّ أنها حوصرت بأسئلة انقذفتْ حِمَمًا ملتهبة من قهقهات أعماقها المظلمة: ماذا ستخسرين؟ لماذا لا تخوضين في غمار القصر وصاحبه؟ من أنتِ وسط كل هذه الأبهة؟

ماذا تنفع الكرامة؟ ما هي قيمة الشرف في بيت لا شرف لصاحبه؟

تُدميها الأسئلة في هذا الواقع الممتد بغموضه وتداعياته، إلاّ أنَّ سنية تؤكد على حقها في البقاء داخل القصر هاربة من هوْل الأسئلة لتكسب مالها بشرف وتكدح بكرامة لتصون بيتها من الجوع وخبل زوجها.

لقد شعرت سنية بممارستها لمهنتها الأولى في حياتها المزرية، أن اللحظات بأيامها الثقيلة تزحف عليها بخشونتها ونتوءاتها الحادة لتدميها وتفقدها براءتها، لم تُحصِ سنية الأيام التي عملت بها في القصر، الأيام الرهيبة التي قضتها خادمة لا هم لها سوى رد هجمات الأسئلة الخبيثة المباغتة لها، في الوقت الذي كانت قادرة فيه على استعارة دور صغير لخادمة تستغل جمالها الخلاب في فيلم مصري من أفلام تلفازها الصابري، في لحظات ضعفها كانت توشك على الصعود إلى علياء صاحب القصر، إلى مكتبه وجناحه الفاخر، لتمر من جانبه مدعية انشغالها بنفض غبار تراكم إثر غياب أنوثة القصر في غياهب المرض والأحزان، كانت سنّية وهي تنمو وتنضج في أجواء القصر واثقة بقدرتها على خلب السيد شكيب، فحتى أشد النساء جنونًا لديها ما يكفي من القدرة على اكتشاف فتنتها، ولكن المهم هو كيفية إستخدامها، في لياليها المعتمة كانت تلمح من البعيد وهج الرغبة المنبعث من أروقة القصر، غير أنّها لم تشعر للحظة أن السيد شكيب يسعى نحو لفت إنتباهها إلى سريره. كانت تشك في ذلك.

اصعدي يا سنية، اصعدي إليه يا هبلة، افتحي الباب ثم فخذيكِ لتجدي نفسك ممثلة بارعة، وإن لم يعجبك المشهد فاخرجي من الفيلم إلى الحقيقة، زوجك لا يمانع بقرنيه المخدريْن، وصديقه يُوحي ممهدًا لكِ الطريق إلى أعالي الثروة واللذة، فما الذي تنتظرينه؟

هكذا كان يهمس في داخلها ذلك الصوت، ذلك الحوار الداخلي الذي لم تخضه يومًا مع نفسها المهبولة، إذ يتجلى في داخلها منطق ما غزته أنوثتها البادية وشغف من حولها بها، يهبُّ إعصار ينفض عنها هبلها ويُذوي زهر لوزها، إذ هو إعصار القسوة وشياطين هذا الواقع ذو النتوءات الحادة والسامّة.

ولكن هل ستسقط بعد أن شرّعوا لها مهاوي السقوط كافة؟، بعد أن أينعت سنية أكثر هل ستزهر في فراش الثروة والجاه؟

الأمر الوحيد الذي تأكدت منه هو أنّ عملها في القصر أكسبها مهارات جديدة أهمها أنّها باتت قريبة من لجم هبلها وإطلاق سطوة جمالها وسطوعها ليس في القصر وحده فقط بل في داخلها هي بالتحديد.

***

في تلك الليلة وعقب يوم عمل شاق إنتهى بإعداد العشاء لسيد القصر تركتها أم علي على غير عادتها بعد أن طلبت منها إعادة ترتيب الطعام في الثلاجة وجلي الأواني والأطباق.

منهمكة على أتمّ الإرهاق في عملها الليلي للدرجة التي لم تشعر بها بوقع خطوات رجائي الثعلبية وهو يتسلل إلى المطبخ، دنا منها وأحاطها من الخلف على حين غرة مُطبقًا يديه بشدة على صدرها ورأسها، فانتفضتْ هي من هوْل المفاجأة ساعية في التحرر منه بصراخها المخنوق واندفاعها فكتم صراخها براحة يده الغليظة هامسًا بأذنها وهو ملتصق بها:

- شو يا حلوة.. أرى أن العمل أعجبك كثيرًا في المطبخ.. متى ستذهبين إلى مكتب شكيب؟

همهمتْ باختناقها المكتوم وإطباقه عليها، فأردف مُهددًا:

- سنية سأسبب لك فضيحة في كل البلد.. سأقول لهم إنك سارقة وقحبة تنامين مع عمال القصر، إسمعيني جيدًا لكي تُفتح لكِ أبواب السعادة.. ادخلي عليه في المكتب الليلة وتدلّلي وتدلعي أمامه.. إنه يريدك بشدة يا مجنونة.

ما إن اخترقتْ أذنها كلمته الأخيرة حتى مسّتها صاعقة غضب دفعته عنها بشدة إلى الخلف بصورة مباغتة أدتْ إلى تعثره وسقوطه على الأرض ككيس قذارة، لم تُمهله كثيرًا حتى قذفته بكل ما هو أمامها من أوانٍ وأطباق وكؤوس صارخة في وجهه بعصبية:

- مجنونة يا ابن الكلاب.. مجنونة يا أولاد الحرام يا خنازير.. مجنونة ولكنني لستُ قحبة يا ابن القحبة.

ثم هربتْ من أمامه، ركضت سنية الخدامة المجنونة، لم يأبه بها أحد، لم تكترث لأمرها أم علي، هربت، بلغت بوابة القصر الكبيرة لاهثة مرتجفة بحالة هستيرية عارمة، لم يعترضها الحارسان رغم دهشتها المذعورة والمرتجفة بل شرّعا لها طريق الخروج والنجاة، لم تقف لتنظر خلفها، بل ركضت بكل ما أوتيت من قوة مدفوعة بعجزها وضعفها ودناءة زمانها وانحطاطه.

سنية يا التي لستِ حرة ولكنك جائعة.. سنية يا التي تجوع ويا التي لن تأكل من ثدييها أبدًا.

تعدو سنية في ليل رام الله القارس، في الشوارع الخالية من المارة إثر يوم إنتفاضي حافل بالمواجهات، بلغتْ طاقتها القصوى لتحط متهالكة مقطوعة الأنفاس أمام باب بيتها، بيت صابر الذي وضعها وليمة سائغة على مائدة الرغبات الثرية.

طرقت الباب بلهاثها الصاخب في منتصف الليل، فتح صابر بثمالته وغيابه، بصقت في وجهه فلم يصحُ، شتمته فلم يبادلها الشتائم، دفعته بقوة من أمامها فوقع على الأرض عائدًا إلى حضيض حشيشته، ومضتْ إلى طفليْها اللذيْن استيقظا مفزوعيْن من صخب بيت البؤس.

في اليوم التالي استحمّتْ سنية، غمستْ خصلات شعرها بزيت الزيتون، دلكته، وشوشته، ثم ضفرته أم الضفيرتيْن وقصّته وهي تضحك ضحكة هستيرية مرتعشة مُرددة المثل المرير الفاضح:

« اللّي جوزها نذل ترخي السوالف ليش؟»

الفصل السادس:

ليس الحب المخذول في فجر جبل المكسور هو الذي جعلها تتفّتح جرحًا على عتبات المدينة، ولا انكسار جاهها في عز الحسب والنسب هو ما أدى إلى إدراكها لطفليها، لا وليس الهبل الذي تلبّسها عاصفًا بزهر لوزها هو الذي أزاح الحجاب عن غامض أيامها الرهيبة مع زوجها صابر، بل مباغتة الواقع لها، لتكتشف في لحظة الألم أنّها امرأة زاهية وفاتنة تدحرجت فوق حياة ليست لها، داخل واقع كاد يزفها للفضيحة والحرام على مرأى زوجها، ليفضحها ذلك الواقع بنيرانه، لتستوي سنية جرحًا لا يبزغ منه هبلها بل حاجتها إلى النهوض والتطلع نحو حياة أفضل وأسمى لها ولطفليها التي تعيد اكتشافهما بعد انكفائها داخل غرفة ضيقة تحشر نفسها بها بعيدًا عن لؤم القصر وعبيد القصر.

في البيت تنزوي سنية بلا حاكورة ولا أشجار لتزرع في قلبها أمومة قد تنمو لتمتد فيئًا حانيًا على طفليها المحترقين بقيظ أبيهما، فهل زال هبلها حقًّا بزوال ضفيرتيْها وهيئتها الجديدة ذات الجمال المستبد بجسد غض يصعق بحرارةٍ واكتنازٍ لفتاة في مطلع العشرينيات من عمرها المنهوك؟

في البيت..

لا يصحو صابر وإن فعل فإنه لا يجرؤ على التقاء عينيه بعينيْها النجلاويْن، فهي ألقت القبض عليه مُتلبسًا بنواياه الدنيئة منذ اللحظة التي أركبها بها إلى جانب رجائي في سيارة القصر، تبعثر أمامها صابر الذي لم يكن قادرًا على التخلص من تلك الرهبة التي لطالما انتابته عندما كانت تحدجه سنية بعينيْها السرمديتيْن، منذ أن تزوجها كان يشعر أنَّ ثمة ذكاءً مُتقدًا يستتر خلف سدائل هبلها، إذ تتطاول عليه في تلك اللحظات النادرة التي كانت تصحو بها من هبلها، ليرتد مكسورًا أمام هيبة حضورها الساطع أمامه لتسخر منه وتجرحه وتشتمه، فلم يجد مفرًا سوى الاختباء في غمام حشيشته فارًا من نظرات زوجته التي كانت تصرخ كم أنت خنزير ونذل يا زوجي العزيز.

وأما إثر عودتها اللاهثة من قصر العز ودهاليز لذته السرية التي كانت على وشك الدخول إليها، لم تتصور حجم المضايقات التي سيُسببها لها رجائي نعم رجائي الذي قذفته بأفظع العبارات والشتائم وأسالت دمه في مطبخ القصر، رجائي الذي وقف أمام بيتها في الرام بعد ثلاثة أيام من هربها من مصيدته الدنيئة، وقف منتصبًا في وسط الحارة مُطلاً على بيتها الواقع في الدور الأرضي ليلعنها ويشتمها ويقذفها على مرأى الناس والانتفاضة وربّ الناس، سمعته خافت أغلقتْ نوافذها هرعتْ نحو طفليْها حضنتهما بشدة في زاوية الغرفة على مرأى زوجها الغائب المنتشي لعلّه يسقط فجأة إلى واقعها المؤلم الذي يرتع فيه رجائي بالإساءات إليها ولشرفها وكرامتها، سدّتْ أذنيها سنية، لم تعد تسمعه بل سمعت دقات قلبها الصاخبة، ما الذي يريده رجائي الذي وقف خطيبًا بذيئًا وسط حشد من أهل الحارة مُدّعيًا الشرف وأنَّ امرأة صابر تريد تشويه سمعته وكادت

تراوده عن نفسه عندما حاول سترها بتأمين عمل شريف لها في إحدى بيوت رام الله قُهرتْ سنية اعتصرتْ طفليْها خبأتْ رأسها الناقصة ضفيرتيْن بجسدي سليم وفاطمة مرتجفة كانت لا خوفًا بل اختصارًا من لؤم زمانها وقذارة هذا القدر الذي يأبى نصرها ومناصرتها، لم تكن لتخشى من مضايقات رجائي بل كانت تخشى من ألسنة الناس الحادة التي لن تدخر شرًا في افتراسها ولوْكها وهضمها فمن هي؟

هي مجرد فتاة مجذوبة كما يقولون، فتاة بطفليْن يتمرّغان بطين الحارة وقذارتها وزوج حشاش «مسطول»، وهذا ما كان ينقصها ينقص سنية أن تستمر لعنات العالم باللهاث والهرولة على كيانها التوّاق للتحرر ورجائي يشتم ترتجف وصابر يغيب في الحشيش، إلى أن هبّتْ هي فجأة لتسكب على زوجها المسطول سطلاً من الماء البارد قائلة له بغضب:

- صاحبك الكلب منذ الصباح وهو واقف باب بيتنا يشتمنا ويهددنا قم إليه وخلصنا من الفضيحة.

تلبّسته بلاهة مجحفة بحق الموقف وطبيعته المعيبة محتارًا ما بين أخذ سنية بثياب نومها بعنفه المعتاد أم المضي نحو رجائي مدفوعًا بيقظته المباغتة ليفرغ غضبه في لكم صديقه العتيق، ثم انتفض فجأة كما لو أنه لم يكن قبل لحظات غائبًا محلقًا في فضاء الحشيشة، انتصبَ واقفًا وصفعها صفعة حادّة أطاحت بها من أمامه دون أن يعقب بكلمة على صرختها المفجعة، جفّفَ الماء عن وجهه ورأسه ثم هرع نحو صاحبه في سعي منه نحو إسكاته والاعتذار إليه لأن زوجته الهبلة اعتدت عليه وقف أمامه وسط حشد المتطفلين والفضولييْن رمقه بنظرات قاسية يعرفها رجائي جيدًا، بطبيعة الحال والعشرة القديمة يعرف وحشية صابر الذي كان بمثابة الثور الهائج عندما يخرج عن طوْره، قال له صابر ساعيًا في معانقته: أدخل يا رجائي معي إلى البيت وكل شيء سيسير كما تريد.

حاول رجائي المقاومة مدفوعًا بأخذه لألباب الحشد:

- أنا الحق عليْ يا صابر.. مرتك مش بنت ناس.. انظر ماذا فعلت بي؟

كانت الضمادات التي يلفّ بها رأسه مبالغ بها ولا تثبت إدعاءه الباطل سوى لسنية التي ما إن رأته من ثقب باب غرفتها الموصد جيدًا عندما دخل ملبيًا رغبة صابر حتى انفجرت بالضحك قائلة بسخرية من وراء الباب وهي تُصفق بيديها كأنها عادت لتوها إلى هبلها الذي كانت تحبذه في لحظات كهذه:

- منذ متى تحجبت يا رجائي؟ شو هالحجاب الحلو اللي على راسك يا رجائي؟ الله يستر عليك يا أختي!

فثارت ثائرته لا من سخريتها فحسب بل من ضحكة صابر الخافتة المتعاطفة مع هبل زوجته، فهدّأه قائلاً:

- وَلَك يا رجائي ألم أقل لك أن بها عِرق هبل؟ لماذا فعلت هكذا فضحتنا على مسمع ومرأى أهل الرام؟! الله يسامحك يازلمة.

- ما فعلته زوجتك يا صابر لا يُغتفر.. أقسم بشرفي أنها ستدفع الثمن غاليًا.

لم تكن سنية لتخشاه أو تغتاظ من تهديداته بل كانت تُجن وتُخذل من تواطؤ زوجها البائس معه، من عدم احتجاجه على تهديدها وكيْل الشتائم إليها أمامه فصرخت من وراء الباب بجزع:

- ولك دافع عني يا صابر الخنزير.. دافع عن أم أولادك.. هل تخاف منه؟

فاغتاظ صابر من خدشها لحضوره أمام صاحبه هائجًا كعاصفة رملية اندفع نحو باب الغرفة الذي ما لبث أن تهالك أمام ضرباته العنيفة لينتزعها على حين غرة من وراء طفليْها المفزوعيْن الباكييْن منهالًا عليها باللطم واللكم، ثم قبض على شعرها القصير المبعثر وجرها إلى منتصف صالة البيت بثوب نومها الممزق وانبثاق عريها الصارخ منه على مرأى صديقه رجائي الذي التمعتْ عيناه بالرغبة حين رآها تتململ أسفل قدميه بركلات ولكمات صابر، أغراه أنينها المكتوم كما أغاظه خفوتها المفاجئ أمامه، لم تكن لتبكي لتصرخ لتتوسل صابر التوقف عن ضربها أمام صاحبه، كان يضربها بشدة لاهثًا صارخًا وهي مستسلمة إليه، لا بل أخذتْ تضحك فجأة بهستيرية وهي تنظر إليه ولرجائي الذي تراجع إلى الوراء عندما اكتشف أنها مجنونة حقًا، إلى أن تهالك صابر أرضًا مرهقًا من نوبة غضبه ومصارعته لزوجته التي زحفت بدورها بدمائها وتمزقها وعريها. بأنينها المكتوم زحفتْ نحو غرفة طفليْها سليم وفاطمة مُوصدة الباب خلفها بإحكام.

فرك صابر وجهه من نوبة سخطه ثم قال لصديقه رجائي بصوته الأجش اللاهث:

- هل رأيت؟! ألم أقل لك أنها مجنونة.. مجنونة يا رجائي فهل أخذت حقك الآن؟

رمقه رجائي بصمت ثم أشعل سيجارة ومرّرها لصابر مواسيًا بخفوت:

- أنتَ تعاني يا صاحبي.. ولكن لا عليك إذا عادت إلى عقلها سأعيدها إلى العمل.

أفصح رجائي بمواساته مخفيًا في طياتها رغبته التي انفجرت وعَوَتْ حين رأى سنية تتخبط بجسدها الصارخ بالفتنة والجمال أسفل قدميْ

صابر، إذ علقتْ في دمه واحتلته بجنونها وضحكاتها وأنينها المكتوم وكل بياضها المنفلت من لكمات صابر، طريدته باتت ولن يرتاح إلاّ بالإيقاع بها وافتراسها. قال له صابر بعد أن هدأتْ السيجارة من روعه:

- لا أعتقد أنها ستعود إلى العمل.. إنها عنيدة.. المهم الآن أن تؤمن لي أنا عمل.. أي عمل يا رجائي.

أجابه ساخرًا:

- أي عمل يا صاحبي؟! أنت انتهكتك الحشيشة.. ارحم نفسك يازلمة.. الأوضاع صعبة والانتفاضة مشتعلة.

قال له صابر مُتذللاً:

- أنا أعلم ولكن كما ترى البيت لا يوجد به طعام ولا شيء..

قاطعه متهكمًا:

- ولا يوجد حشيشة أيضًا.

أردف صابر كأنه لم يسمعه: يجب أن أعود للعمل يا رجائي دبّرها.

فقال له رجائي بخبث وصوت صارم وهو يغادر البيت مختالًا بعد أن أزال ضمادات الخديعة عن رأسه:

- سأدبرها يا صابر ولكن قل لسنية أن تعود إلى رشدها فأنا بحاجة إليها.

أدرك صابر الكلمات ومرامي صديقه العتيق، فهو رجل والرجل يعرف ذلك الوميض المخيف الممتلئ بالرغبة في عينيْ صديقه، رأى انعكاس عُريْ سنية في عيني رجائي الجاحظتيْن دون أن يقوى على فعل شيء،

فهو منذ البداية ألقى بها في مهاوي مصيرها الأسود، بلا أدنى احتجاج أو حرارة تشي بشرف أو غيرة عليها، فما كان يهتم به صابر فقط هو تأمين رغباته وحاجاته التي لا تؤدي إلاّ لبقائه منتشيًا بسعادة مزيفة وواقع خيالي مصطنع لا يؤدي إلاّ إلى حقيقة واحدة هي ملاذه الأبهى والأجمل هي سنية وسرير سنية.

نعم، سنية التي تكومت في زاوية البيت بلحمها ودمها على أتمّ الخيبة والانكسار والجراح، حاول سليم أن يمسح دماءها بطرف ثوبه فدفعته عنها بحدة ونفور، فوقع على الأرض باكيًا صارخًا في نشيج انضمتْ إليه فاطمة، غائبة كانت سنية بلا بكاء وعويل، في التحديق بسقف الغرفة الإسمنتي، تحدق في نقطة عمياء. في أعماقها تتوغل باحثة عن حافة هاوية تقفز بها نحو قاعها، نحو الموت والسكون إثر الذي تعرضت إليه لتوها، إذ تلمُّ فتات كرامتها وتنثره عليها فلا تسكن، تعاودها لحظات العنف والشتم على مرأى رجائي فتختنق، فما أقساهُ من رجل يُهين زوجته ويضربها في حضرة القذارة والدناءة! أن يهتك سترها بالفضيحة، أن يحتلها بأنفاسه الكريهة، صابر الذي أمسى حلمه الأوحد أن يصبح قوادًا بعد اكتشافه لثروة جسدها وعودة عقلها إلى رأسها، فما فائدة العقل يا سنية في البيت المجنون والمصير المُختل؟ هكذا تسأل نفسها وتصهر عقلًا جديدًا لها من حمم جرحها، تصهر عقلًا وتشكله من أسئلتها وحاجتها للانعتاق من كل شيء، من صابر وهبلها وسليم وفاطمة والرام ورجائي.

وما أن حلّقت بالمنطق الجديد نحو مصيرها القادم حتى اقتحمها صابر المنتشي بما منحه إياه رجائي من حشيشة قوية، قوية للدرجة التي أخذها في أجوائها صابر إلى أعلى قهقهات الخشونة والعنف، وهي سنية التي لم تعد تملك سوى الأنين وهتك الجسد فوق الجسد والمزيد من الصبر،

والأهم من ذلك هو إيمانها العميق بأن هذه هي المرة الأخيرة التي يمسّها بها صابر، فهي قد أقسمت وأغلظت الإيمان مقسمة برشدها المصهور الملتهب عقلاً ومنطق أن صابر البشيري لن يطأها مرة أخرى أبدً أبدًا أبدًا.

***

وسنية التي تحت وطأة عثرة جديدة ترزح، تنتكس هذه المرة وهي تُصر على الإجهاض، إذ لا تريد منه علقة أخرى في رحمها، لا تريد لدمائه أن تمتزج بدمائها. تُجن سنية عندما تكتشف أنها باتت حبلى مرة أخرى ببذرة صابر، بأسى تسعى جاهدة إلى التخلص مما ينمو في أحشائها بشرًا، ألا يكفيها سليم وفاطمة؟ ألا يكفيها أنها لم تشعر بأمومتها تجاههما يومًا؟ تنزف سنية ولكنها لا تجهض، تقفز عن سريرها، تقع على الأرض بقسوة، تعمل بشدة داخل البيت، يُصيبها الإرهاق والوهن غير أن ما ينمو في رحمها متشبث بها وبالحياة القادمة، لتستسلم بالنهاية لهذا القدر الذي سيولد بعد قليل لتلقي به إلى جانب سليم وفاطمة، ولتقذفه أيضًا في وجه صابر، الذي عاد إلى مزاولة العمل بصورة متقطعة بما يوفره له رجائي من فرص عمل هنا وهناك، بعد أن فشل صابر بإقناع سنية بالعودة إلى العمل يائسًا من محاولاته الحثيثة خاصة عندما رأى بطنها منتفخًا كمصيبة حلّت عليه: من أين تحبلي يا مجنونة؟ من أين أجلب الطعام لأرانبك؟

فتجيبه بتهكم: - أنت لا تعرف نفسك فكيف ستعرف أرانبك؟!

- اخرسي.

فتخرس منسحبة من أمامه، مُفضلة الاستسلام لهذا الواقع، بيد أنّه استسلام مؤقت، فهي لم تعد سنية الهبلة المهبولة، لا، أبدًا حيث عادت إلى الصواب، إلى منطق الشجرة التي تنحني أمام العاصفة ولكنها لا تنكسر،

نعم، يُزهر عقل سنية بنوّارها السراتي، وبصمتٍ دؤوب تنمو وينمو الجنين في داخلها وهي تراقب دناءة زوجها وعودته المخبولة من عمله برفقة رجائي الذي ما إن كان يدخل إلى بيتها حتى تحبس هي نفسها داخل غرفتها موصدة الباب بمزاليج الخشبية، والهرب من عينيْه البذيئتيْن، لا لم يتركها رجائي بحال سبيلها، إذ كان يلقي الكلام على عتبة غرفتها إثر حفلة خمر يثمل فيها صابر حتى يبول على نفسه، ذلك الكلام المُحمّل بأكبر قدر ممكن من الرغبة الهادفة إلى استدراجها إلى فخّه، ولكنها لم تكن لتسمعه هاربة منه نحو التلفاز، صديقها الأوحد في حياتها الإسمنتية الصابرية.

في سرها كانت تعي أنّ رجائي لن يرحمها من اشتداد رغبته بها، ولن يتركها بحال سبيلها، وما جعلها تستغرب أكثر من حدّة منطقها الجديد هو سرورها اللذيذ الخفي بتطلع رجائي إليها بكلامه وعشقه المتأجج لأخذها وإحرازها نصرًا ذكوريًا في عز الانتفاضة، مما دفعها إلى الاهتمام بكيانها المترف بالجمال، بأنانية ما شرعت باحتلالها، وهذا ما كان يلهيها ويُبعدها عن طفليْها، وهذا أيضًا ما تصفه سنية الآن بالأنانية أو حب الحياة أو التناقض الحاد ما بين الخوف والجرأة.. الرضوخ والتحدي، فهي لم تزل ابنة عين المرجة، ابنة الربيع. فلماذا يقسو عليها الزمان بزوج مخبول وطفليْن لا يَخمد نشيجهما بالإضافة إلى ثالث سيولد بعد قليل.

ففي عنايتها البسيطة والمتأفّفة لشؤون البيت، لم تكن سنية لتأخذ بلسان سليم نحو مقدمات الكلام، سليم ابن الخامسة الذي كان يسعى للفظ أبيه وأمه وشتم أولاد الحارة كما كانوا يشتمونه، لم تكن لتسرّح شعر فاطمة، فاطمة التي توارثت هبل أمها، فاطمة المسروقة المنزوية أسفل سرير أمها باحثة عن دمية لطالما وعدتها بها سنية وبانها ستقدمها لها، لتغدو أم سليم دمية يلعب بها الزمان كما يشاء ويبعثرها.

من غرفتها التي أحالتها إلى زنزانة تحبس بها نفسها، كانت تسترق السمع في بعض الأحيان بفضول وخوف ودهشة إلى أحاديث زوجها وصديقه رجائي، الليلية حين كانا يعودان معًا مخمورَيْن ليكملا حفل الثمالة في بيتها وعلى باب غرفتها، بعد أن نجح صابر في العودة إلى ما يقوى عليه من عمله القديم الذي يسانده به رجائي ألا وهو السرقة والنصب، ليوفر في ذلك الحد الأدنى من متطلبات زوجته الحبلى وطفليْها، مُحملاً في نفس الوقت سنية المسؤولية التامة عن رداءة أحواله وفقره وعجزه، فلو أنها وضعت عقلها في رأسها كما كان يقول لتغيرت أحوالهما نحو الأفضل، ولكنها آثرتْ الإصغاء إلى صخب جنونها والعزلة على أن تتواطأ مع دناءة صابر ورجائي، لتلعن هي صابر وماله الحرام، لتقوى في غرفتها الصغيرة على مواجهة نفسها وكنس ما تبقى في أرجائها من أثر الهبل، لتتوغل أكثر في أعماق جرحها لتكويه سعيًا منها وراء النضوج والجرأة في تحدي الواقع، هذا ما كانت تطمح إليه التطلع نحو الانعتاق من نير صابر واستبداده. أدركت مرة واحدة أنها لم تُخلق له، وليست مختزلة به وبضربه لها وخضوعها لأنفاسه الكريهة، في انزوائها الذي حبّذته على تهتك زوجها وثمالته، كانت تنتظر بلهفة اللحظة التي ستلد ما يتنفس بها في أحشائها حتى تقوى على الانطلاق في واقع لن يكسرها هذه المرة بعد أن استطاعت الولوج إلى دهاليز عقلها السرية، لتصافح الرشد سنية والمنطق منطق الحياة التي لا ولن ترحمها إذا ما بقيت مستسلمة لاستبداد صابر ومحددات بيته البائسة، لا يعلو فوق صوت أناها، هكذا تقول سنية وهي تتشوّف متوغلة في أعماق المرأة المنعكسة في مرآة الغرفة، هي فقط ستكون سيدة نفسها، لا لن يمسّها مجددًا صابر ولن تتهالك أبدًا على عتبة رجائي الخاطئة، بل ستُنجب بعد قليل حياة أخرى إلى جانب تحررها القادم وانبثاقها شجرة لوز، ولكن هذه المرة كما تشاء هي.

في ليالي الصخب والحشيشة كانت تستمع إليهما سنية، إلى الضحك الفاحش والأحاديث الخليعة ونهشهما لأعراض الناس ولأحداث الانتفاضة، حيث كان رجائي يتعمّد رفع وتيرة صوته بالكلام لكي تسمعه ساعيًا إلى التأثير عليها أنه ذو سلطة ونفوذ ما بين أصدقائه من شباب الانتفاضة بتهديد خفي منه وأنه قادر على فعل ما يشاء ولن يمنعه عنها أحد ولا حتى زوجها المخمور السعيد بما يوفره له رجائي من فُتات النشوة والغياب عن واقعه البائس:

- والله يا أبو سليم شباب الانتفاضة لا يقصرون بشيء.. بالأمس قاموا بالإيقاع بأحد العملاء وجرّوه من أجل التحقيق معه، الأحمق قال لهم إنه ليس متعاونًا بل يعمل بالسر في إسرائيل وأن ضابط الشاباك طلب منه مقابل تسهيل عمله هناك تقديم معلومات عن شباب الانتفاضة ولكن الشاب رفض.. لم يصدقوه.. المسكين مات من شدة التعذيب.

فيعقبّ صابر متهكمًا بلسان مُثقل بالخمر:

- أنا أعمل «بإسرائيل» ولكنها لا تعمل بي.. أبي كان خائنًا باع جبل بأكمله لليهود.. أما أنا فلستُ خائنًا يا صاحبي بل مجرد رجل يحب الحياة.. وَلَكْ يا رجائي مش يعرفوا عني إشي؟! أنت تعلم أنني أعمل لتأمين حاجة بيتي فقط ولا أتعاون مع أحد سواك.

ثم يطلق ضحكة عصبية في وجه رجائي ما يلبث هذا الأخير أن يندمج بها بتهتك وإبتذال، ثم يأخذ في غناء ودندنة أغانٍ بذيئة على باب سنية.

ذات ليلة احتدم فيها سُكره بعد غياب صابر في سبات عميق متأثرًا من

شدة الحشيشة وقف رجائي على باب سنية، تتطاير الرغبة شررًا من عينيه، طرق الباب بخفوت في البداية مُدعيًا القلق والخشية: يا سنية اخرجي شوفي صابر شكله مات.

ضحك بخفوت في أجواء الصمت وتجاهل سنية لندائه ثم تحولت نبرة صوته إلى همسٍ مُتوسّل مُفخخ بالرغبة والخسّة:

- سنية افتحي أريد أن أتحدث معك.. أنا آسف على كل شيء.. أنا ظلمتك معي.

فأجابته من وراء الباب مُدعية قهر خوفها بضحكة مجنونة:

- يا حبيبي..! هل تريد أن تتأسف لي في سرير صابر يا رجائي؟ بتفكر حالك رشدي أباظة يا ابن هند رستم؟!

نجحت باستفزازه فثارت ثائرته، فطرق الباب ساخطًا بكل ما أوتي من عنف بيديه وقدميه:

- أنتِ تريدنني ولكنك خائفة يا قحبة.. أقسم بشرفي أنك ستندمين على هذه اللحظات وأنك ستصرخين باسمي وأنتِ أسفلي يا سافلة.

ردت عليه بصوتها المخنوق من غُصّة الألم والضعف:

- بتهددني بجماعتك يا كلب؟ هل تعتقد أنني خائفة منك ومنهم؟ هل لا يوجد شرفاء غيركم يا أبو شرف معفّن؟

انسحب من أمام بابها المنيع دون أن يُعقب لاهثًا منكسرًا أمام قلعتها الحصينة الصامدة في وجه هجماته الغادرة التي لم تمسها قذارته حتى الآن.

تخنقها الغصّة، تقودها إلى نشيج آخر الليل متحدة ببكاء طفليْها المفزوعيْن من هجوم مباغت كاد يوقع بأمومتها نحو هاوية الرجس والاغتصاب، تبكي بحرقة سنية، تبكي رغم سعيها الجاد نحو ترميم خرابها، خرابٌ تسعى إلى إزالته من داخلها بالأحرى وبناء قلاع وأسوار حصينة تحميها من هجمات مصيرها وزمانها الرهيبيْن، في ظل اقتناعها في ليالي الخوف والبؤس أنَّ رجائي لن يستسلم أمام تمنّعها، بل سيظل يحاول منقضًا على ضعفها لعلّه يغتنمها في ليلة من ليالي زوجها الذليل الخانع لرغباته وسطوة رجائي عليه، إذ لم يكن صابر ليحتج أو يتنافخ شرفًا وغيرة أو ليطرد رجائي، فقد كان في بعض الأحيان الثملة يراهنه على الإيقاع بسنية في تواطؤ سرّي لم يُصرّح به بل عرّض به تعريضًا.

***

وبطنها تكبر وأيام سنية تكبر والحياة كل الحياة في عينيْها تصغر، فلا جديد في واقعها المعيش يرزخ أسفل عبث صابر ومآل لياليه المجنونة المزدحمة بالخمر والحشيشة وأحاديث البذاءة الليلية برفقة رجائي.

في تلك الليلة مدفوعة بفضولها كانت تستمع إليهما من وراء الباب، كان ينقصها فقط أن تفتح الباب وتشاركهما سمر الليل وجهًا لوجه، كانا يتجاذبان أطراف حديث لم تعِ منه الكثير:

- الناس فقدوا عقولهم يا صابر.. يقولون إنّهم قد لمحوا صورة صدام حسين على وجه القمر.. هل تصدق ذلك؟

رد عليه صابر بصوت حرقه حميم كأس العرق: أنا أصدق أي شيء.. أي شيء تريده يا رجائي أنا أصدقه.

اغتاظ رجائي قائلًا: أقسم بشرفي يا أبو سليم أنني بالأمس حدقت

بالقمر مليًا ولكنني لم أرَ سوى بياض فضي.. لا أقل ولا أكثر.. والله إنَّ الناس في بلادنا مساكين يا رجل يصدقوا أي شيء.. حتى المرأة في بلادنا تدعي الجنون لتصبح مجنونة.

فأجابته سنية من وراء الباب بشتيمة حادة إثر تلميحه الوقح عليها: مجنونة مثل أمك يا ابن المجنونة!

ضحك ضحكة فاحشة ثم قال صابر: أقسم يا صابر إن زوجتك مجنونة حقًّا!

أجابه صابر بضيق:

- دعك منها يا رجل وقل لي هل فعلًا سيضرب صدام «إسرائيل» في حال شنّتْ أمريكا الحرب عليه؟ الناس خائفة.. انظر كيف يحكمون إغلاق أبواب ونوافذ منازلهم بالأكياس البلاستيكية والشرائط اللاصقة.. معقول صدام سيضرب إسرائيل بالسلاح الكيماوي؟

- اليهود قاموا بتوزيع كمّامات ومضادات للأسلحة الكيماوية.. كل اليهود عندهم تحصينات ونحن يا حسرة لا نعلم أين سنختبئ من الكيماوي.. وَلَك يا صابر شو رأيك نتاجر بالشرائط فسعرها ارتفع بعد تزايد الطلب عليها؟

أطرق صابر للحظات متخيلًا المشهد ثم قال بسخرية: نبيع البلاستيك والشرائط اللاصقة ثم بعد ذلك نموت موتًا سريعًا خاطفًا أحسن من هذه الحياة المقرفة.

أتاهما صوت سنية كالمنبعث من بئر:

- آمين إن شاء الله الصاروخ يصيب رأسك يا رجائي أنت وصابر في يوم واحد.

ثم قهقهات وضحكات في آخر الليل وزوال القمر.

في تلك الأيام المُعدَة من برد قارس وحرب الخليج التي سادت في أجوائها المرعبة فرحة الناس المُترقبين بلهفة صواريخ صدام المنطلقة من بغداد لتهوي على تل أبيب، جاءها المخاض أثناء متابعتها لأخبار وتفاصيل الحرب من خلال نشرة أخبار المساء التي يبثها تلفزيون «إسرائيل»، في الوقت الذي كان صابر جالسًا كعادته برفقة رجائي في صالة البيت إذ يتناقشان ويتداولان آخر أحداث الحرب وإشاعاتها، تحايلت سنية على الآلام رافضة هذا الوقت لولادة طفلها الثالث، فالوقت وقت حرب والأجواء مُلبّدة بالمزيد من الصواريخ والأحداث، لا تريد أن تلد طفلها الآن في صقيع الشتاء وضحكات صابر ورجائي الخليعة، ولكن الحياة لن تتأجل لحين زوال مخاوف سنية إلى موعد آخر، الحياة لن تنتظر مستسلمة لخوف سنية وخشيتها من الخروج من غرفتها، لن تتأخر في سبيل كبرياء سنية المتمثل برفضها التوسّل لصابر وصديقه لأخذها إلى مستشفى رام الله لكي تلد، ولكنها بالنهاية صرخت ونادت وتوسلت: - صابر إلحقني مشان الله.. إلحقني رح أولد.

أجابها مختالًا بثمالته: - أُولدي يا حبيبتي.. هل آتي لأولّدك؟!

- الله يخزيك.. إلحقوني مشان الله.

ثم خرجت مندفعة بألمها من غرفتها بموكب من طفليْها اللذيْن لم يحترفا سوى النواح برفقتها، فانتفض صابر مدركًا جدية الأمر فقال لها ساخطًا: الآن يا سنية.. الآن وضرب الصواريخ شغّال؟! الآن ستولدي الله يلعنك ويلعن ذريتك معك؟!

أخذ رجائي زمام المبادرة الانتهازية مستغلًا ضعف سنية وآلامها وثمالة زوجها قائلًا بجدية طردت عنه الخمر واللهو:

- هيا.. تعالوا سأقلّكم إلى المستشفى فسيارة المعلم معي.

بسهولة ويسر أنجبته سنية في المستشفى بعد أن اعتادت في السابق على أدعية وبسملة القابلة أم محمود عندما أنجبت على يديها سليم وفاطمة في عين المرجة.

لم تسمح لصابر أن يُسمّيه، إذ منحته اسمًا كما تشاء هي التي سعت جاهدة إلى التخلص منه عندما كان مضغة لحمية صغيرة في أحشائها، هي التي كرهته قبل أن يولد لأنه عرقلها ومنعها عن تحدي مصيرها وهجمات زوجها وصاحبه الخسيس، ها هي تغمره الآن في حضنها وتلقّمه ثديها بحليب الأمومة وتُسمّيه «مجير» لعلّه يُجيرها ويحميها من مصائب الدهر وويلاته.

***

ومن يجيرها سواه؟ هي التي أنجبتْ لتوها ما كان يُعيقها ويقف في وجه تطلعاتها للانعتاق من صابر، والانبثاق كما تشاء سامقة لا تداعبها سوى نسائم النقاء والعلو لتتجاوز واقع البؤس الذي أخذ صابر يدرك فيه أن زوجته نضجت وازدادتْ عقلًا وجمالًا، ما دعاه إلى العودة إلى أسلوبه المخادع في التعامل معها الرامي نحو استدراجها للعمل مجددًا، خاصة بعد أن رفض وليدها مجير حليب صدرها بعد شهر الرضاع الأول، إذ كانت عندما تُلقّمه ثديها في لحظات جوعه وصراخه كان يقذف حليبها من فمه كأنه الحميم ليبدأ مشوار نموه بالحليب الاصطناعي، مما أراحها وجعلها تتجهّز للمرحلة القادمة، المرحلة التي تسود بها على مصيرها إثر تقهقر سطوة

صابر عليها ورفضها المستمر لوطئها وتهربها منه مُغلقة على نفسها زنزانتها التي طالما وقف هو على بابها بانكسار الذليل المتسول:

- سنية قولي لي ماذا تريدين وأنا أجلبه لك؟ انظري إلى حالي لقد تعبت وصحتي متعثرة لماذا لا تعودين إلى العمل؟

وهي وراء الباب في سريرها كانت يحيط بها ثلاثة أطفالها مبتسمة بشماتة. بكبريائها الجديد الساطعة، ثم نهضت وشرّعتْ الباب على مصراعيه هذه المرة منتصبة أمامه بشموخ جمالها وهيبة شخصيتها التي صهرتها من البؤس والقهر:

- نعم يا صابر.. سأعمل.. ولكن لن أعمل كما تشاء أنت وصاحبك الكلب رجائي.. سأعمل وسأصرف على البيت.. وأنت اجلس هنا مثل الملك ولا تتدخل.

قال لها بخنوع مستغربًا:

- حسنًا.. ولكن أين ستعملين؟ الأوضاع صعبة.. رجائي يستطيع أن يدبر لك عملًا آخر آمنًا ومريحًا...

قاطعته بسخط:

- الله يلعنك ويلعن رجائي.. أنا أعرف ماذا تريد.. تريد أن أصبح قحبة في سرير صاحبك يا خنزير!

- عيب يا سنية هذا الكلام.

- بل أنت العيب كله يا صابر!

أمعن في خضوعه لها قائلًا بخفوت: وماذا ستعملين؟

أجابته بضحكة فاحشة متعمدة: دكتورة يا سيد الزلام.

بعد ثلاثة أشهر من إنجابها لمجير، عادت سنية إلى سيرة الخادمة العاملة الساعية في الكدح في سبيل التغلب على واقع الفقر وانحطاطه. قبّلت أطفالها في ذلك الصباح مؤصية سليم وفاطمة تحديدًا ابنة الثلاثة أعوام بأسلوب لا يخلو من حزمٍ يُخلُّ بطبيعة العلاقة ما بين أم وطفلتها الصغيرة التي لا تستطيع الاعتناء بنفسها فكيف ستعتني بأخيها الذي سئم حليب أمه؟ وأي قلبٍ هذا الذي يُخلّف وراءه طفلًا رضيعًا ويمضي إلى تلبية طموح صاحبته؟ هكذا سألت نفسها سنية وهي تمضي في الصباح عندما كان صابر غارقًا في نومه الصاخب بشخيره الخنزيري.

غادرت سنية حارات الرام وطرقاتها ولكن إلى أين؟ برباطة الجأش التي طالما تدربت عليها في غرفتها المغلقة، إلى أين ومنذ اللحظة الأولى لانطلاقتها وتجولها وحيدة في ميادين وشوارع رام الله تضطرب على وشك الذعر والعودة إلى البيت.. لا إلى أرضه؟

بيْد أنها في لحظات معدودة وحاسمة تغلّبتْ على الخوف لتجرفها أمواج الحاجة والعجز نحو مكان عملها الأول داخل القصر الكبير في حي الماسيون، ذلك القصر الذي كانت فيه على وشك الفضيحة، لا لتعمل ذهبت إلى هناك بل للقاء أم علي التي طالما اطمأنت لها سنية أثناء عملها في القصر الكبير، إذ دخلت بحذر بعد أن تأكدت من انصراف رجائي برفقة سيده إلى الشركة، لتلتقي بأم علي وترتمي في حضنها باكية مُفصحة عمّا ألمّ بها من معاناة ومذلة في بيت زوجها. توسلت سنية أم علي بمساعدتها في تأمين عمل شريف لها ولكن ليس بهذا القصر الملعون. عطفت أم علي الطباخة عليها وأرشدتها إلى قريبة لها تقطن في القدس داخل أسوار البلدة القديمة:

- إنها امرأة محترمة.. قولي لها إنك من طرفي وهي ستعتني بك وتوفر لك عملًا مناسبًا وجيدًا.. الله معك يا بنتي.

إلى القدس..

هكذا تباغتها المصائر والدروب، إذ ليست هي التي ترتاد الدرب بل الدرب ترتادها بكل ثقلها ورؤادها ووقائعها.

إلى القدس تمضي سنية، إلى امرأة تغلبتْ على الفقر والعجز بعملها وتضحيتها في سبيل أسرتها، إلى «أم حسين» التي أجبرها شلل زوجها على العمل في سبيل تأمين خبز أطفالها وما يكفل لهم الحياة الكريمة، لكي يحط بها المطاف أخيرًا في العمل وكيلة عُمال، حيث كانت توفر فرص عمل للنساء على وجه الخصوص داخل القدس «وإسرائيل» على أن تحوز نسبة معينة من الأجر.

إليها تمضي سنية، إلى القدس المدينة الحق التي تدخلها لأول مرة في حياتها، القدس التي ما إن حطّتْ بها سنية حتى تعثرت واضطربت من اكتظاظها وعظمتها، تتعثر، ترتعد، تسأل الناس من حولها عن الطريق المؤدي إلى العنوان الذي تحمله ورقة مُجعلكة بيديها المُرتجفتيْن، إلى أن بلغت أعماق البلدة القديمة حيث البيت الحجري الذي يأوي أم حسين وأسرتها.

في منتصف ظهيرة القدس تصلها سنية لترى أمامها امرأة خمسينية تكسوها ملامح الهيبة وما يشي بالطُهر المنبعث في حجاب أبيض ووجه دائري ممتلئ بالورع والأمومة. منذ النظرة الأولى ارتاحت لها سنية كأنها وجدت بها ضالتها، بدورها لم تستغرب أم حسين الزيارة، فهي معتادة على استقبال الذين هم بحاجة إلى عمل، ولكنها استغربت من طلّة سنية الآسرة

وجمالها الساطع المجافي لهشاشتها وضعفها اللذين فضحاها أمام المرأة المقدسية:

- أنا من طرف قريبتك أم علي، مشان الله يا خالتي أم حسين أريد أن أعمل في مهنة شريفة.

أجابتها أم حسين بصوتها الدافئ: على مهلك يا بنتي.. إن شاء الله سيتوفر لك عمل.

عطفتْ عليها برأفة صادقة وبدرايتها الواسعة بواقع البؤس الذي جاءت منه سنية فلن تردها خائبة بل ستوفر لها عملًا، وهذا ما فعلته بعد أن شرحت لها طبيعة الأعمال والأشغال في القدس، وما هي المجاملات التي تستطيع أن تتكسّب من خلالها، خاصة بعد أن علمت من سنية أنها لا تمتلك أدنى مهارات قد تؤهلها إلى عمل مريح سوى خبر تها في شؤون الأرض وجنائن الأرض، تترقب سنية تصغي بخشوع لحديث أم حسين عن طبيعة القدس، وأن العمل بها مختلط، -شو يعني مختلط يا أم حسين؟ - أي أنه هنا لا يوجد يهود وعرب بإمكانك أن تعملي لدى اليهود.. والانتفاضة يا أم حسين؟ هنا لا يوجد أحد يتدخل بأحد وبالنهاية أنت لا تعملين بالحرام! والعمل عند العرب يا أم حسين؟ العمل عند العرب شحيح هذه الأيام قد أستطيع أن أوفر لك عمل في أحد البيوت ولكنك لن تصمدي كثيرًا.. لماذا؟ لأنهم يفضلون عمالهم من داخل القدس.. وما العمل يا أم حسين؟ سأوفر لك عملاً مناسبًا وهو الاعتناء بحديقة إحدى رياض الأطفال في القدس الغربية وهو عمل جيد والقائمون على هذه الروضة ليسوا يهودًا عنصريين يكرهون العرب.. وكيف سأتفاهم معهم يا أم حسين أنا لا أتقن العبرية؟ العبرية أتفه لغة في هذا العالم خلال شهر يمكنك أن تتحدثي بها وبثلاثة أو أربعة أشهر سوف تُتقنينها.. ألهذه الدرجة يا أم حسين؟!

وأكثر.. طيّب والمعاش والعطلة هم يُفضّلون الدفع شهريًا وليس أسبوعيًا والمعاش يتراوح ما بين مئتيْن وثلاثمئة دولار يعني تقريبًا ألف ومئتيْن «شيكل» بالشهر.. كما أن العمل لا يقتصر فقط على الحديقة يمكنك أن تعملي بالتنظيف أيضًا وكُله بحسابه.. وكم ستأخذين مني نسبة يا أم حسين؟ لأنك جديدة على العمل يا بنتي وأحوالك صعبة ولديك ثلاثة أطفال وزوج عاجز فإنني لن أقتسم معك رزقك ولن آخذ أي نسبة في البداية.. وبعد ذلك إذا تطورت الأمور وقمتُ بتوفير عمل أفضل لك سنتفق على نسبة ماذا قلتِ؟ فسألتها سنية بحزم وبلا تردد:

- ومتى سأبدأ العمل يا أم حسين؟

- تعالي يوم الأحد القادم في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا لكي أصحبك إلى عملك الجديد.. الله معك.

- الله يسترها معك يا خالتي أم حسين.

***

على مرأى صابر وذهوله من انخراطها في العمل الجديد، تتجلّى سنية بستانية بهية تعتني بالزهر والشجر في روضة أطفال «إسرائيلية» في القدس الغربية في أجواء الانتفاضة الشعبية وحاجتها للانعتاق وتوفير ما يحتاجه أطفالها وبيتها من عيش ومتطلبات، هي التي تنبثق الآن آمرة على نفسها تعمل بيديْها المباركتيْن في حديقة ليست لها، لتحيلها إلى جنة صغيرة أمام دهشة «شلوميت» مديرة الروضة وسعادتها بهدية أم حسين لها والمتمثلة بامرأةٍ شابة، ولا أجمل من صباحها وهي تتفانى متوحدة مع الأرض وأزهارها.

في الركن الترابي الأحمر المزدان بالخضرة والأزهار تعود سنية مجددًا

إلى سيرتها الأولى، سنية ابنة الربيع، سنية التي بضحكة صافية تعيد الدماء إلى خدود الورد وبلمسة من أناملها السحرية تُعيد للأشجار خضرتها اليانعة والازدهار، بستانية لا همٌ لها سوى الكدّ بعملها والتفاني به، في سبيل توفير لقمة العيش والحياة الكريمة لأطفالها، هل كان يهمها أنها تعمل في روضة أطفال يهود أو أن الصراخ والضوضاء من حولها كان عبريًا؟

هي التي أخذت تتمتم بحروف غريبة خشنة على لسانها، لتكتسب في عدة أيام الكثير من الكلمات العبرية وتعاطف مديرة الروضة معها في ظل تشجيع أم حسين الدائم لها بأن أصحاب العمل راضين عنها، وبأن ما تقوم به وتفعله هنا سيجعلها فخورة بنفسها هناك أمام أهلها، ولكن عن أي أهل تتحدثين يا أم حسين؟ هكذا كانت تسخر من نفسها حين يرد ذكر أهل بيتها على لسان أم حسين، أي بيت وأية أسرة، وصابر، ما أن تعود هي إلى البيت حتى ينقض ككلب بوليسي على حقيبتها وثيابها ليفتشها بإذلال باحثًا عن مال يقضي به على هستيريا الحشيش وظمأ الخمر.

- أين المعاش يا سنية...؟ مشان الله يا سنية أعطيني خمسين شيكل فقط.

وسنية تقف في وجهه مزهوة بنفسها بكبريائها واستعلاء تنظر إليه، من حالق سيطرتها تبصق عليه وهي تخرج من صدريتها ورقة مالية مُجعلكة قذفتها في وجهه: خذ.. اذهب واشتري السمّ الهاري يا خنزير.

- أنتِ أحسن إمرأة في الدنيا الله لا يحرمني منك يا مرتي يا حبيبتي.

ثم ينسحب من أمامها ليتركها برفقة ثلاثة أطفال، هل كانوا أطفالها حقًا؟ ثلاثة أقمار صغيرة لطالما رأت ظلالهم في روضة الأطفال، لطالما أحرقتها

تباريح الشوق إليهم وهي تتأمل أطفال اليهود وهم يلعبون ويمرحون هناك، إلى الدرجة التي طاردتها فيها مرة فكرة مجنونة تقضي بجلب أطفالها معها إلى روضة الأطفال لكي يلعبوا ويستمتعوا ببراءة المكان الذي لا مثيل له في البيت الإسمنتي المهلوك من شدة العفن والرطوبة ومزبلة صابر الحشيشية.

وهي تعمل، تتقدم بالعمل وتشرع بالتحكم بصابر والسطوة عليه هذه المرة، هي المرأة الآخاذة ما بين هبل وجنون، تستيقظ لتنمو، لتُزهر ولتطرد صديق زوجها الدنيء من بيتها مُهددة إياه بشباب الانتفاضة إذا ما عاد إلى تدنيس بيتها، إذ لم يغب رجائي مبتعدًا عن صابر، فما إن علم بعملها الغريب والسري في القدس حتى جنّ جنونه، لأنها إستطاعت أخيرًا التحرر من قيده ومحاولات الإيقاع بها، إذ هي تحررت منه ومن صابر بعملها وتوفرّ المال بين يديها، وهذا ما أغاظه خاصة بعد تألق جمالها واهتمامها بأنوثتها التي تهمس قائلة أنه لا يوجد رجل في هذا العالم يستحق مسّها وأخذها.

وأما رجائي فقد كان وحده يؤمن أنه الرجل الوحيد القادر على مراودتها والظفر بها، وهذا ما كانت تدركه وهي تخشى منه حيث كانت تسعى بكل قوتها إلى طرده لا من بيتها فقط بل من حياتها، لأنها كانت تحدس بعاقبة مخيفة سيتسبب بها هو بدناءته.

ففي مساء يوم خميس عادت به من عملها البستاني مرهقة يملؤها الشوق لرؤية أطفالها، لمحت صابر غارقًا بالنوم كأنه جثة هامدة، فسُرَتْ لرؤيته على هذه الحال، هرعت صوب أطفالها تتفقدهم وتمنحهم ما جلبته لهم من حلويات وملابس آخذه في مداعبتهم وملاعبتهم كأنها عادت لتوها إلى طفولتها، ثم تركتهم منشغلين بما جلبته لهم ماضية إلى الاستحمام، وما

إن انتهت من إعداد نفسها لنوم هانئ ومريح بعد يوم حافل بالعمل والكد حتى إستغربت من عدم وجود أطفالها المعتادين على النوم بجانبها في سريرها داخل الغرفة، ارتدتْ قميص نومها البنفسجي وهي تحدق بالمرآة مُتحسَرة على ضفيرتيْها الفقيدتيْن، إلى أن أحستْ بحركة غريبة تمور في أجواء صمت مُريب، أنفاس قذرة تقترب منها، راعها الأمر فالتفتت إلى الوراء فلم تعثر على أحد، نادت على صابر معتقدة أنه استيقظ من سباته، وما إن اندفعتْ نحو باب غرفتها حتى أطاح بها الكائن الطويل المظلم المثقل بالخمر والقذارة والذي لم يكن سوى رجائي الذي انقض عليها بشدته وخشونته كاتمًا صراخها قائلًا بهمس مخيف:

- هذه الليلة أنتِ لي.. حرام عليك.. أنظري إلى نفسك وإلى زوجك العاجز.. سنية أنا أعشقك.. أحبك لماذا تتجاهليني؟

إرتعدت سنية وتمنت الموت عندما انكشفت أمامه بقميص نومها الشفاف، هو الذي هاله سحر جسدها الممشوق الغض فمن سيرده عنها؟ قذف بها على السرير موشكًا على اغتصابها عندما دفعته هي بكل ما أوتيتْ من قوة مُطلقة صرخة حادة سمعتْ أصداءها الرام، ذُهل رجائي من قوتها المباغتة، حاول استعادة زمام انقضاضه عليها ولكنها ولّتْ هاربة من أمامه ساترة جسدها العاري بغطاء السرير. هرعت صوب باب البيت المفتوح على الحارة وفضائح الحارة. صاحت به وهي تلهث.

- إذا لم تخرج الآن سأفضحك..

قاطعها وهو يلملم نفسه وهيئته متقدمًا نحوها:

- الرجل لا يُعاب.. المرأة هي التي تُعاب.. سوف تفضحي نفسك فقط.

انكمشت أكثر داخل الغطاء عندما مرَّ من أمامها منصرفًا من البيت قائلًا بحدّة:

- ستدفعين الثمن غاليًا يا من تعمل لدى اليهود.. يا خائنة.

لم ترد عليه، صفعتْ وراءه الباب وعادت أدراجها إلى زوجها الغارق حتى اللحظة في سباته الحشيشي، لكزته بقدميها بشدة، صرخت به فلم يستيقظ، نزعت عنها قميص نومها الممزق في منتصف الصالة في وجه صابر. تعرّتْ تمامًا ولكنه لم يصحُ، ضحكت بعصبية إذ استعادها الجنون في لحظة أطاحت بها متكومة بجانبه هو الغارق في سبات الانحطاط.

***

في ظل انهماكها بعملها وإدراكها المستمر لواقعها الجديد وإتقانها للُغة العبرية في وقت قياسي، آثرت سنية عدم إخبار زوجها بمحاولات صديقه رجائي للإيقاع بها لأنها كانت على يقين تام أنَّ صابر يعلم علم اليقين رغبة رجائي بسنية، بالإضافة إلى عدم تردده من جديد على بيتها إثر محاولته الأخيرة الفاشلة التي استوعب فيها أنَّ سنية مجرد حلم مستحيل أن يناله ويُحيله إلى حقيقة لاهثة باسمه.

وأما على صعيد العمل بِقَدْرِ ما كانت سنية تبدع في شؤون روضة الأطفال منخرطة بأعمال البستنة والتنظيف، وأحيانًا ملاعبة الأطفال ما كانت تكسب المال في ظل تعاطف وتضامن أم حسين معها. أم حسين التي أذهلها تطور سنية السريع واللافت وتحدثها باللغة العبرية بطلاقةٍ نافستها عليها، مما أكسب سنية المزيد من الثقة والتحكم، وهذا أهم ما في الأمر التحكم ببيتها وصابر الذي أخذ يتذمر ويسأم من حضورها المستبد الآخذ بالتصاعد مما أثار لديه حقدًا دفينًا تجاهها وضغائن شيطانية لم تتوفر لسنية فطنة خارقة الذكاء لإدراكها ومعرفة كيفية التصرف معها:

- أين تذهبين بالمال يا سنية؟ أعطيني.. أنا زوجك.. أنا وافقت على عملك.. أين المال.

تنظر إليه بازدراء ثم تقول ببذاءة تتجافى وطلتها البهية:

- المال في مؤخرة أمك اذهب واجلبه.

فينتفض على وشك الانقضاض عليها ولكن عجزه يخذله وثمالته تأسره بالقاع الذي اختاره لنفسه، لتقهقه في وجهه بصخب وهي ترفض:

- والله إنك زلمة يا زوجي العزيز.. قوم أضربني.. قوم يا خنزير.

- أقسم إنك ستدفعين الثمن.. سأجعلك عبرة لكل نساء البلد.. يا هبله.. يا قحبة.

- حسناً لنرى يا سيد الزلام.

أعماها تحكمَها، إذ أدركت للحظة أنها امتلكت زمام مصيرها وكل ما يتحكم بها في حياتها البائسة، اعتقدت أنْ المال سيوفر لها ليس الحياة الكريمة فقط بل شخصية كبيرة قوية تستطيع من خلالها فرض سيطرتها على البيت وزوجها وإخراس ألسنة كل الذين يلوكون سمعتها وشرفها.

ثم جاء اليوم الذي لم تحسب له أدنى حساب، يوم الجمعة إذ في ليلةٍ حالكة طرقت بابها السواعد الشديدة والوجوه المقنعة بالسواد، أجساد ليلية اقتحمت البيت بالسيوف والخناجر باسم الانتفاضة، فزعتْ سنية، اعتقدت للوهلة الأولى أنهم جاؤوا لاقتياد زوجها صابر إلى التحقيق بسبب سكره وتعاطيه للحشيشة وماضيه المشبوه، ولكنها لم تشِ به كما فعلت بالسابق في القرية، كانوا أربعة مُلثمين بأزياء سوداء رهيبة أخافتها، في الوقت الذي لم ينهض فيه صابر لاعتراضهم أو سؤالهم عمّا يبغونه، ظل غارقًا في أريكته العفنة داخل الصالون. سألت أحدهم بخشية وخفوت:

- ماذا تريدون يا أخي في آخر الليل؟

أجابها بصوت حازم:

- هل أنتِ سنية زوجة صابر عطوة البشيري؟

- نعم يا أخي.

دنى منها ثم قال بذات اللهجة الحازمة وهو ينقض على شعرها بقسوة: تعالي معنا يا عايبة للتحقيق.

ثم جرّوها وسط الصراخ والتوسلات وبكاء أطفالها وعيون الجيران وسُبات زوجها.

جروها.. ألقوها في مؤخرة سيارتهم ومضوا بها إلى ركنهم السري بسرعة، وهي لا تعلم من أين تبدأ وبماذا تفكر، مدركة تمام الإدراك أنَّ ما يجري ما هو إلاّ خطأ فادح وأنها ليست المطلوبة للتحقيق بل زوجها.

كانت مرتعدة على وشك الموت في أحد البيوت المهجورة في مدينة رام الله حين نزعوا الكيس القماشي الأسود عن رأسها، صفعها أحدهم بقسوة.. أنتِ متهمة بالتعاون مع المحتل.. لدينا دلائل تثبت عملك في القدس الغربية.. من الذي أسقطك تكلمي؟

صفعة مؤلمة أخرى.. مذهولة سنية مرتجفة تحدق في عتمة الوجوه.. تكلمي.. اعترفي من الذي نام معك؟ كم عدد الذين استدرجتيهم للشاباك؟

صفعة أخرى.. تنساب الدماء من فمها.. تهمهم.. ألا تعلمين أن العمل ممنوع عند اليهود؟ تكلمي يا قحبة.. يَقترب منها أحدهم وهي الموثقة بإحكام وهو الذي يُطلق ليديه اللطم والصفع على وجهها وصدرها.. كاد أن يخنقها.. اعترفي.. تكتشف سنية يديه.. تعرفهما.. يد الخاسئ الغاصب الذي كاد يُودي بها إلى مهاوي الرذيلة.

تصرخ قائلة بتحدٍ وعزم: لا لستم أنتم شباب الانتفاضة.. شباب الانتفاضة أطهر منكم.. أنتم حرامية تدّعون الوطنية.. شباب الانتفاضة هم الذين يؤدبون أمثالكم وأمثال صابر.

بهستيرية ردّتهم إلى أعقابهم وشلّت أياديهم: أنا أعرفك يا رجائي.. هذا أنت.. لا تتستر خلف قناع الانتفاضة.. ألهذه الدرجة؟ تعال ها أنا أمامك مقيدة خذني الآن. ثم ألقت بنفسها عن الكرسي فانحسر ثوبها عن فخذيها الممتلئينْ بما يرغب به رجائي.. تهالكت على ظهرها ورفعت ساقيها قائلة بعصبية: هيا يا رجائي.. ها أنا أمامك هيا تعال يا سيد الزلام، ينقض عليها أحدهم، ينتشلها من الأرض ثم يصفعها صفعات متتالية بشدة قائلًا لها: من هو رجائي يا قحبة.. نحن نحقق معك باسم الانتفاضة ونحذرك هذه هي المرة الأخيرة التي نقول لك فيها لا تعملي عند اليهود وإلاّ كان مصيرك الإعدام فهمتِ.. هيا انصرفي. فكّ وثاقها على عجل، لملمتْ نفسها وجسدها ومسحت دماءها وتبعثرها ومضت إلى بيتها مرتعدة مضطربة. إذ هذه المرة تعود ولكن ليس كما كانت سنية ابنة الفضيحة والخيانة، هكذا، ما إن وصلت بيتها حتى رأت حشدًا من أهل الحارة ينتظرون بعيونهم الحادة وألسنتهم الجارحة والتهامهم لها بالشائعات والأقاويل، دلفتْ إلى البيت بسرعة منكسة رأسها بأرض الرام الإسمنتية، أوصدتْ الأبواب والنوافذ، رأت زوجها صابر مُطرقًا وسط كومة من زجاجات البيرة الفارغة، وقفت أمامه. حدقت به بصمت ثم دنت منه وأطبقت بيديها على رأسه ورفعته إليها قائلة له بصوتها المبحوح المرتعش: انظر إلي.. انظر يا زوجي.. أنا زوجتك الخائنة القحبة فهل أنت مسرور؟ ثم هرعت صوب غرفتها، بعثرت محتويات دولاب الملابس ثم أخرجت منه رزمة مالية، عادت أدراجها، مزّقت المال نتفًا صغيرة ثم نثرته فوقه وهي تضحك بعصبية: خُذ.. ألا تريد المال.. خذه واذهب اشترِ الحشيشة وادعُ صاحبك رجائي ليكمل ما

فعله بي هناك في سريرك هيا يا سيد الزلام. ثم صمتت وحدقت به لاهثة للحظات ثم أردفت صائحة بهستيرية: طلقني يا صابر طلّقني يا صابر فأنا عايبة وخاينة طلّقني.

صابر مُطرق الرأس لا يلوي على شيء. ريثما إنسحبت هي من أمامه إلى غرفتها على مرأى أطفالها المذهولين من مصير أمهم، لتحرق نفسها سنية، لتبكي لتصرخ ولكن هل ستنهار الآن في عزّ تفتحها بعد أن كسروها؟ هل ستنهار؟

***

لا.. أبداً وكأن مصيبة لم تحدث وكأن فضيحة لم تكن، إذ في اليوم التالي تمضي سنية إلى عملها في تحدٍ صارخ لكل الرماح والسيوف والإشاعات، فما الذي ستخسره إثر ما ألمّ بها بالأمس؟

تمضي سنية لتغامر.. لتقامر بحياتها، فرجائي لن يكسرها، قد يستطيع إعدامها وقتلها ولكنه لن ينال منها أبدًا، لذلك تمضي سنية الآن إلى آخر المصير مدفوعة بالتحدي ورفض واقع يريدون فرضه عليها رغمًا عنها، مُصرّة على صوْن نفسها ورعاية أطفالها، بما يسدّه معاشها من متطلبات البيت ونزعات زوجها الذي اكتشف على حين غرة مدى قدرة زوجته الخلاّقة والخارقة، امرأته التي باتت كنزًا يجدر به الحفاظ عليه واستغلاله قدر أنانيته وقذارته وصديقه رجائي، فإلى أين تذهب سنية؟ من يُجيرها من مغبة زوجها ونوايا صديقه الخبيثة؟

ابتعدت سنية عن ظلالهم السوداء، ابتعدت منخرطة في عملها ساعية نحو الارتقاء والتفكير الجاد بهجر زوجها وهربها هي وأطفالها نحو ركن آخر يعبق بالأمان والكرامة، إذ لم تعد ترجع إلى بيتها بصورة يومية كما في

السابق بعد أن وفّرتْ لها «شلوميت» مديرة روضة الأطفال غرفة متواضعة للنوم داخل الروضة على أن تعود إلى بيتها يومي الجمعة والسبت لتمضيهما برفقة أطفالها، كانت تعود كالمتسلّلة، كالسارقة مساءً دون أن يشعر بها أحد، كانت تشعر بمراقبة العيون المتلصصة عليها، كانت تحسّ بلهاثهم الفضولي الكريه، تفتح باب البيت مُواربة، تدخل بسرعة، تُوصده، تأخذ أنفاسها، ترتاح صوب أطفالها تمضي تحضنهم تُقبلّهم، تقذف في وجه أبيهم المزيد من المال لتتّقي شَرّه وشرهه المنغمس في شهواته، ينظر إليها يضحك بجذل قائلًا:

- خلص يا سنية.. الأوضاع ستستقر.. ألم تسمعي الأخبار؟ يوجد مؤتمر للسلام.. خلص اليهود والعرب يريدون المصالحة والانتفاضة شارفت على الانتهاء.

ترمقه باشمئزاز دون أن تُعقّب ثم تنسحب إلى غرفتها بهدوء برفقة أطفالها لكسب المزيد من الأمومة معهم، إذ تلهو بهم ومعهم إلى أن يتعبوا غافين بحضنها الدافئ الذي لن يسعهم بعد قليل عندما ستعود إلى عملها.

في إيابها السري إلى بيتها تدرك سنية فداحة ما حلّ بها على يد رجائي وأعوانه الذين أطاحوا بها عن عرش براءتها وعفّتها، لتلحظ في عيون أهل الحارة المحشورة في إسمنتْ الرام رفضهم لها كما تلمس العار الذي تلبّسها، فهي باتت امرأة الشبهات والشائعات فكيف تدافع عن نفسها؟ كيف تقف أمام بيتها لتُوضّح للناس المتهافتين على تمزيق سمعتها أنها ضحية للدناءة وقذارة زوجها؟

تجرحها الألسنة، تحرقها الأقاويل هي التي اعتادت في قريتها البعيدة على شائعات هبلها ونميمة النسوة، ولكن أن يقولوا عنها هنا ويتهمونها أنها تعمل بجسدها وتبيعه في «تل أبيب» فهذه هي الطامّة الكبرى التي

ستؤدي إلى ذبولها، فكيف تستوعب كل مصائب زمانها؟ كيف تقوى على العمل ضاربة بعرض الحائط كل ما يتفوّهون به بحق عِرضها؟

في تلك الليلة.. أصابها الأرق، لم تنم، حيث اكتشفت كل هذه الفداحة التي حاصرتها وطردتها من أفق أمومتها وكفاحها في سبيل صوْن نفسها وحماية أطفالها، لم تغفُ سنية وهي تتقلّب على رؤوس الرماح، ليُعيدها من شرودها الحزين صوت زوجها الأجش وهو يتحدث مع أحدهم، اعتقدت للوهلة الأولى بأنه يهذي مع نفسه المُخدّرة، ولكن ما لبثت أن سمعت أصواتًا أخرى متداخلة مع صوت صابر فنهضتْ من فراشها، أصاخت السمع من وراء الباب، كان صوت صابر بعيد فلم يتناه إلى مسامعها بوضوح ما يدور في صالة البيت من حديث، فتحتْ جزءًا قليلًا من الباب لترى منه وتسمع زوجها وهو يحادث رجائي الذي كان برفقته ثلاثة مقنعين بنفس الهيئة التي جاؤوا بها في المرة السابقة: إنها بالداخل يا رجائي.. خذوها بهدوء.. لا أريد المزيد من الفضائح.

أجابه رجائي المنتشي من فرط اللذة الموشكة على الانقضاض على سنية:

- لا تقلق يا أبو سليم.. سآخذها بهدوء ولن ترى وجهها مرة أخرى أبدًا.. سأريحك منها.

وما إن سمعت سنية أولئك المتهامسين عليها وعلى إعدامها حتى تمالكت نفسها وأنفاسها بهدوء كاظمة جِدّة رعدتها، أغلقتْ الباب بحذر، تحركت بسرعة، جلبتْ حقيبة بها بعض الثياب وما تبقى لديها من مال ثم ارتدت ملابسها على عجل، رمقت أطفالها بدمعٍ حارٍ ترقرق على وجنتيْها، تقدمت نحو النافذة شرّعتها ثم شرعتْ لنفسها الهرب، برشاقة انسابت من النافذة كحورية بحر قافزة خارج بيت صابر الرديء، وركضت..

ركضت يدفعها الخوف، ركضت يقودها الذعر من رائحة الموت، ركضت بكل ما أوتيت من تخبط وعجز وضياع في حالك الليل، ركضت في الشوارع الخالية من الربيع الذي لا يُزهر فيه الملح والإسمنتْ، تخيّلت جنون رجائي المغير على غرفتها عندما يجدها خالية منها، شعرتْ به مُلتصقًا بها من الخلف، أحسّتْ بأنفاسه القذرة، فركضت بشدة حتى باتت كأنها الريح.

ريح سنية التي عبرت بليلها الأخير فضاء البلاد وأثير الربيع، ربيع الهُتك الصدئ لتحط فجرًا في بيت أم حسين داخل البلدة القديمة في القدس..

الفصل السابع:

إلى القدس العتيقة، وبيتٍ من حجارة مكحولة بالتاريخ والقداسة، تلجأ المرأة الشابة ضيفًا هاربة من حد السكين والألسنة الحادة من هول الموت. المُوت المُعدّ سلفًا وانتصابًا لها، هي التي ما أن وعتْ ما بها من قهرٍ وذبول وما بهذا العالم من بؤس وقسوة حتى شارفت على الانكسار على مرأى زوجها وأطفالها، إذ ما إن طردت سنية هبلها حتى طاردتها خفافيش الليل الذين اشتمُّوا رائحة دمها الزكية، واكتشفوا في لحظة أن ثمة امرأة فاتنة تسكن بيتًا لا أمن فيه ولا رجال، لكي يحاصروها بالشرف والكرامة وتعاويذهم الوطنية الزائفة، خفافيش الليل الظالم لعنوها باسم الوطن وأدموا براءتها، فكيف غفلتْ ابنة الربيع عن كل هذا الخبث؟

داخل بيت أم حسين وفي أحضان الأسرة الدافئة، ألقت بنفسها سنية خائفة مرتعدة، لا تلوي على شيء سوى الأمل بالعودة القريبة إلى الرام لتواجه الذين ظلموها وشوُّهوا سمعتها، ولتعانق ما عثرت عليه في الفترة الأخيرة من أمومة وأطفال ثلاثة مفعمين بالبهاء والحياة.

تلعن سنية نفسها مُتقلبة داخل غرفة صغيرة مغلقة عليها، وتجلد نفسها بسياط الأسئلة الملتهبة التي أحرقت قلبها اللوزي، هكذا تتفجر الأسئلة في عقلها الناشئ: لماذا لم أهرب من قبل؟ كيف لم أكترث لنوايا

رجائي وصابر الدنيئة؟ كيف تخليت عن أطفالي وتركتهم ورائي هناك في بيت صابر االعين؟ كم أنا تافهة وجبانة وضعيفة!

كالسماء كانت سنية لازوردية صافية تارة ومُلبّدة بغيوم البكاء تارة أخرى في أجواء الصيف المقدسي المصاحب لعام 1993، شاحبة متهالكة يائسة بلا ضفيرتيْن تسعى إلى ما استطاعت إليه سبيلًا من التحمل وادّعاء الكبرياء والإرادة أمام أم حسين وأسرتها الصغيرة:

- يجب أن أعود إلى الرام يا خالتي. يجب أن أتفقد أطفالي وأهرب بهم من وحشية صابر وأصحابه؟

فتجيبها أم حسين بكل مواساة وحنان:

- يا بنتي.. الأوضاع هناك صعبة الآن وهم لن يتركوك في حال سبيلك.. فحسب ما فهمته منك لن يردهم عنك أحد.. اصبري قليلاً.. وعودي إلى عملك لحين فرج الله.

ثم تركتها لعزلتها الاضطرارية أم حسين التي اعتبرتها سنية طوق نجاتها الوحيد في هذا العالم، والأم التي لم تحظَ بها يومًا، لم تغلق الباب في وجهها في ساعات الليل المتأخرة، كلا ولم تتملص من نجدتها وتهدئة روعها وخواطرها، بل ساندتها وواستها بالصبر والفرج لحين تدبير الأمر، شعرت سنية بنعمة الأمان المنبعثة من حضور أم حسين، غير أنَّها لم تستطع في نفس الوقت أن تشفي صدرها من بهتان أصلها وانقراض أسرتها، فعينُ الصواب الجاحظة ما قالته أم حسين. من الذي يردّهم عنها هي التي لا أخَ لها ولا أبٌ ولا عم ولا خال، من يصدّهم عن كيانها البريء المهجور من قبل الأصالة والعراقة وجاه العائلة في الحين الذي اختلطت فيه الأمور والتبست الشعارات لتحاصرها بالعار والفضيحة. قحبة؟ أنا قحبة بعد كل هذا الهبل

والجنون والشَّبْح والصلب والضرب والدماء والمذلة والفضيحة أصير قحبة في أزقة الشرف الباهت والذين يدّعون الانتفاضة؟!

تقسو على نفسها بالأسئلة التي عصفت بها وذرتها في فضاء ذاكرتها اللوزية البعيدة، لتتجلّى أمامها فجأة صورة ناصر حبيبها الأوحد، الفدائي الأطهر. المتسلل الأجرأ، لا في أرضه فحسب بل إلى قلبها الصغير البكر الذي لم يكن قد اعتاد الحب وتباريحه وعذاباته بعد، تتذكر ناصر في لحظات ضعفها، تلقي أشعاره عليها علّها تتدفأ، علّها تستكين، تتذكر كلماته وسرورهما معًا في ظلال اللوز وربيع قريتها عين المرجة. تتلمّس في الفراغ ضفيرتيْها فلا تعثر إلا على العدم، عدمِ أيامها وقسوتها، يجرفها الحنين إليه وهي التي ما نسيتهُ ولا طردته من قلبها، لم تكرهه ولكنها الآن نعم الآن تحقد عليه بإيمانها الراسخ أن هجرانه لها هو سبب هبلها وتبعثرها وضياعها، لماذا تركتني معلّقةً على أغصان اللوز لأذبل؟ لماذا شنقتني بضفيرتيّ ومضيتَ إلى ما لا أعرفه؟ لماذا لم ترسل أهلك لخطبتي يا الذي لا أهل لك ولا أصل؟

تقسو الأسئلة وسنية غارقة في طوفان الذاكرة والدمع، وناصر يتجلّى في أفق الغرفة الصغيرة المعتمة ليحرقها أكثر، هي التي لم تكن تعلم عنه شيئًا هل سُجن؟ هل استُشهد؟ هل فُقدتْ آثاره؟ لا تعلم الآن سوى استجدائه واستدعائه وتخيله بجانبها في السرير بزيه الخاكي، وكوفيته البيضاء المرقّطة بكحل عينيْها وهي بضفيرتيْن من عبق ومرمر تستند على زنده القوي لتغفو ويحرسها هو الفدائي العاشق.

في سريرها الصغير، تضطرم هاربة من جراحها ومصائبها، سارحة في خيالاتها وعزّ المستحيل علّها تُحلّق وتتحد مع هالة ناصر، لتتعربش فوهة بندقيته ولكنها تهوي من جديد نحو حجارة القدس القاسية، وريح سنية

التي وبعد كل هذا الزمان المتناوب عليها بالحزن والآلام ينبثق الآن أمامها ناصر في أعظم مصائبها، ويح المرأة المستضعفة الوحيدة اللاجئة.. ويحك يا سنية كيف تعودين إلى سنية البعيدة لكي تسيلي ندىً صافيًا من شفتي ناصر؟

***

تلملم نفسها بما وفّرته لها أم حسين لها من أمن واستقرار مؤقتيْن، لعل الأيام القادمة تنصرها وتُدفّئ قلبها بذكرى حبيب رحل ولم يعد وعاد ولم يصل، متجاهلة إيمانها الراسخ بأن ثمة أقاويل قد اندلعتْ فجأة في الجادة التي يقع فيها بيت أم حسين داخل البلدة القديمة، فقد اعتادت وترعرعت برفقة النهش الذي طال شرفها وكرامتها إلى الحد الذي شارفت فيه لوزتها أن تذوي محترقة بجحيم الناس وألسنتهم، لتذعن بالنهاية لهذا القدر المُختل الذي ما إن يُدميها حتى يلوكها ويلقيها لقمة سائغةً معدة سلفًا للنهش والبلع والهضم، تجنّبتْ سنية الأقاويل بأذنين مسدودتيْن باللامبالاة وعينيْن مغمضتيْن أمام احتمالات الناس هنا، لتعود إلى مزاولة عملها بعد أن ناشدتها أم حسين بذلك قائلة لها:

- العمل يخفف عنك بعض الشيء ويشغلك عن الهموم، وما دمتِ عندي لا تخافي، أطول لسان أقتلعه من جذوره فأنت بنت أم حسين الآن.

محروسة بأدعية أم حسين وأنفاس دفئها ومحبتها، تعود سنية إلى حديقة صغيرة كانت قد أحالتها إلى جَنَّة أخَّاذة في روضة أطفال يهودية، عادت بكل إخلاصٍ وإتقانٍ لممارسة مهنتها الترابية المفعمة بالأشجار والأزهار.

تعبق سنية بالخضرة التي قلبتْ قهرها إلى عمل وحزنها إلى سرور مؤقت وكرهها لمصيرها البائس إلى شغف، شغف بهي يحيل البرد دفئًا والتراب ذهبًا والغصن اليابس أزهارًا. إتحدت في مآلها الأجمل صابرة مكابدة قدر إمكانها بانتظار العودة إلى ما خلفته وراءها من بيت منكوب، وزوج خاسئ وأطفال، يا رب سنية أطفال.. قطع بشرية صغيرة لا ذنب لها فيما يحدث داخل البيت المجنون، إلا أنها تنجح بإخماد اللهب المنبعث من آبار جراحها عبر العمل وعبارات المواساة والصبر التي كانت تحيطها بها أم حسين في ظل الذكرى التي تجلت في أوج الصيف المقدسي الحارق، ذكرى ناصر التي لم تُظلّلها بل أحرقتها بالتباريح العتيقة وفيافي القرية البعيدة والجبل المكسور.

تجتهد. سنية وتتحد بالأرض والأزهار، لاشيء يجول في خاطرها سوى الانغماس في المزيد من الازدهار والعبق والندى، لا همّ يراودها داخل الحديقة الصغيرة بل سعادة طارئة تُحيلها إلى أنثى من جديد، أنثى للورد للحياة إنها هي سنية الهبلة التي لم تكن لتعبأ بما تُحصّله من أجر مالي في الروضة، إذ لم تكن تعشق جمع المال فهي لا تدرك قيمته ما دام أطفالها لا يتنعمون به وبما تشتريه لهم من ملابس ودمىً وحلويات، كانت ما إن تنال أجرها من شلوميت مديرة الروضة حتى تلقيه كاملًا في حجر أم حسين لا لكي تدّخره لها في خزينة الأمن والثقة لحين عودتها إلى الرام، بل لتفعل به أم حسين ما تشاء، ولكن هذه الأخيرة ورعة بمخافة ربها لم تكن لتبذر أجر سنية وتنثره مِنَحًا وهدايا على أسرتها، بل كانت تدخره دون أن تمس منه شيكلًا واحدًا في ظل دهشتها من عدم تقدير سنية لقيمة المال الذي بعثرها منذ مطالع عمرها الوردي.

في روضة الأطفال كانت ما إن تنتهي من أعمالها البستانية حتى تهرع

صوب الأطفال لتداعبهم وتبحث فيهم عن أطفالها، تتناغم مع ضحكاتهم. تطرب بها. تعانقهم علّها تعثر على فاطمة أو مجير أو سليم ولكنها لم تعثر إلا على المزيد من الفراق والآلام، كانت تراقصهم بلا ضفيرتيْن غير إنَّها على أتمّ البراءة والطفولة والتصرفات التي لا توحي إلا بهبل امرأة تبلغ من العمر 26 عامًا تتحد مع الأطفال كأنها واحدة منهم، تفرح.. ترقص.. تلعب.. تخفي الجرح.. تدوس على آلامها، في روضة أطفال يهودية راقصة في القدس الغربية. إلى أن جاء اليوم الذي غنّت فيه سنية وغنّتْ باللغة العربية أحلى التراويد والزغاريد وأناشيد قريتها البعيدة، لتسمعها من بعيد شلوميت التي كانت على قدر عالٍ من الإنسانية والمسؤولية والتضامن، شلوميت التي ذُهلتْ من اتحاد سنية بأجواء الأطفال وعودتها إلى طفولتها القديمة. وأعجبتْ بقدرة سنية على العمل وإتقانها اللغة العبرية في وقت قياسي، ولكنها هي نفسها شلوميت التي ورغم رفضها للعنصرية وأشكالها كافة، ذُعرتْ وارتعدتْ وجُنّت حين سمعت سنية تغني بالعربية ولمن؟ للأطفال اليهود في الوقت الذي كان فيه محيط القدس العربي مشتعل بما تبقى من جمر الإنتفاضة، نادت عليها وهي تحاول كظم غيظها والتحكم بأعصابها اللاعنصرية:

- سنية.. سنية تعالي إلى مكتبي حالًا.

لم تسمعها سنية في البداية، فنادتها شلوميت بصوت أعلى به من نبرة الغيظ ما دفع سنية إلى العودة السريعة إلى رشدها وتلبيتها لنداء مديرتها العاجل، حيث سارت وراءها إلى مكتبها وإمارات الدهشة والاستغراب من لهجة شلوميت المفاجئة تحتلها:

- سنية.. ماذا كنتِ تغنين للأطفال؟

احتارت سنية المكسوة بالطفولة لا تلوي على شيء، لتقسو عليها شلوميت بشدة:

- سنية أنا أحترم عملك.. ولكن أنت هنا من أجل التنظيف والعمل في الحديقة فقط.

قاطعتها سنية بسؤال خافت خجول بلغة عبرية خالصة:

- ولكن ما الذي فعلته يا سيدة شلوميت؟

احتدث شلوميت بسبب لا مبالاة سنية وعدم ادراكها لخطئها الفادح:

- سنية.. أنتِ تعملين بروضة أطفال يهودية، وأنت تغنين للأطفال اليهود أغاني بالعربية لا أعلم ما هو الهدف منها؟ سنية أنت لست معلمة هنا.. أنت بستانية فقط.. وإذا كنت أعاملك باحترام وبلا عنصرية فهذا لا يعني أننا نعيش في مجتمع مثالي.. هؤلاء أطفال يهود.. بعد قليل سيعودون إلى بيوتهم، وأهاليهم، وسيغنون أغانيكِ هناك.. سيغنون الأغاني العربية داخل البيوت العبرية.. فما الذي سيحدث برأيك؟ هل سيأتون غدًا ليجلبوا لك الأزهار أم سيقاضونني لأني وظفتُ عربية في روضتي؟! قولي لي.. أجيبي؟

إلا أن أطرقت سنية وهي عاقدة ساعديها فوق صدرها دون أن تعقب بكلمة، لأنها لم تكن تعلم أنَّ بعض الأهازيج الفلكلورية الفلسطينية ستثير حفيظة دولة «إسرائيل»، كما أنَّها لم تعهد بعد كيفية مواجهة الآخرين، فهي المتهمة المستضعفة دومًا. قطعت شلوميت صمتها بحدٍّ مُستَفَزَّةٌ من صمتها الذي عكس لا مبالاتها بما حدث:

- حسنًا.. يبدو أنك لم تفهمي ما الذي أقصده.. على أية حال أنا آسفة.. سأهاتف أم حسين الآن لأنهي معها حسابك.. لم يعد لديك عمل هنا عزيزتي.. أنا آسفة جدًا.. هذه الروضة مصدر رزقي الوحيد، ولا أريد أن أخسرها.

تأملتْ سنية شلوميت بنظرات خاوية للحظات ثم استدارت دون أن تعقب بحرف مُنسحبة من الروضة.. مُنصرفة خارج اهتمامات شلوميت الإنسانية اللاعنصرية، دون أن تتخلى عن إصرارها القاضي أنّها لم ترتكب مصيبة قد تُهدد أمن الروضة ودولة «إسرائيل»، إذ تُطرد سنية من حديقة أخرى ليست لها، ماضيةً إلى بيت أم حسين، لتعود من جديد إلى مزاولة الهمّ والحزن وما خلّفته وراءها في بيت الرام الإسمنتي من أطفال وذكريات أليمة.

***

- يا مجنونة عاملة فرقة فنون شعبية في القدس الغربية.. دبكة وزغاريد وزفّة عريس.. والله إنك خالصة.

ثم أطلقت ضحكة مجلجلة في وجه سنية الواجمة إثر طردها من عملها وركن مواساتها الأرحب، كانت أم حسين تواسيها بالصبر والمزاح وتحويل المصيبة إلى مهزلة وسخرية والصعوبات إلى لين ويُسر:

- لا تقلقي سأجد لك عملًا آخر ولكن دون غناء ودبكة فهمتِ؟!

ثم غمرتها بدفءٍ أمومي لطالما احتاجت إليه، سنية التي أخذت فجأة تجهش ببكاء قضى على أجواء سرور عكسته ضحكات ودعابات أم حسين فراعها نشيج سنية الحارق، مسحت دموعها بيديْها قائلة لها بخفوت:

- ما بالك يا سنية زعلتِ مني؟! أنا أريد أن أخفف عنك فقط.

أجابتها سنية بصوت مبحوح مكسور:

- لا.. أنا بالفعل مجنونة يا خالتي.. مجنونة. التي تعيش مثلي مع

صابر مجنونة.. التي تترك أطفالها وتهرب مجنونة.. والتي ترقص وتغني بالعربي عند اليهود مجنونة..

ثم ارتدّتْ بحدة عن حضن أم حسين وانتصبت فجأة فوق السرير، أخذت تتقافز صارخة بصوتها المجروح وضحكاتها الهستيرية:

- مجنونة.. أنا مجنونة.. أنا سنية الهبلة.

أخذت تصفق بصخب إذ عاد إليها كامل هبلها هذه المرة، يكفي، لم تعد تحتمل، يكفي إدعاءات كاذبة بالتحمل والصبر والعزيمة، مجنونة يا أم حسين، أنا مجرد امرأة مفضوحة مجنونة فماذا تريدون مني؟!

وأم حسين تنظر إليها باستغراب وإشفاق ثم تعلّقتْ بقدميها وأخذت تهدئ من روع هبلها ساعية في إنزالها عن سرج الجنون:

- سنية يا بنتي.. حرام تعملي بنفسك هيك.. انزلي يا حبيبتي.. إنتِ ست البنات وأعقل العاقلات.

انهارت مرة واحدة بجانب أم حسين فوق السرير لاهثة نائحة مُهمهمة بكلام غريب عجيب، لم تفهم منه أم حسين حرفًا، غمرتها قائلة بصوت غضّ بالبكاء:

- لا عليك.. صبر جميل والله المستعان.

ثم ألقتْ عليها تعاويذ السكينة وقرآن الرحمة، هدأت سنية وغفتْ بلا أحلام.

***

في ساعات الليل إذ يحنّ مُخلّفًا درب سنية بديجور فولاذي لا يُفل، درب تتسلل من خلاله وتتوسّل بيتها المحشور في أزقة الرام المكتظة

بالأماني الشاهقة والأحلام المستحيلة، إلى هناك تمضي في غفلة من أم حسين والقدس العتيقة، على إيقاع قلبها الصاخب بالشوق واللهفة لأطفالها والمرتجف من مغبّة الذين ينتظرونها من حراس الفضيلة البائدة والوطنية الزائفة.

تلقي خوفها جانبًا، تدفن حسرتها في تنهيدة جارفة. تعدُّ نفسها وتشحذها بالأمل والخلاص، فإما أن تعود إلى بيتها وأطفالها مقتنعة بما كُتِبَ عليها من فضيحة وقهر، وإما أن تُذبح على عتبة الظلم، إذ هي ضحية تسير على قدمين بسكون يُخفي وراءه آهات العجز واللجوء، تُشرع الباب أمام احتمالات الحياة أو الموت.. الستر أو الفضيحة. تندفع في البحر المتلاطم في اللّجة السوداء الظالمة ملقية أم حسين ومواساتها وآيات صبرها في دولاب النسيان لتمضي إلى هناك، إلى الرام فما الذي ستخسره بعد كل هذا العار والهتك والدمار؟ فقد باتت تعلم مسبقًا أن ما تفعله هنا في القدس ما هو إلا تأجيل لمواسم الموت ومشاريع الانحطاط والرذيلة، فلتعد إذن ما دام هبلها في لحظات الشدّة ينفجر في وجهها شظايا سامّة تصيبها في مقتل. في أعماق الفؤاد العاجز عن النبض عشقًا، ولذلك هي تمضي تهرول. تهرول. تستقل سيارات الأجرة من سيارة إلى أخرى في الشوارع الخاوية والطرقات الساكنة والناس النائمة المستسلمة لدغدغة الفجر ولذة سرائره، إلى أن تصل الرام. هنا تتفتّق سنية جرحًا نازفًا، هنا تطارد أثر الفضيحة، غافية العيون لا أحد يراها، لا أحد يشتمّ رائحة الفضيحة، تسير سنية متنكرة مخفية وجهها الساحر بنقاب أسود قُدّ من أيامها، تتستّر بجلبابها الأسود من جحوظ العيون المفاجئ واكتشافها لأمرها.. تسير تلهث. تتقدم، لا تتعثر بل تكمل المسير مدّعية الثبات ورباطة الجأش. تصل إلى مشارف البيت بحذر. تراه من بعيد. يتجلّى لها كل اللؤم والخبث وصابر والدناءة ورجائي والوساخة، وتلك النافذة الخلفية مسرب فرارها الخفيّ الذي قذفتْ بجسدها المنهوك منه نحو القدس.

ها هي الآن تُقبل على مبارزة الموت وتفجير ما تبقى لها من شرف وكرامة في وجوه كل الذين جلدوها وأهانوها وظلموها وانتهكوا أسمى ما فيها، هي الآن تُقبل كفارسة إغريقية أمازونية، ستغزو البيت، ستنقضّ على صابر مُستلّة أضخم سكين في المطبخ لتغرزها في أعماق قلبه الأسود، ستسترد أطفالها. ستحمل مجير على يدها.. فاطمة على يدها الأخرى وسليم على كتفيها وستهرب بهم إلى القدس، لكي تسترد الطفولة والأمومة معتزلة صابر وآثامه وأصحابه.

الطريق ساكن، خاوٍ، نسائم ضجر صدئة تنفذ إليها من النقاب الذي تُشعّ منه عيناها. تختنق لا من تسمّم الأجواء بالترقب بل من خوفها مما قد يحدث الآن أمام البيت وهي توشك على اقتحامه واسترداد حقها وكرامتها فجرًا، لربما علم رجائي بأمر عودتها. قد يفاجئها الآن بحصار مريع وانتصار سريع، لربما هي تنزف الآن بفعل طعناته الغادرة، تطرد الشك والخوف من أرجائها. تدعي العزيمة والجرأة ثم تقتحم البيت ولكن الباب مغلق في وجهها. مُوصَد يا إلهي، ينتابها ذعر مباغت، تلتفت وراءها، لا أحد في الحارة، تحاول مجددًا، تدفع الباب بقوة ولكنه لا يشرع في وجهها، تعود أدراجها بحيرة، تدور حول نفسها بعجز وضعف تامين، تتوقف عن التبعثر وتطرد اليأس، اذ تمضي بحذر إلى ما وراء البيت حيث النافذة التي هربت منها، تدنو من زجاج النافذة، تحدق في البيت المظلم حيث العتمة لا تشي بأدنى حياة. تدفع النافذة بتأنٍّ وحذر فتطاوعها مُشرَعة، تتسلّق برشاقة اللهفة، تدخل البيت، تقع على أرضيته الإسمنتية، يتردد صدى أنفاسها اللاهثة في أرجاء البيت الخاوي إلا من البرد والعتمة، تدور في غرفتيه.. صالته.. مطبخه.. حمامه، لا أحد هنا سواها ولهاثها وعرقها البارد وسكاكين حادة تمزق رئتيها. هو الكابوس الذي لطالما راودها في مناماتها المظلمة يحاصرها الآن يحتلها بردًا وعتمة وصمتًا، لا أحد هنا يا سنية لا

سليم ولا فاطمة ولا مجير حتى صابر ودخانه الحشيشي ليسوا هنا، تُحدّق في السكون وزوايا البيت، تسير مع الظلام بجلبابها الأسود صنمًا من عجز وخوف ويأس، تتهاوى والنشيج الخافت لحن وحدتها، تتردد أصداؤه في هجير البيت، أين أطفالي.. أين أنا.. أين ضفيرتيْ؟ تَشْتدُّ اللحظات زاحفة عليها، تشهد إعلان وحدتها القارسة، إذ لم يكن يخطر في بالها أبدًا أن زوجها اللئيم صابر قد عاد إلى الالتحاق بقافلة عاره متنقلًا من مخبأ إلى آخر، لم تعلم أنّه عاد أدراجه يجر أذيال الفضيحة والخيبة إلى قريته عن المرجة وسنية الهبلة، عاد صابر هذه المرة منكّس الرأس مكسورًا برفقة أطفاله الثلاثة وزوجة جديدة تناسب اهتماماته تمامًا دبّرها له صديقه القديم رجائي.

تقف من جديد، تتفقد البيت علّها تعثر على أثر يؤدي إلى ما تطمح إليه من طفولة وأمومة، غير أنّها لا تعثر إلا على وحدتها وثيابها البالية وقهقهات صابر الحشيشية وآثاره الوحشية على جسدها ونزعات صاحبه وأنفاسه الكريهة المترددة في أنحاء البيت، تشدّ من أزر نفسها وتمسح دمعها مرتدية نقابها وتخرج من البيت مرة أخرى وأخيرة، لتعود إلى القدس دون أن تلتفت وراءها فلم يعد هناك أحد في الرام يستحق العودة من أجله والدمار والخلاص في سبيله.

***

لا تعبق سنية أريجًا في القدس، لا تَهُبُّ ابنة الربيع نسيمًا لطيفًا في أجواء البلدة القديمة، ولا تصافح سوى الجرح وصفعات زمانها المتلاحقة على ما لم يكبر وينضج بعد، إذ هو ذلك المنطق الذي تحكم من خلاله على كل ما أصابها من جنون ووحشية ودمار، ما الذي حدث؟ ما الذي سيحدث؟ تسأل نفسها، تصغي للأصوات المنبعثة من داخلها، صوتٌ للأمل

وآخر لليأس. صوت للحب وآخر للحقد. صوت للحياة وآخر للموت ثم تغوص في أعماق نفسها لتكتشف أنها امرأة منكوبة مفضوحة لا أقل ولا أكثر، امرأة لم يغمرها زمانها بما تستحقه من حياة وبضع ضحكات فقط، تعود إلى القدس. تجر أذيال الوحدة والغربة التي وعتها مؤخرًا، غربة مقيتة رهيبة تنضم إلى حصارها وتضيق الخناق عليها، ما الذي فعله صابر؟ أهكذا يختفي ومعه أطفالها الثلاثة، يندثر في الأرض؟ لماذا فعل بي هكذا صابر يا إلهي؟

ولكن ألم تكن تتوقع سنية أن مآل وحشية صابر هو ما حدث ويحدث لها الآن من خيبة وما أسبغوه عليها عنوة من عار وفضيحة؟ مجرد حمقاء اعتقدت للحظة أنها استعادت وعيها واستيقظت لتواجه واقعها ومصيرها مع زوجها، بيد أنَّها في الواقع ارتكبتْ الخطأ الفادح بكل جدارة، حين اعتقدت أنها باتت قادرة على صد هجوم صابر، وكسر أمواج صاحبه رجائي الدنيئة العاتية لتنكسر وتغرق في لُجّة العار، فهي مجرد امرأة لا أقل ولا أكثر في معمعان الرغبات وتطاول الألسنة والأيدي عليها، امرأة يا سنية لم تدرك للحظة جمالها الذي أخذ العقول وسلب القلوب، امرأة على إيقاع البراءة رقصت بعفوية رقصتها المصيرية التي أطاحت بها عن متن الانتفاضة وأطفالها الثلاثة، ماذا؟! أطفالي الثلاثة وهل أنا أم حقًّا؟ هل منحتهم ما يكفي من الحليب لينادوني«يمّا»؟ أين هم الآن؟ أين اختفوا؟ لاشيء، لاشيء سوى خريف قاسٍ مجحف بحقها وحق ينوعها، تُحصي الأوراق الجافة المتساقطة عليها. تتلقفها بيديها تسحقها وتنثرها في طقس وحدتها المرة لتقف وجهًا لوجه عارية في مغبّة المصير أمام صورتها المتوحدة والمنعزلة عن العالم والبلاد وأصل البلاد، كم أنت وحيدة.. كم أنت شجرة! تغني لنفسها سنية. تشد من أزرها ولا أزر لها ولا أصل ولا فصل، تشهد أمام نفسها بشهادات الزور أنّها امرأة قوية مفعمة بالحياة والعزيمة وفي

أجزاء من النكبة تنهار وتتهشم، لكي تجمع فتات كيانها المقطوع من شجرة وتتجرعه غصصًا، غصص البقاء والتشبث بالأماني وبالتعلق بأيام قد تحفل بها وبجمالها، لا بل قد تزودها بضفيرتيْن وسليم وفاطمة ومجير، ليصرخ بها الإدراك المنبعث من جرح ملتهب أن قومي وتذوقي ما شئتِ من هبلك العلقم لتتأكدي أنك لم تعودي على قيد الحلم والطفولة، فأنت الآن امرأة هاربة لاجئة مفضوحة مقهورة مختبئة في بيت أم حسين.

إذ إنَّ المرأة المقدسية لم تؤنبها لأنها تسللت مدفوعة بالأمومة إلى الرام دون علمها، بل تحن عليها وتمنحها من جديد المزيد من عبارات المواساة والصبر لحين اتضاح الأمور ومعرفة وجهة زوجها وأطفالها، فقد اعتنتْ بها أم حسين ورعتها، فسنية لم تزل شابة صغيرة وإن أنجبت ثلاثة أطفال، فاتنة وإن كان زوجها صابر، بهية وإن عملت خادمة وبستانية.

محطة أخرى تحط بها سنية بحثًا عن رباطة جأش وما تؤثث به قلبها من عزيمة على مواجهة الوحدة التي ألمّتْ بها وعصفت بأزهارها البرية، دون أن تلوي على شيء سوى تجرع غصص الألم والصبر العلقم الذي لقّمتها إياه أم حسين.

قالت لها المقدسية أنتِ مثل ابنتي مريم وهذا البيت بيتك، غير أن سيِّدة العزلة تدرك أنه لم يكن أبدًا بيتها، هي السارحة في مضيها وتعاستها، شاحبة على أتمّ الشرود لا يسودها الهبل بقدر ما يقسو عليها الحزن ويستبدّ بآمالها المعلقة على أسوار القدس.

واقع جديد لم تغادر فيه سنية غرفتها إلى صخب البلدة القديمة وما يشغل بالها قليلًا من همّها الأزلي، غارقة في العزلة والتّأبد في الانكسار والغربة والضياع، في ظلال الوقت الذي لا يرحمها ويسعفها بشرفةٍ زمنيةٍ تقفز منها إلى الماضي لكي تعيد الاعتبار لذاتها وجمالها وضفيرتيْها، لكي

تسترد أطفالها وتعيدهم إلى رحمها من جديد، لتلدهم من الذي تحبه والذي تحبه هجر ماضيه ولم يصل بعد إلى حاضره.

في البيت الحجري القديم لا تنسجم سنية مع أحد من ساكنيه سوى أم حسين التي تعيش فيه منذ أمدٍ برفقة زوجها العاجز، وابنها حسين بالإضافة إلى ابنتها مريم المقيمة مع زوجها في بيت صغير يقع في نفس الحارة، والتي غالبًا تقضي أوقاتها لدى أمها.

فمنذ عودتها التي لم تحرز بها سوى الوحدة والغربة أصبحت سنية على قيد الانعزال لا تشاركهم طعامهم ولا تنجذب إلى ما توفره لها أم حسين من أحاديث وأجواء فرح، بل كانت تتوغل أكثر في أعماق الغياب عن واقع لم يعترف بها ولم تعترف به يومًا، دون أن تدرك للحظة ما الذي يتوجب عليها فعله في قادم أيامها، ببضع إيماءات كانت تجيب وبكلمات معدودة كانت تُعقّب، وبسخرية مؤلمة كانت تهزأ من نفسها، هكذا كانت في بيت أم حسين على حافة الاندثار:

- لماذا لا ترسليني إلى مستشفى المجانين في بيت لحم يا خالتي؟ استريحي مني ومن مشاكلي.

في الغرفة الصغيرة تجيبها أم حسين بضيق:

- يا بنتي صلّ على النبي.. إنتي عاقلة وما في أحسن منك وبنت ناس.

- بنت ناس؟! أنا بنت ناس يا أم حسين الله يسامحك!

تطلق ضحكة رنانة كساها الفحش ثم تردف قائلة بتهكم:

- لو أنني بنت ناس وأصل لما حدث لي ما حدث.. تصوري أنا

زينة بنات عين المرجة هكذا ألقاني جدي على عتبة صابر أوسخ وأقذر رجل في العالم ومضى.. قال إنه يريد أن يستر عليّ. لماذا هل أنا مفضوحة من يوم ما خلقني الله؟ ليش البنت هي المفضوحة دائمًا يا أم حسين؟!

تغمرها أم حسين في محاولة منها لتهدئتها ومنع الهبل من احتلالها قائلة في خفوت:

- سنية.. لا تجعلي مصيبتك تدمرك.. أنت عاقلة ويجب أن نفكر معًا في حل لهذه المصيبة.

ارتعاشات الهبل والعجز تنتابها وتضغط عليها لتقصّيها عما يجري حولها من أحداث ومجريات أخفتْ في طياتها ماضيها القريب، إذ لم تكن سنية تعلم أنَّ حلاً سلميًا بات حقيقة بعد أن بات يلوح بالأفق منذ زمن أضغاث أحلام، على لسان صابر وهمساته الحشيشية حين كان يعدها بتحسّن الأحوال بعد انتهاء الانتفاضة لتطلعها أم حسين الآن عمًا يجري من حولها في محاولة منها لتهدئة خواطرها ومنحها باقة أمل تنير لها درب العودة إلى رام الله، «وَلِك يا سنية في حل سلمي، بالأمس وَقَّع جماعة المنظمة واليهود على اتفاقية سلام، سنية سيعود الفدائيون ليبنوا الوطن ويحكمونه، سوف يجيئون على مراحل غزة وأريحا أولًا ثم بقية المدن فيما بعد، زغردي وافرحي، في المستقبل القريب، سيدخلون رام الله أيضًا وسيجعلونها كما تقول الشائعات عاصمة سياسية مؤقتة لدولتنا القادمة، سنية اصبري قليلًا وتحملي الألم فبعد قليل ستتحسن الأحوال، وسيصبح هناك من يسترد لك حقوقك المسلوبة، سيصبح لدينا وطن نسرح ونمرح فيه كما نشاء يا سنية.»

وسنية لا تجيب بل تطلق لخيالها العنان في فضاء ناصر، نعم ناصر

حبيبها الفدائي، ناصر سيعود يا سنية إذا ما كان حيًا ولم تصبه رصاصة عدو، سيعود سيبحث عنك، سيذهب إلى عين المرجة ببندقيته مرتديًا زيه العسكري ليستردك رغم أنف القرية وصابر، لا بل سيجبر صابر على تطليقك في ميدان القرية وعلى مرأى الجميع أنتِ طالق طالق طالق يا سنية، ثم تتزوج وبالطبع سيعطف ناصر على أطفالي، سيحب فاطمة بالذات لأنها تشبهني، سيحميني، لن يضربني ولن يجبرني على العمل خادمة في النهار وعاهرة في الليل في بيوت الأغنياء، سأقول له احمِني يا ناصر من رجائي وأعوانه وزبانيته، اجلده يا ناصر، عذّبه لا بل وثّقه ودعني أنا اجلده، سأمزقه بأسناني، سأقتله أرجوك يا ناصر، ثم تقفز فجأة وتصفق بيديها بصخب قائلة بمرح أهبل:

- يا حبيب الله! معقول يا أم حسين بدهم يرجعوا الفدائيين على البلد؟! يعني هل أستطيع العودة إلى رام الله لكي أرى أولادي.. خلص.. فش إنتفاضة.. فِش رجائي؟!

تتراجع أم حسين مبهوتة إلى الوراء على وشك الوقوع عن سرير سنية قائلة بضيق:

- يا بنتي وحدي الله شو مالك انهبلتي مرة واحدة.. إهدئي قليلًا!

***

يشرع الضيق في مداهمة أم حسين الدؤوبة في مواساة سنية والشفقة عليها ومساعدتها، فهي حتى الآن عاجزة عن سبر أغوار سنية وفهم ما يجول في داخلها، بإحساسها الأمومي تدنو منها وتغمرها بالحنان تارة، وتارة أخرى بإحساس المرأة المقدسية المُحنكة التي باتت في لجوء سنية إليها تخشى من أقاويل وألسنة أهل حارتها، ومن انعكاس حضور سنية الآخاذ في عينيْ

ابـنها حسـين، وما بين الخوف عليها والخوف منها تتخبط أم حسين دون أن تقوى على توفير الاستقرار لسنية من خلال الوقوع على أجزاء معلومة قد تؤدي إلى صابر وأطفالها، رغم أن سنية لطالما أفصحت لها عن يقينها التام أن صابر عاد أدراجه إلى عين المرجة لكي يتوارى في بيتـه القديم هناك، غير أن أم حسـين بقدر أمومتها كانت درايتها وخشيتها القاضية بعدم التورط بما لا تحمد عواقبه من مشاكل ومستنقعات صابر التي باحت لها بها سنية، فهي في النهاية مجرد امرأة تبحث عن الستر والرزق والحياة الكريمة التي تكفل إعالة زوجها العاجز وإخراس الألسنة من حولها.

في قرارة نفسها كانت أم حسين مقتنعة ببراءة سنية، فهذه الأخيرة لم تُسئ يومًا التصرف في بيتها حابسة نفسها داخل الحجرة الصغيرة، تتعقب بخوف ما الذي ستباغتها به الأيام بعد قليل، عندما تلحظ جمال سنـية الآسر الذي لم يفنه الدمار والحزن كانت تسأل نفسها كما زوجها الذي بدأ يتململ من وجود سنية في بيته:

- ما الذي يمنعها من المغادرة والرحيل؟ بإمكانها الخروج من بيتنا الآن يا أبو حسين.. فهي بنـت حلوة وتستطيع أن تدبر أمورها ولكنها يا زلمة.. مكسورة وواجبنا أن نساعدها.

- ولكن أنا عندي إبن شاب يا أم حسـين ونحن نعيش في حارة لا تترك أحد في حال سبيله.

- لا تقلق فإبنك حسـين أنا التي ربيته على الأخلاق.. بعدين البنت حابسة حالها في غرفتها ولا تخرج منها.. وكّلها لربك يا زلمة.. ان شاء الله سنعثر على حل قريبًا.

هكذا كانت تتعاطف أم حسين مع سنية، إذ تستل لسانًا سليطًا وتقطع

به دابر الألسنة المتدلية في الحارة، بنت فاجرة جاءت بها أم حسين لتقوُد عليها، قالوا إنها فرّت من وجه زوجها بعد إكتشافه لخيانتها مع صاحبه، قالوا إنها ساقطة أخلاقيًا وأمنيًا وإن عناصر الانتفاضة يبحثون عنها، الله يسامحها أم حسين كيف تأوي هذه المشبوهة المفضوحة في بيتها؟

وأم حسين لا تسامحهم بل تلعنهم بطغيان أمومتها على شرّ الناس وأقاويلهم، تتظاهر بالشدة في مواجهتهم وفي نفس الوقت كانت تبحث بمنتهى الجدية عمّا يشغل بال سنية عن همّها الأول وتبديد خوفها وذلك من خلال السعي في توفير عمل جديد ومناسب لها لحين استقرار الأوضاع وتوفر الأجواء المناسبة التي تكفل توفير معلومات عن أسرتها، ولكنها ما إن كانت تزور سنية في زنزانتها الاختيارية حتى تغصّ بالدمع بسبب غبار الحزن والركام، ركام سنية وشرودها الدائم، فعن أي عملٍ تبحثين يا أم حسين، الزمان يعمل بسنية حفرًا وأخاديد أحزان فالبنت ذَوَتْ على وشك الانكسار والهاوية، إلى أن جاء اليوم المشهود ويا ليته لم يأتِ. اليوم الذي قررت فيه أم حسين إيجاد حل جذري لمأساة سنية، عندما حزمت أمرها وخاطرت بسمعتها وهيبتها ومضت إلى الرام حيث بيت سنية في محاولة منها لتقصّي أخبار ومعلومات قد تنير دربًا سلكها صابر وأطفال سنية.

إلى هناك مضت أم حسين بعد أكثر من خمسة أشهر من هرب سنية، تحرسها هيبتها وأصلها المقدسي مدفوعة بحبها وتعاطفها مع سنية، لتقضي ذلك اليوم بين رام الله والرام وما بينهما من ألسنة الناس وأقاويلهم، كأنها في سوق الخضار كانت تنتقي القصص والإشاعات وكل الأحداث التي ألمّتْ بسنية وأردتها امرأة من عار وفضيحة، بحسن درايتها عرفت كيف تقتنص القصص وكيف تصطاد المعلومات التي تكفل إيضاح معظم الأبعاد التي رسمت مصير سنية وأسرتها الصابرية الصغيرة، تسأل بائعًا، تتجاذب

الحديث مع متسكع في السوق، تطرق أبواب جيران سنية مدعية أنها تمت لها بصلة قرابة وأنها جاءت من الأردن لزيارتها، حتى أطفال الرام كانت تسألهم أم حسين بقطع الحلوى، وأما من فاجأها بشدة ذلك النهار هم أهل الرام الذين كانوا يتحدثون عن سنية كما لو أنها هربت بالأمس. لا لم ينسوها كانت عالقة بشدة في أذهانهم.

ريثما عادت في آخر المطاف من الرام إلى القدس مثقلة بمآسي سنية التي سمعتها من أناسٍ كانوا مقتنعين بما أطلعوها عليه، للدرجة التي كادت فيها أم حسين تصدق أقاويلهم ولكن بماذا تقتنع وماذا تصدق حين تعود إلى بيتها لاهثة من وطأة الشائعات حول سنية، إذ تطرق باب سنية في المساء وتحدق في وجهها البريء ذي الجمال الشاحب من شدة الغربة، لتكتوي أم حسين بالتساؤل الحارق هل هي كذلك حقًّا؟ هل هي ما قالوه عنها بالفعل؟

سألتها سنية وهي تنهض من سبات شرودها بخشية أثارتها جِدّة التحديق:

- ماذا هناك يا خالتي.. لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

أطرقت أم حسين للحظات ثم دنتْ من سنية ومسّدتْ على كتفها قائلة بحنان:

- اليوم كنت في الرام.. قاطعتها سنية منتفضة بلهفة:

- وهل عثرت على أحد من أسرتي؟! قولي لي.. هل سأعود؟

تنهدت أم حسين قائلة بحرقة:

- لم أعثر إلا عليك هناك.

- ماذا تقصدين؟!

- سنية.. قولي لي كل شيء يا بنتي.. قولي.. صارحيني أنا مثل أمك.

- ماذا أقول يا خالتي؟!

- الناس هناك لم ينسوك.. لقد تحدثتُ مع الكثيرين.. معظمهم قالوا نفس الشيء.

- وماذا قالوا؟!

- قالوا قصص وأشياء لم أصدقها.

- يبدو أنك صدقتيهم.

- لا يا بنتي.. أنا...

قاطعتها سنية من جديد بعصبية هذه المرة:

- أنا أعلم ماذا قالوا.. قالوا إنني قحبة أليس كذلك؟! وإنني أنام مع الأغنياء وأنني أغوي شباب الانتفاضة، إنني أشتري الحشيش لزوجي وإنني مجنونة وإن أطفالي ليسوا أولاد صابر وإنني أعمل عند اليهود.

حدقت بها أم حسين بصمت آثار جنونها فهزّت كتفيْها بشدّة قائلة بتوسل:

- ماذا هناك يا خالتي قولي مشان الله؟

فأجابتها بسرعة وضيق وهي تبعد يديها عنها بجفاف لم تعهده بها سنية:

- قالوا إنك خائنة.. يعني عميلة.. يعني جاسوسة لليهود.. وإن شباب الانتفاضة حققوا معك ولكنك هربتِ منهم.. لذلك أحلّوا دمك وسيعدمونك باسم الانتفاضة عندما يعثرون عليك.. وإن زوجك تبرّأ منك ورحل عن الرام، قالوا إنك مختبئة في القدس.. هل أنتِ كذلك قولي؟!

شحبت سنية مرتجفة محتضرة على وشك الموت اختناقًا، ثم أخذت تلطم على خديها وتشد شعرها بشراسة نفرتْ منها أم حسين التي وقفت بجانب السرير تراقب انهيارها، انخرطت سنية في موجة بكاء عارمة ذهبت بصوتها، بكتْ وهي تنظر إلى أم حسين الواقفة أمامها واجمة، عاجزة عن تهدئتها كأنها صدقت للحظة ما قالوه عنها.

قفزت من السرير ووقفت منتصبة في وجه أم حسين، إذ أقلعتْ من نوبتها الهستيرية فجأة ثم دنت منها وهزّتها بعنف متسائلة:

- هل صدقتهم؟! أجيبيني.. هل صدقتهم؟!

طأطأت أم حسين رأسها حزنًا وحيرة فأردفت سنية بصوتها المبحوح:

- يا خالتي.. أنا خائنة؟! أنا عميلة؟! طيب جاسوسة على مين ولصالح مين؟! كيف يا خالتي أخون وطنًا لم أعرفه يومًا قولي بالله عليك؟ كل شيء قد أستوعبه إلا أن يقولوا عني خائنة وبأنهم سيعدموني.. مجنونة وقلنا آمين.. خدامة وقلنا آمين.. زوجة صابر وقلنا آمين.. وقحبة وقلنا آمين.. ولكن خائنة!! لأ مستحيل.. صدقيني وحياة أولادي أنا لست خائنة يا خالتي.

ثم انهارت على الأرض ببكائها المرير متشبثة بقدمي أم حسين إلى أن أصابتها رجفة شديدة أطاحت بوعيها.

***

استيقظت في الصباح على أصوات عالية توحي بشجار عائلي حاد داخل بيت أم حسين، شعرتْ بآلام شديدة في مختلف أنحاء جسدها وطنين حاد في أذنيها، ما الذي حدث؟! تأوهتْ. تململت ببطء. ثم تذكرت دفعة واحدة كل ما ألقته عليها أم حسين مساء الأمس لينتابها البكاء الخافت في سرير الخيبة، تناهت إلى مسامعها مجددًا الأصوات التي تلوك اسمها وسيرتها، فهل تخرج إليهم؟ هل ستجرؤ على القول لهم إنها ستريحُهم منها ومن سيرتها؟ وستنصرف من حياتهم فهي ليست ابنتهم أو حتى قريبتهم؟

ما إن أوشكت على النهوض من مصيبتها حتى فتحت أم حسين الباب ودلفت ساخطة لاهثة تحاول قدر الإمكان استعادة أنفاسها والتحكم بأعصابها، جلست بجانبها على طرف السرير، ران صمتٌ مشبعٌ بالترقب من قبل سنية والتحديق من قبل أم حسين التي هدأت عواصفها الثائرة أخيرًا قائلة بصوت مبحوح حزين:

- سنية.. لا أريد مشاكل يا بنتي.. أنت على راسي من فوق.. وأنا بالنسبة لي لم أصدق كلمة واحدة مما قالوه عنك.. بل أصدقك أنتِ وأنت أشرف من الشرف.. ولكنني لن أستطيع حمايتك هنا.. إنهم يعرفون يا سنية أنك مختبئة في القدس.. ومن خلال معارفهم سيصلون إليك وسيعرفون أنك مختبئة عندي.. لذلك سامحيني يا بنتي على ما سأقوله لكِ.

توقفت عن الحديث لتأخذ أنفاسها في حين كانت سنية تحدق بها ببلاهة واستغراب، ريثما استطردت أم حسين حديثها بحزم وجدية هذه المرة:

- أنا لن أتخلى عنك ولن أتركك للشارع وكلابه.. أنا دبرت لك عملًا بعيدًا عن الأعين والقدس.. غدًا سأرافقك إلى يافا.. إلى

مطعم بحري ستعملين به.. يملكه رجل يافاوي محترم اسمه أبو طوني.. كما أنني سأؤمن لك سكنًا لدى قريبة لي تسكن في حي العجمي.

هكذا لم تأخذ رأي أو مشورة سنية الغارقة في الذهول والخذلان، إذ من حق أم حسين أن تخذلها بعدلٍ ومساواة، هكذا تسخر من نفسها سنية إلى أن قالت بصوتها المبحوح:

- بل سأعود إلى رام الله.. سأعود إليهم.. يريدون قتلي فليقتلوني أحسن من هذه الحياة الخائنة..

- لا بل اصبري قليلًا.. لعلّ الأمور تتحسن بعد استلام جماعة السلطة لرام الله.

- وما الذي سيقومون به من أجلي؟ هل سيقولون سنية ليست خائنة؟ خلص يا خالتي.. الفاس وقعت في الراس.

ساخرة من نفسها تسبّ وتلعن وتهمهم إذ تحطمت، لقد اقتلعوها. اقتلعوا سنية من أعماق تربتها وألقوها بها في محرقة الأيام فمن يطفئها ويعيد غرسها في تربة الوطن المخضبة بدماء الشهداء والعشاق؟

قالت لأم حسين بتهكم جارح:

- يا إلهي ما أبعد يافا يا خالتي ولكن لا بأس.. سأذهب فأنا مجرد خائنة خائفة من الإعدام.. ألا يقول المثل اللّي ما عندو أصل بشتريلو كفن.

- لا.. لا تقولي هكذا عن نفسك.

- لا بل سأقول.. حتى أنت صدّقتِ أقاويلهم..

- لا، لم أصدقها.. أقسم بالله إنني أحبك كابنتي مريم، ولكنني لا أريد مشاكل.

- مشاكل أم فضايح؟!

صمتت أم حسين وأحاطت وجهها بكفيها للحظات دون أن تجيب، ثم انصرفت بعد أن طبعت قبلة مواساة على جبين سنية، تركتها لكي تجهز نفسها وتستعيد عزيمتها فالدرب باتت أوحش الآن ولا أحد فيها سواها، خاصة بعد أن علمت سنية ابنة الربيع أن الشائعات في بلدها تحولت إلى حقائق سوّغها للناس رجائي وعصابته المارقة، سنية لم تعد هبلة في اعتقادهم بل خائنة تتهبل عليهم..

الفصل الثامن:

أنتِ منذ الآن اسمكِ هو سونيا.. سونيا جذاب أكثر من سنية.

فليكن.. سونيا وربيع عام 1995 ويافا.

حسناء مثلك لن أخفيها ما بين الأطباق وسخام وبقايا الطعام في المطبخ، بل هنا في الصالة الكبيرة، ستكونين نادلة المطعم الأجمل، أريد أن أتباهى بك أمام الجميع.

فليكن.. سونيا ومطعم سميراميس البحري ويافا أو بقايا يافا.

صحيح أنكِ من الضفة الغربية.. ولكن إتقانك للغة العبرية وطلّتك البهية وأرجو أن لا تفهميني غلط سيكونان كفيلان بإبعاد أعين الشرطة المختصة بتصاريح العمل والهجرة عنك خاصة أنْ مطعمي يعمل فيه عرب ويهود ولن يعثروا عليكِ هنا.

فليكن.. سونيا وشعر أسود قصير يأبى الضفيرتينْ ومنديل الرأس ويافا.

- الإقامة في حي العجمي ليست مشكلة ما دمتِ لا تتدخلين في شؤون أحد.. ويبدو من هيئتك أنك مُسالمة وهادئة ولا تحبين الثرثرة.

فليكن.. سونيا وإشراقة وبسمة شاحبة وإطلالة يافا وبقايا صغيرة.

- محسوبك عَمك «أبو طوني» صاحب أفضل مطعم سمك في يافا.. كل الطبقة المخملية في «تل أبيب» تأتي إلى هنا لتأكل أشهى المأكولات.. وهنا أنتِ معي بأمان وسترتاحين في العمل لدينا فأم حسين أوصتني بكِ خيرًا.

فليكن.. سونيا وانزياح ذاكرة واستنشاق هواء نقي ويافا وعروس مهجورة.

- «أنا تمارا» زميلتك هنا وأنا لا أصدق أنك عربية.. اعذريني أنا لا أقصد شيئًا بل أُبدي دهشتي بحضورك وجمالك.. ولا تفهميني غلط أرجوكِ!

فليكن.. سونيا ودغدغة أنثى وأفق البحر وعينان سابحتان في الفيروز المتمدد ويافا وعروس البحر.

***

تستيقظ الأنثى في داخلها، حين تتعافى من طعنة أصابتها كوردة في حديقة شتائية لفّتها شمس صباحية بالدفء لتزهر مُشرقة في سماء يافا.

لا، ليست هي نفسها سنية القاروطة التي زفّتها القرية إلى الجنون، وليست أيضًا سنية الخادمة التي كاد جسدها يلتوي آثامًا أسفل الثراء الفاحش، وليست سنية البستانية التي دبكتْ وغنّتْ أهازيج قريتها البعيدة في الروضة اليهودية، وليست سنية التي ادّعوا أنها خائنة وكادوا يزهقون روحها، بل في الطريق إلى مكان آخر مكتظ بالمفاجآت والمجهول تتجدد، للدرجة التي تصبح فيها سنية هي سونيا. في الطريق إلى مصير آخر شرحت لها أم حسين يافا كل يافا وطبيعة الحياة فيها، وأنها ليست مثل

القدس، فسنية الآن في خضَم الغربة والمسافة باتت شاسعة ما بينها وبين أهلها وأصلها ولا تحتمل الخطأ أو الهبل: سنية.. يافا حلوة.. الجميل فيها أن لا أحد يتدخل بأحد.. ولا يوجد فيها أسئلة كثيرة وهي مختلطة.. يعني عرب ويهود.. ولكن اليهود أكثر.. وحي العجمي جميل وهادئ وفيه دبرتُ لك سكنًا لدى إحدى قريباتي وهي بنت ناس وأصل.

وهذا ما لن ترضى به بعد قليل سنية التي أومأت برأسها بشرود داخل سيارة الأجرة هائمة في السهل الساحلي الممتد أمامها والمؤدي إلى يافا، سارحة بألف سؤال واحتمال، تشد من أزر نفسها، قد تدعي هذا الأمر ولكنها نجحت بإدّعائها للحد الذي ارتاحت فيه أم حسين واطمئنتْ أنَّ سنية لن يمسّها حزن أو هبل هنا في يافا، فسنية قررت على حين غرة النسيان والنأيْ بنفسها عن الأوجاع الناجمة عن الحكم عليها بالخيانة والإعدام، لا لن تفتح ثقبًا في صندوق الذاكرة لترى منه ظلام ماضيها وعتمة أطفالها وظلم زوجها، لا ولن تسمح للهوان أن يتسلل إلى عزيمتها، إذ هي الآن في يافا. قالت لها أم حسين في الطريق إلى مطعم «أبو طوني»:

- أبو طوني زلمة محترم بخاف الله.. ومن المؤكد سيكون عونًا لك.. سنية مشان الله لا تحرجيني معه ولا ترتكبي أي حماقات.

ضاقت سنية ذرعًا بوصاياها، ومن عناء موكبهما الصغير المثقل بالنسيان وحقيبة ملابس صغيرة ورطوبة يافا المُشبعة بملح البحر:

- يا أم حسين هلكتيني.. خلص بكفي وصايا وأوامر.. لا تخافي!

- بل سأخاف!

- يا هبلة هذه ليست القدس.. هذه «تل أبيب».

قاطعتها سنية متسائلة ببـراءة: أليست هذه يافا وهذه البيوت القديمة من حولنا هي بيوت يافا؟!

- «تل أبيب» هي يافا ويافا هي «تل أبيـب» التي التهمتْ كل ما تبقى من يافا التي أصبحت إحدى ضواحيها الجنوبية.

- شو يعني؟

- يعني تل أبيب فليم رعـب.. بتخوّف.. مدينة كبيرة لا يوجد فيها رحمة.. وبنت حلوة مثلك لازم تدير بالها على حالها.

- هل تعتقدين أنني مازلت هبلة يا خالتي؟

- لأ يا حبيبتي ولكن أنا أحذرك وأوصيك فقط.

- حسنًا لا تخافي..

بيدَ أنَّ أم حسين ورغم اطمئنانها على النسيان المؤقت الذي انتاب سنية وأراحها من ماضيها الرهيب، إلاّ ألمحت هي التي تخاف. ولم لا تخاف وهي تلمح دهشة سنية وأنفاسها التي أخذتها هذه المدينة العملاقة بناطحات سحابها وشوارعها المكتظة بكافة الأجناس والألوان؟

تخاف أم حسين من بريق عينَي سنية المحدقتين في سحر «تل أبيب» أثناء سيرها جنوبًا في الطريق القديم المؤدي إلى يافا، إلاّ أنها تدرك في نفس الوقت أن «أبو طوني» لن يتهاون في حماية سنية ورعايتها،«أبو طوني» العجوز الستيني بصلعته الصغيرة التي يحيط بها ما تبقى من شيب رأسه المهيب ووجهه المستدير السمين الذي يحتل وسط شاربه الشامخ كقوس نصر مقلوب على خديه المشوبيْن بحُمرة خفيفة، رجل قصير القامة ممتلئ الجسد، يعكس حضوره ألفة تُشعر المرء أنّه يعرفه

منذ أمد بعيد. ترعرع في يافا وكبر في يافا. ينحدر من أسرة عريقة ضاربة جذورها وأصالتها في ساحل يافا رغم نكبة عام 1948 ومآسيها وأعاصيرها، ورث المطعم عن أبيه الراحل ليطوره ويضيف إلى جانب المطبخ الشرقي أشهى أصناف الأطعمة البحرية الغربية، هذا ما أكسبه سمعة حسنة وإقبالًا شديدًا، هو العجوز الأرمل الذي فقد رفيقة عمره أم طوني قبل عشر سنوات إثر سرطان الدماغ الذي أذوى عمرها الأربعينيّ في ذلك الوقت، ليبقى وحيدًا وفيًا لذكرى زوجته ورفضه لمناشدة ابنه طوني وابنته منى بالزواج من جديد، مفضلًا التركيز في إدارة مطعمه الناجح في الوقت الذي كان فيه مطعم العائلة التاريخي لا يستدعي اهتمام ولديه، فطوني يعمل طبيبًا عامًا ومنى ربة منزل ارتأتْ العناية ببيتها وأطفالها ما دام زوجها رجل الأعمال الناجح يؤمن لها حياة مُرفَّهة وكريمة.

هذا هو «أبو طوني» الذي ما إن رأى سنية تقف إلى جانب أم حسين بهدوء واستسلام، حتى قفزت عيناه من محجريْها نحوها معتقدًا أن أم حسين كانت تهزأ به عندما هاتفته منذ شهر طالبة منه إسداء معروف لها بتوفير العمل لامرأة فقيرة معدمة من رام الله، مستعدة للعمل كخادمة أو عاملة تنظيف في مطبخ المطعم، تأملها أبو طوني بذهول ثم هتف بصوته الدافئ الذي لا يثبت سنّه الطاعنة.

- الله يسامحك يا أم حسين.. هل تريدين مني أن أخفي هذا البدر في المطبخ.. مستحيل.. هذا البدر لا يتجلّى إلاّ في منتصف المطعم.

توَرّدتْ وجنتا سنية خجلًا ونكّستْ رأسها أمام مزاحه ومرحه الذي يبدد حضوره العجوز، فتنحنحت أم حسين قائلة برجاء:

- أبو طوني هذه البنت أمانة عندك.

ثم انخرطا في حديث ودّي لم تسمع منه سنية شيئًا لأنها كانت هائمة في أبهة المطعم واسترخائه الشامخ على شاطئ يافا بمساحته الواسعة التي تؤكد فخامته وقدرته على استقبال أهم الزبائن، فقد كان كناية عن قصر قديم امتزجت في معالمه وهندسته المعمارية فنون العمارة الأندلسية والفكتورية بصلصال ممزوج من الشرق والغرب وحجارة قُدَّتْ من صخر التاريخ، لتتجلى أبوابه أقواسًا مزخرفة باللغتيْن العربية واللاتينيـة ورسومات مُطعّمه بفسيفساء فيروزية وخمرية عكست أبهةً تُغري الزبائن بالدخول إلى باحة المطعم الداخلية الواقعة في منتصفها نافورة ماء كأنها حطتْ لتوها من يافا قادمة من قصر الحمراء في غرناطة، تحيط بها منافذ خشـبية خمرية اللون متعددة الأحجام ومقاعد مخملية سوداء وثيرة، إذا ما استرخى الزبون بعد تناول السمك الشهي ومال رأسه إلى أعلى فإنه سيشاهد بكل سرور القباب الصغيرة المستعارة من قصور ألف ليلة وليلة بلورية ملونة، بالإضافة إلى الشرفة الخارجية المُطلّة على البحر بدلال وجمال مثبتة للزبائن أنها الأفضل لتناول العشاء برفقة بحر يافا.

فتنها المطعم بأجوائه الرائعة، غير أنّها لم تسمح لنفسها بالمزيد من الشرود، وعادت إلى الحوار الثنائي لتسـمع اسمًا غريبًا به من الموسيقى العذبة ما يكفي لمراقصة أنوثتها في أجواء زغرودة أطلقتها من حلقها امرأة جديدة، جديدة جدًا للدرجة التي صار اسمها هو سونيا.

وأما الغريب في أمر سنية قبل أن تصير سونيا هو رفضها لما وفرته لها أم حسين من غرفة صغيرة كما قالت لها في بيت إحدى قريباتها القاطنات في يافا، إذ رفضت سنية العرض دون مقدمات على مرأى ومسمع أبو طوني ومكتبه قائلة بحدّة: منذ الآن لن أقبل العيش في ذمة أحد.

- شو قصدك يا سنية.

- لا تزعلي مني يا خالتي.. أنا بدّي أسكن لحالي.. دبّريها إنتي معلمة وقادرة على توفير سكن لي وحدي.

- ولكن الغرفة لك وحدك!

- لأ.. بدّيش.. بدّي أسكن في بيت صغير مستقل عن قرف أسئلة الناس.

- يا مجنونة.. إيجار البيوت والشقق السكنية غالي كتير هنا.. بتفكّري حالك برام الله يا خالصة.

- دبريها..

ثم وجهت حديثها وعينيْها الواسعتيْن بالفتنة نحو أبو طوني قائلة وهي تخاطب أم حسين:

- إسألي عمي أبو طوني.. يمكن أن يُدبّر لي مكانًا للنوم داخل المطعم.

صاحت أم حسين بسخط.. والله إنك مجنونة.

- آه أنا مجنونة.!

تدخل أبو طوني بضحكة قصيرة عذبة قائلاً: لا عليكِ.. البيت موجود.. يافا كلها تحت أمرك.

لم تشكره، بل رمقتْ أم حسين بخبث مشوب بالاستهزاء.. إذ نجحتْ سنية قبل أن تصبح سونيا بلحظات في انتزاع استقلاليتها وخصوصيتها من أم حسين التي رعتها واهتمت بأمرها، كانت تسعى إلى التحرر من قيد الوصاية لكي تقوى على مواجهة وتدبير أمورها بنفسها، هكذا قررت سنية فجأة دون سابق إنذار أن تتخلص من كل شيء، أن تنتزع جذور الضعف

والمذلّة، لا تريد غرفة دبّرتها لها أم حسين، لا تريد أن تبقى أسيرة للعنات ماضيها، إذ تريد أن تكون سونيا كما أسماها «أبو طوني»، سونيا الساكنة وحدها في بيت صغير عتيق هُجّر أصحابه في نكبة عام1948 .

هكذا تجاوزت تحديها الأول، لتصبح مستقلة تتمتع بأعلى قدر ممكن من سحر الشخصية وقوتها، والأهم استقلاليتها رغم إتفاقها مع أم حسين على إبقاء التواصل فيما بينهما لمعرفة أخبار رام الله وأحوال أسرتها وظروفها، فقد كانت متأكدة بأنّ إقامتها أو تخفيَها هنا في يافا ما هو إلاّ حالة مؤقتة لحين توفر إمكانية عودتها إلى رام الله، خاصة بعد تسلّم السلطة الوطنية الفلسطينية لمقاليد الحكم والأمر هناك.

***

وأما في أجواء مطعم سميراميس، فقد كان تحدّيها الثاني، يتمثل بضرورة تعلمها وإتقانها بأقصر فترة ممكنة، فنون تقديم الطعام وتلبية طلبات الزبائن وكيفية حمل الأطباق والمشروبات وكل ما يكفل إحالتها إلى نادلة فاتنة، ولهذا الغرض قام «أبو طوني» بإخضاعها لبرنامج تدريب مكثف على أيدي أمهر العاملين لديه في طاقم المطعم، موصيًا الكبير قبل الصغير بأهمية رعاية سونيا والاهتمام بها، مُفردًا لتدريبها في هذا الجانب أمهر نادلة لديه وهي «تمارا» التي سعت جاهدة نحو مواكبة جمال سونيا المباغت والعفوي في أنحاء المطعم، وتمارا هي فتاة يهودية من عائلة إشكنازية غربية ذات أصول بولندية، تبلغ من العمر عشرين عامًا تعمل في المساء نادلة وفي النهار طالبة سنة ثالثة في كلية الحقوق في جامعة تل أبيب، حيث قررت العمل لتوفير ما تستطيع توفيره من قسطها الجامعي، بعد أن قررتْ تتحرر من وطأة أسرتها والاستقلال عنها، سعيًا منها وراء تحقيق أحلامها بصورة منفردة عن وصايا الأب وتعاليم الأم، شقراء

ساطعة بشعرها الذهبي وبياضها الثلجي، ممشوقة القوام، فارعة الطول إلا أن عناء السفر مُحبّذ إلى عينيْها الزرقاوينْ حيث أعالي الفتنة، وكان اختيار «أبو طوني» لها في سبيل تعليم سونيا وتدريبها موفقًا في الوقت الذي لم تكن تعلم فيه تمارا أن خجل سونيا وأحاديثها وإجاباتها المُقتضبة وصمتها المبالغ فيه، ناتج عن حفرها لخنادق عميقة لا تسمح لأحد من الذين حولها باختراق دفاعاتها بالأسئلة الحادة المطالبة بأصلها وعائلتها وماضيها، إذ وحده «أبو طوني» كان يعرف من أين جاءت سنية من خلال الصورة العامة التي زودته بها أم حسين دون أن يخوض بإصرار فضولي في ماضي سنية، يكفيه أنّها باتت الآن سونيا النادلة البهية ذات حضور جذّاب وإطلالة آخّاذة، تعلمتْ في زمن قياسي كيف تكون نادلة بارعة بفن تقديم الطعام وسؤال الزبائن عمّا يرغبون في تناوله من عشاء باللغة العبرية أو العربية وذلك حسب نوع وجنس ولون الزبون، بالإضافة إلى براعتها في رسم تلك الابتسامة الخلّابة القادرة على أسر فؤاد أعتى الرجال جاذبية من زبائن المطعم، لتنجح سونيا بالنهاية بفضل اهتمام وتدريب تمارا لها أن تصبح من أمهر وأبرع النادلات في المطعم، في ظل دهشة «أبو طوني» الذي بارك صداقة تمارا وسونيا الناشئة ما دامت ستزيد من حضوره الطاغي معًا في المطعم.

والآن ها هي سونيا تخطر بين الموائد، سونيا تُدّون ما يطلبه الزبائن. تبتسم.. تلقي عليهم صوتًا سلامًا ناعمًا عربيًا أو عبريًا، تضحك. تُعلّق بسخرية على أحد الزبائن الذي حاول إغرائها بكلامه المعسول بسهرة عامرة في بيته الفخم، سونيا تراقبهم من وراء نافذة مطبخ المطعم المعتمة المطلة على الصالة الكبيرة منتظرة دورها في تلبية مطالب وأوامر الزبائن، كانت تتأملهم متنهدة بحرارة وهي تتمنى أن تكون بينهم في مائدة مزدحمة بالترف والسرور لا أن تخدمهم طيلة الليل بإرهاق وتعب شديدين في

سبيل ما يكفل لهم عشاءً فاخرًا في مطعم «أبو طوني». تبثُّ سونيا النادلة الساحرة حسرتها لتمارا قائلة: انظري كيف يأكلون ويشربون كأنهم من عالم آخر.

فتجيبها تمارا بسخرية: سونيا أنت حمقاء.. لماذا لم تقبلي عرض ذلك الرجل السمين؟

فترد عليها سونيا بسخط: تمارا.. قلتُ لك ألف مرة.. أنا لا أحب ان أسمع مثل هذا الكلام.. أرجوكِ تمارا.

- حسنًا لا تغضبي ولكن أرسليه إليّ على الأقل!

ثم تنخرطا معًا في ضحكة صاخبة.

لقد كانت سونيا تعلم أنَّ تمارا لم تكن لتعترض أو ترفض عرضًا سخيًا من أحد الزبائن، كانت واضحة صريحة في هذا الجانب، لا لأنها مُستقلّة كما كانت تقول لسونيا، بل لأنها كانت تريد أن تخوض مغامرتها المثيرة المجهولة علّها تتعثر بالنهاية بتجربة تشد من عزيمتها، أو رجل ثري يتحول فجأة إلى شريك حياتها الذي سيدلّلها ويُريحها من مشاق العمل والحياة، وهذا ما كانت تنفر منه سونيا وترفضه بدورها، إذ لم تكن تفكر مجرد التفكير برؤية تمارا للواقع ومغامراته وتجاربه.

تمارا صديقة سونيا الوحيدة في العمل، حاولت جاهدة سبر أغوارها، كانت بحدسها الأنثوي الذي لا يخيب تلمس تقلبات سنية أو سونيا المفاجئة، وتعبها ويأسها الطارئيْن من العمل وتهالكها في الركن الخلفي للمطعم المهجور من قبل الأناقة والأضواء مجهشة بالبكاء المرير. لم تكن تمارا في البداية لتكترث بما ينتاب سونيا من نوبات حزن وكآبة، إذ كانت تعزو هذه العوارض إلى مزاجية سونيا السوداء وعدم استقرار شخصيتها

وحالتها العاطفية، لأنها بعيدة عن أهلها وبلدها، ولكن هل بلغتْ الصداقة حدًا تستطيع تمارا من خلالها أن تسأل سونيا عن أهلها وأصلها؟ أبداً، لم يكن هذا بحسبان سونيا، إذ لم تكن لتتهاون في التكتم على ماضيها.

في الوقت الذي كان يعمل في المطعم عمال ونُدُل عرب، يعلمون أنَّ سونيا عربية مثلهم، ومن منطقة ما في الشمال، من الجليل، أو من الناصرة، وبأنَّ الأقدار الصعبة أجبرتها على العمل نادلة في مطعم بعيد عن مكان سكنها، ولكن أيًا منهم لم يسألها أو يخوض معها في نقاشات وأحاديث وأسئلة تشير إلى ماضيها ومصيرها الأسود، لأنها كانت تُحبّذ الانسحاب من أمامهم وتحديد العلاقة ورسمها بالمجاملات والعبارات الرسْمية، كانت لا تشعر بالألفة والراحة إلاّ في حضرة «أبو طوني». الرجل ذو الحنان الأبوي الذي غمرها به لتشعر بالراحة والأمان، ولذلك لم تخذله سونيا في العمل بجد وجاذبية وثبات وجمال.

***

عندما نشعر أنَّ ثمة أحلامًا بدأت تتجلّى حقيقة، نشرع بالخوف أثناء تلمّسها بحذر شديد معالم الطريق وإلى أين ستؤدي عواقبها.

في سكنها اليافاوي الواقع فيما تبقى من البلدة اليافاوية القديمة، تختزل سونيا الحياة بمصائرها وتاريخها وأقدارها بطموحها الصغير، وهو أن تُعد نفسها بصبر وسكينة وتحدٍ من أجل العودة المرتقبة إلى بدئها، ولكن بشخصية جديدة وقوية هذه المرة تكفل رد الاعتبار لشرفها المطعون، وكرامتها المهدورة، واستعادة أسرتها الصغيرة بلا صابر ولوثة صاحبه رجائي، فعلى قدر تفتحها هنا سونيا جميلة وخلاّبة، كان يعلو صوتها الداخلي الصافي المُطالب باكتشافها لتلك القُدرة الخلاّقة على التحكم بمجريات حياتها ورسم ملامح مصيرها، كانت مؤمنة أن إبعاد أم حسين لها ووقايتها

من مغبة عودتها اللامحسوبة إلى الرام، أو قريتها عين المرجة هو الحل الأمثل والملجأ الآمن لها لكي ترتاح قليلًا من عبء ما ألمّ بها في الرام، لتتجرد دفعة واحدة من مصائبها وهمومها ملقية بها وراءها، لا لتنساها أو تتجاهلها بل لتحيلها وقودًا يدفع بها نحو مرحلة جديدة تتقدم نحوها بتؤدة وإصرار وحذر، نحو مستقبل لا ينعم فيه سواها وأطفالها الثلاثة، إذ هي سونيا الآن. لا ضيْر يا سنية من سونيا مؤقتة جميلة قادرة على العمل والعناية بنفسها وصَون شرفها الذي طُعن هناك ليلتئم هنا، لا ضيْر من العمل في مطعم لا تُكلله الأشجار والأزهار، فقط أمواج من بحر يافا الهادر، ونسائم مُشبعة بالملوحة ورائحة اليود المنبعثة من أعماق البحر، لا ضيْر من عيون تترصّدها دون أن تقوى على اصطيادها، وألسنة تتفوه غزلًا ووعودًا دون أن تجرؤ على لمسِها أو تقبيلها، من أعناق مُشرئبة تتوخى تَعشّق أريجها الفردوسي وعبقها الآسر، لا ضيْر من أن تقولي كم أنا فاتنة وجميلة، كم أنا وحيدة في يافا.. كم أنا بعيدة عن رام الله.. كم أنا لستُ أمًّا لأطفال ثلاثة لا ذنب لهم في هذه الحياة سوى أمهم التي أصابها هبل خريفي في عز ازدهارها، وأبٍ صار مستنقع نزوات في عز الانتفاضة.

سونيا تكبر في يافا لتزهر زينةً لمطعم «أبو طوني» الذي تباهى بها وعاملها معاملة خاصة أثارت كالمعتاد غيرة وضغائن من حولها من طاقم المطعم:

- سونيا.. أنتِ أيقونة مطعمي.. ومن يزعجك يزعجني.. ومن يسيء إليكِ يسيء إليّ.

- شو يعني أيقونة عمي أبو طوني؟

- أيقونة يعني شيء مقدس وجميل.

- وهل أنا مقدسة؟!

- أنت ملاك المطعم منيح هيك؟

- منيح.

هكذا ما بين لحظة وأخرى ويافا ورام الله، لا تتنكر سونيا لطفولتها السنية بل تستعيدها بلذة وسرور، فما ما ميزها وجعلها مثار دهشة للذين عجزوا عن سبر أغوارها وفض غموضها وإنارة مجهولها، حتى أن تمارا كانت في بعض الأحيان تحسد سونيا على ذلك المقدار الهائل من البراءة الذي تتمتع به إلى جانب جمالها:

- سونيا أنتِ بريئة للغاية.. يا إلهي كم أنتِ قاسية على نفسك!

- وما الذي تريدين فعله لكي أصبح طيبة إزاء نفسي؟

- امرأة جميلة مثلك يجب أن تحيا.. أن تفرح.. أن تتنزه.. عيشي حياتك.. تحرري من سجنك.

- إلى أين أذهب؟ ما العمل؟

(هذا العالم كله لكِ.. عيشي.. أنتِ جميلة وعزباء.)

تتساءل سونيا مُتهكمة بحسرة دفينة: أيُ عزباء وأيُ حياة.

فتجيبها تمارا بضيق:

- الحياة التي تحلم بها كل إمرأة جميلة مثلك.. أنتِ تعملين جيدًا، وراتبك جيد، والبقشيش ممتاز وأبو طوني يحبك.. قولي لي بالمناسبة أين تُبذرين مالك؟

فترد سونيا بفصاحة على التساؤلات التي هربَتْ في ثناياها تمارا أكبر قدر ممكن من الخبث والفضول:

- أبو طوني يحبني لأنني مجتهدة بعملي ولا أزعج أيَّ زبون ولا أنام معه مثلك.. والمال الذي أكسبه أرسله لعائلتي.. وكفى أسئلة أو أنني سأقوم بطبخك وتقديمك عشاء لذلك الرجل الجائع الذي ينتظر طعامه من يدك.

ثم تضحكان معًا، لا بل تمارا وحدها من تضحك بصدق، وأما سونيا فقد كانت تدعي ذلك، ممثلة بارعة كانت تُخفي خلف الضحكة أصداء حزنها كاتمة الحسرة وآهاتها، فما قيمة العمل بالنسبة إليها سوى أنَّه يواسيها وينأى بها عن ذاكرتها المفجعة؟ ما قيمة الراتب السخي؟ هكذا تسأل نفسها في ركنها اليافاوي العتيق وهي تُكدّس ما تكسبه من مال في دولابها، ما قيمة المال إذا لم ينعم به سليم وفاطمة ومجير؟ ما قيمة الكدّ والتعب إذا لم أعد إليهم؟ ماذا تعني يافا وشذى برتقالها ما دمتُ لا أقدر على استنشاق أي شيء سوى دخان حرائقي الداخلية؟ أليست تمارا على حق؟ لماذا لا أسهر وأتنزه؟! من يعرفني هنا؟ لا أحد. من يدرك أحزاني؟ لا أحد. من يعرف ماضيَّ وبؤس أيامي السابقة؟ لا أحد. لماذا لا أُبهر بحسني من حولي؟ لماذا لا أتجول في يافا وساحات وشوارع تل أبيب؟ لماذا لا أرافق تمارا إلى سهرة من تلك السهرات التي لطالما حدثتني عنها ودغدغت أنوثتي بها؟ لأنني محطمة وهاربة من عار ليس لي، وخيانة تلبستني وبلاد أضاعتني وهبلتني، أنا التي هجرني حبيبي الغدائي الذي غمرني شعرًا عن هذه البلاد، التي أعمل فيها الآن خادمة وبستانية ونادلة، أنا الأم التي لم تعثر يومًا على الأمومة في صدرها، أنا التي حتى هذه اللحظة أحصي ندوب صابر على جسدي دون أن أستوعب أن ثمة ثلاثة أطفال يحلمون بي وبلقاء عاصف يجمعني بهم، فهل تعلم تمارا بذلك؟ هل يعلم «أبو طوني» أنه يتباهى بزهرة خاوية ذاوية من الداخل؟

***

يوم يُبشّر بالربيع، وحدها تعلم مواقيت الأرض رغم غياب الأشجار عن شاطئ يافا وبيارات البرتقال، سنية ثم سونيا ثم وحدها تتعشّق رائحة العبق وثوران الأرض وخصبها، تتنشّق أريج الأزهار البعيدة، خاشعة كأنّها تصلي وقوفًا في شرفة المطعم الواسعة المطلة على البحر لا لتحلّق مع نوارس يافا، بل ملتفتة نحو الشرق، هكذا تدير ظهرها لكل المَوج القادم من الغريب لتحدّق في الشرق، كأنّها على وشك التحليق حلمًا في سماء البلاد لتحط بعد قليل في جبل المكسور لتشارك رعاياها في مملكتها السرية هناك احتفالات الخصب والأزهار، لكل شجرة رائحة ولكل وردة أريج ولكل زهرة برية عبق، ومن كل تلك الروائح تُعد سونيا عطرها الشذي، وتعود إلى حيث المطعم الهادئ في ساعات الصباح الأولى إثر ليلة صاخبة بالعمل والانهماك في خدمة وراحة الزبائن، لا يُعيقها عن شرودها من المطعم الآن أي شيء، إذ هي ملك حلمها هذا الصباح لا يُعكّر صفوَ تطلعها نحو الشرق أحد، لا تحيط بها تمارا لتنغّص عليها سكونها هذا بالأسئلة والتعليقات، ولا يؤجّجها «أبو طوني» زهوًا بنفسها بعبارات الموسيقية المفعمة بتباهيه وسعادته بها، ولا أحد من طاقم المطعم يأتيها الآن بأمر أو طلب لأحد الزبائن.

دعوها الآن تسرح، دعوها تتألق نجمة للصباح، امرأة تُشرف على الثلاثين زهرة مُتكئة على حاجز الشرفة الخشبي بزي النادلة ذي البنطال الأسود والقميص الأبيض الذي يكسو قامتها المتوسطة للبحر من ورائها، وشعر يتطاير مشتاقًا لضفيرتيه أسود معتدل الطول عفوي الامتداد، وجبين تلوح من لجينه ألف قصيدة غنّاها لها حبيبها الأول ناصر، والعينان مكحولتان سوداوان إن نظرتا للبحر لصلّى لهما موجًا سلامًا رحيمًا، منارة للسائرين، والوجه المُرصّع بأنف ماسي رفيع حزين وإن إبتسمت الشفتان كرزًا، والنمش خفيف على وشك النضوج شامات تزين عنقها العاجي

الممشوق، يلفّها الصباح براقصه موج يافا بمزاج جيد، تسانده في ذلك القهوة العربية التي أُعدت بأنفاس سنية ابنة عين المرجة والربيع، لترشفها بتلذذ سونيا النادلة برفقة سيجارة تعرفت عليها هنا لتُدمنها، هي اللحظات الصباحية الهاربة من زمنها القاسي تتنّعم بها، إذ تستأجر من النسيان ركنًا هادئًا تقيـم فيه رغم سطوة ذاكرتها عليها، مُتكئة على حاجز الشرفة تُراجع ما جرى بالأمس من حوار صاخـب ما بينها وبين تمارا التي كادت إثر جُملها المُفخّخة بعدم الاقتناع بما تقدمه لها سونيا من فتات حول تاريخها وأصلها، كادت أن تفجرها مخترقة خطوطها الدفاعية كافّة عندما أبدت تعجبها واستغرابها من عملها هنا كنادلة في يافا قادمة من أقصى الشمال خارجة عن طاعة أهلها في الوقت الذي يرفض فيه العرب ولا يُحبذون أن تشاركهم النساء في العمل فأجابتها سونيا بحدة: وما به عملي كنادلة.. أنا محافظة على نفسي وشرفي هنا.. ومن قال لك أنني من الشمال؟!

نجحتْ سونيا باستفزاز تمارا استطردت قائلة بذات الحدة: ومالك أنتِ وعائلتي.. دائمًا تسألين.. هذا غريب فهذه المرة الأولى التي أعرف فيها يهودية تسأل كثيرًا!

ردت عليها تمارا بخضوع: طبعًا أنتِ عربية، وأنا يهودية ولكننا صديقتيْن أليس كذلك؟

- أرجوك تمارا لا تبدئي الآن حوارًا سياسيًا.. ستُوجعين رأسي بما تقدمين من حلولٍ للمشكلة.

- أي مشكلة؟!

أجابتها سونيا ببراءة خالصة: مشكلة اليهود والعرب.

قالت تمارا بضيق وسخط: أهكذا تقولين.. مشكلة؟! كل هذا الصراع

التاريخي الأليم.. أنتِ ببساطة تصفينه بأنه مشكلة! من الأفضل أن تقولي شجارًا عائليًا!

- أنتِ تسخرين مني يا تمارا لأنني جاهلة في هذه الأمور؟! ربما ولكنني لا علاقة لي بكل هذا، ولا أريد مشاكل أرجوك.

- ها أنتِ تتحدثين كأنك مُتهمة.. سونيا أنا أشعر بأنك تتسترين على أمر ما وترفضين الحديث عنه.. هذا من حقك.. ولكن ليس من حقك أن تتجاهليني، على الأقل أنا لا أعاملك بعنصرية.. ولا يهمني إذا كنتِ عربية أم يهودية ما يهمني هو أن علاقتنا وصداقتنا إنسانية محترمة.

- وهل صداقتك هذه هي إسداء معروف أو جميل لي؟!

- لا.. لا.. سونيا أنا أوضح لك فقط أنه بإمكاننا إيجاد شيء مشترك بيننا.

- تمارا.. لا تعودي إلى السياسة المقيتة.. أرجوك هذا مطعم، وليس قاعة مفاوضات.. توقفي عن تُرّهاتك.

ترشف الرشفة الأخيرة من قهوتها ببطء لذيذ، تُدَغدِغها رشفة القهوة المرة، علقمٌ تفضّله على عسل هذه المدينة وشطحات تمارا السياسية التي لا تحبّذها سونيا وترفض الخوض فيها، فهي هنا بصفة مؤقتة ولا تريد أن يعلم أحد عنها شيئًا كأن يعرفون أنها زوجة هاربة متهمة بالخيانة ولديها زوج وثلاثة أطفال، وأنها تعمل في يافا بصورة غير شرعية. بالأمس كادت تفضح أمرها عندما نفت أمام تمارا أنها من إحدى قرى الجليل، لتعيد الآن على إيقاع بحر يافا تأكيد تكتمها وعدم مشاركة أحد لها في قهرها وآلامها، جاهزة ليوم جديد مليء بالأحداث والعمل وتمارا.

تلتفتُ لتلقي نظرة احترام على البحر الذي لطالما تجاهلته هنا ولم تُعِرْه أدنى اهتمام، فهي ابنة الربيع والأشجار والجبال فكيف لبحرٍ أن يأسرها، نظرة عابرة تُسجّلها في الذاكرة لتقول في يوم من الأيام لأبنائها أنّها كانت هنا على شاطئ يافا.

تهيم في الزُرقة التي تمنح البحر فيروزيته الأبدية، جميل هذا الصباح الزاحف نحو الساعة العاشرة، ليعلن أن يوم سونيا هذا سيكون يومًا هادئًا لا منغّصات فيه ولا هموم ولا ذاكرة طارئة تداهمها، تستمتع بخلو المطعم من الزبائن وسكونه، ثم ترتعد فجأة حين تسمع دوي انفجار ضخم انبعث من ناحية الشمال حيث «تل أبيب» الملاصقة ليافا، يبدّد الانفجار أجواء السرور والسكينة الصباحية المحيطة بها، تلتفت شمالًا مذعورة، تبحث عمّا يُوضح أمر هذا الدوي الهائل، لترى سحابة دخان سوداء ترتفع في سماء تل أبيب وناطحات سحابها، لا تحدد المكان فهي لم تغادر يافا منذ أن حلّت بها ولا تعرف أسماء الشوارع والأمكنة في تل أبيب، يفزعها المشهد الدخاني دون أن تلوي على شيء، للحظات تستدير تلتفت هنا وهناك كعصفور خائف مرتجف تبحث عن أحد يفسر لها ما يجري، خاصة عندما تناهى إلى مسامعها زعيق سيارات الإسعاف والشرطة من بعيد، تهرع مسرعة صوب باحة المطعم الداخلية نحو مكتب «أبو طوني» لتستوْضح منه الأمر، وما هي إلاّ لحظات حتى احتلت جلبة متابعة الأخبار بواسطة المذياع والتلفاز من قبل العاملين أجواء المطعم، تجلس هي بترقب على منضدة خشبية صغيرة بجانب مكتب «أبو طوني» تحاول تقصي الأخبار ومعرفة ما يجري من خلال تعليقات زملائها داخل المطعم، وعبر ما يقذفه التلفاز أمامها من صور وتقارير أولية من شارع كبير في تل أبيب تتصاعد ألسنة النيران وسحب الدخان الأسود من جانب معين فيه، بدا لسونيا كأنه محطة انتظار للحافلات، لتعرف بعد لحظات أن هذا الشارع هو شارع

(ديزنكوف) أشهر وأكبر شوارع تل أبيب، الذي لا يبعد عن حي العجمي سوى ميل على الأكثر، وأن هذا الدمار الذي تشاهده على الشاشة ناتج عن شاب فلسطيني قام بتفجير جسده بحزام متفجر ناسف وسط حشد من جنود الجيش الإسرائيلي، يداهمها خوف مفاجئ يتسلّل خدرٌ مقيت إلى ركبتيْها ليشلّ حركتها، ما الذي حدث؟ ما هذا؟ كأنها هبطت لتوها من كوكب آخر نحو الدماء والأشلاء دون أن تعي تفاصيل وأسباب ما يحدث أمامها. تشرع بالتحرر ببطء من وطأة هذا الطارئ المخيف، تدلف إلى مكتب «أبو طوني» ليزودها بالمعلومات ويُهدئ من روعها، فتراه محدقًا في تلفاز مكتبه باهتمام وتوتر: ما الذي حدث عمي أبو طوني؟

يجيبها دون أن يُشيح بنظره عن الشاشة بصوت متوتر أصابه الضيق:
-عملية تفجيرية قام بها شاب فلسطيني في شارع ديزنكوف.

- وكيف هذا؟ لماذا؟

لم يكن أبو طوني مستعدًا لأسئلتها التي تبدو غبية رغم براءتها في بعض الأحيان، يُجيبها بضيق مضاعف.

- سونيا.. دعيني أتابع الأخبار.. لا وقت لدي الآن لأسئلتك هذه.. الأمور واضحة أمامك.. أكثر من عشرين جندي قتيل.. هذه عملية ضخمة ويبدو أنّ مفاوضات السلام ستفشل، وستفرض إسرائيل حصارًا خانقًا على مناطق السلطة الفلسطينية.

يهدأ قليلًا، ثم يُشيح بنظرة عن التلفاز ليحدق بها كما لو أنّه تذكر لتوه أمرًا هامًا، ثم يستطرد قائلًا بصوت خفيض هذه المرة:

- المهم أن تحترسي الآن.. لا تنسي أنك تعملين عندي بدون تصريح عمل ولا يوجد معك بطاقة هوية.. لا أريد أن يعرف أحد من أين أنتِ.

يصمت من جديد للحظات، ثم يستطرد مُشددًا عليها هذه المرة:

- لا تعملي اليوم.. عودي إلى البيت.. فلا أحد يعرف ما الذي ستؤول إليه الأمور.

تنصرف سونيا من أمامه دون أن يشفي غليل أسئلتها، هي التي طلبت توضيحًا منه لما يجري، تخرج الآن من مكتبه في أتم الحيرة والجهل، ألهذه الدرجة هي جاهله؟ ألهذه الدرجة كانت مخطئة عندما كانت تتهرب من نقاشات تمارا السياسة وغيرها من زملائها في المطعم؟ عملية تفجيرية؟ استشهادي؟ مفاوضات؟ سلام؟ السلطة؟ حماس؟ كل هذه طلاسم لا تقوى على فض غموضها، يخنقها الخوف الذي زرعه داخلها «أبو طوني» إذ شدّد على ضرورة تكتمها على أصلها ومن أين جاءت. لماذا؟ لقد كانت تعلم أنّ «أبو طوني» لديه من المعارف والنفوذ ما يكفي لتحذيره قبل أن تداهم الشرطة مطعمه بحثًا عن عمال عرب مُتسللين من الضفة الغربية وقطاع غزة من أجل العمل في إسرائيل، كما تعلم أيضًا أن إطلالتها الأنثوية البهية ستبعد عنها أعين الشرطة ومخبريها السريين، غير أنّ توتر «أبو طوني» اليوم وإصراره على منحها إجازة، كان له سبب آخر، ألا وهو المشاحنات التي قد تجري في المطعم ما بين اليهود والعرب من زبائن وعاملين، تلك المشاحنات والمشادات التي تسود النقاشات السياسية وتبادل الاتهامات والشتائم حول ما اعتقدت سونيا أنّه شجار، ألا وهو الصراع الفلسطيني الإسرائيلي الذي اختزلته هي بانزوائها وجهلها المتعمد -ربما- بكلمة شجار!

تتخبط في الطريق إلى بيتها الصغير في يافا العتيقة، وآخر ما كانت تنتظره هو أن تصادف تمارا في منتصف الطريق، تمارا التي لا تشي ملامح وجهها الساخطة والغاضبة بأدنى صديقة لسونيا.

تحاول سونيا تفادي اللقاء بها والحديث معها عملًا بنصيحة «أبو طوني» ابتسامة على مضض وتحية سريعة، ولكن تمارا اليهودية البولندية الأصل تسد طريق العودة في وجه سونيا بسخريتها الجارحة: هل رأيت ماذا فعل إخوتك المجانين؟ أنتم مجرمون لا تريدون السلام مع الشعب الإسرائيلي!

تنفجر في وجه سونيا كما لو أنها هي التي فجرتْ شارع ديزنكوف، يبعثرها غضب تمارا العارم، وكالعادة تخفق سنية في الدفاع عن نفسها قائلة بصوت المتوسلة الخائفة: تمارا لماذا أنت غاضبة مني هكذا؟ إهدئي يا صديقتي.

- أنا لست صديقتك.. أنتِ مخربة.. كلبة.. مجنونة مثل أبناء شعبك.. اذهبي إلى الجحيم أنتِ وكل العرب.. عبث لن يكون هناك سلام ومحبة بيننا وبينكم.

تتمالك نفسها وجرأتها فجأة لتقول بحزم طرد عنها الخوف: وهل جنودك هؤلاء بريئون من دم أبناء شعبي.. أجيبيني أيتها الحمقاء؟!

تدفعها تمارا بقسوة إلى جانب الطريق متفاجئة من حِدّة سونيا المباغتة وقسوة كلماتها، ثم تستأنف حثّ خطاها السريعة نحو مطعم «أبو طوني»، لتقذف في وجهه ألف شتيمة واستقالتها من العمل في مطعمه لأنه مطعم عرب وصاحبه عربي وبه طعام عربي لا أقل ولا أكثر.

وأما سونيا فتلملم نفسها وتنهض من عاصفة تمارا الهائجة لتعدو مرتعدة نحو بيتها لتحمي نفسها من الجنون المسعور الذي مسّ صديقتها الوحيدة في يافا تمارا، التي اعتقدت للحظة أنها عثرت في صداقتها على مشاعر إنسانية دافئة تواسي وحدتها وتشدّ من أزرها في هذه الغربة، إلاّ أنّها في دقائق معدودة من صباح لم يفِ بما وعدها من سرور وراحة

تكتشف حقد صديقتها وثورتها العارمة في وجهها كما لو أنّها قتلت أفراد أسرتها كافة، لتدرك بعد أن استعادت أنفاسها في بيتها الصغير أن «أبو طوني» كان صائبًا عندما طلب منها عدم العمل اليوم.

يهزّها ما حدث، غير أنّ ما يزلزلها بشدة هو جهلها بالواقع الذي تعيش فيه. آلمتها تمارا ولكن براءتها الحادة جرحتها وآلمتها أكثر، براءتها التي ما تفتأ تزجّ بها في دهاليز العجز والانكسار، ها هي بعد بضعة أيام من التفتح والتأجج تعود الآن إلى احتجابها الأول، إلى اسمها الأول تعود سنية القاروطة والهبلة الوحيدة الغريبة التي ما أن تتقدم حتى تنكسر، وما أن تحلق حتى تهوي إلى أعماق الذلّ والتشرد والضياع.

تشعل سيجارة، تدير التلفاز تتابع الأخبار تُقرر مدفوعة بجهلها المقيت أن تحوز على الحد الأدنى على الأقل من المعرفة بهذا الواقع ومجرياته، تنهمك في المتابعة والتدقيق على مدار هذا اليوم الذي انقلب صفاؤه إلى أعاصير كعاصفة استوائية مباغتة، ريثما يقطع عليها انكبابها على التلفاز رنين الهاتف الذي نادرًا ما يرن في ركن وحدتها هذا، كانت تعرف أن أم حسين هي الوحيدة التي تطلبها في مثل هذا الوقت، ومن سواها بالأحرى يتواصل معها ويهاتفها:

- شو يا سونيا هل أنتِ بخير؟

تجيبها بأسى: حتى أنتِ تنادينني سونيا يا خالتي؟!

تعتذر لها أم حسين بأمومتها المعهودة:

- كنتُ أعتقد أنك تحبين اسمك الجديد يا سنية.. ما علينا يا حبيبتي.. قولي لي هل أنت بخير بعد هذه العملية الاستشهادية الكبيرة؟

- لا تخافي.. لم أقتل فيها.. لم أكن في شارع ديزنكوف فأنا من المطعم إلى البيت والعكس صحيح.

- لقد قلقتُ عليك كثيرًا يا مجنونة.

- طالعة من فمك مثل العسل كلمة مجنونة.. المهم قولي لي هل ثمة جديد فيما يتعلق بمصير عائلتي العزيزة؟

ختمت سؤالها بتهكم أدى إلى حلول صمت قصير يُخفي وراءه حسرة أم حسين من أحوال سنية التي لا تسرّ عدوًا ولا صديقًا، ثم تقول لها بخفوت: لقد علمتُ أن زوجك الملعون غادر القرية إلى رام الله.. لكن ليس إلى بيتكم القديم في الرام بل إلى منطقة ضاحية أم الشرايط ولكنني لست متأكدة بعد.

تصرخ سنية مُلتاعة: ماذا؟! إلى رام الله من جديد.. وأطفالي.. كيف حال أطفالي يا خالتي؟

- لا أعرف يا سنية.. المهم أنهم بخير.

- وكيف تعرفين أخبارهم؟

- ثمة امرأة دبرتُ لها عملًا وهي من منطقة رام الله.. كنتُ قد طلبتُ منها أن تتقصّى أخبار أسرتك.. المهم أنَّ أولادك بخير وصحة جيدة.

ألف جرح يلتهب في داخلها تكاد أن تنهار مُغْشيًا عليها تتمالك نفسها ثم تقول بصوت مبحوح خافت:

- لعن الله أبوهم ولعنني معه.. مشان الله يا أم حسين أريد أن أعود، دبّريها افعلي شيئًا أنا خائفة هنا وحدي لا أريد أن

أعمل لا أريد مالًا.. خذي كل شيء.. ولكن دبّريها وأعيديني إلى أهلي.

تنقلبُ طفلة صغيرة وهي تتوسل إلى أم حسين الخلاص، فتجيبها هذه الأخيرة بمرارة:

- اصبري يا بنتي.. اصبري لم يتبقَ سوى القليل وتأكدي أنَّ الفرج قادم.. أنا أعمل بحذر وصمت في متابعة القضية.. سأُعلمك بكل شيء في الوقت المناسب المهم الآن ديري بالك على حالك.. سلامات.

تغلق أم حسين مع الهاتف، فسحة الأمل الوحيدة لسنية التي تعمل هنا النادلة سونيا، إذ تنهار منخرطة في موجة عارمة من البكاء، نشيجٌ لا يعلو عليه موج يافا بل يخضع له مشفقًا على سونيا ومآلاتها الخاوية من حياة هانئة.

هكذا هي في ليلها اليافاوي لا تنام. يصلبها الأرق ويُدميها بالأسئلة وما زودتها به أم حسين من معلومات شحيحة عن أسرتها، أرق وسجائر وموج بحر، وأخبار لا تُبشّر إلاّ بالمزيد من الدماء والدمار، ليلٌ من الأرق والاحتراق والأنين يداهم أنثى الربيع المستلقية على شاطئ يافا كَطَلَلٍ جاهلي عتيق، كبيت مهجور، هي التي ما إن تلبث تُشرق الأنثى البهية في داخلها حتى تتلبّد سماء طموحها بغيوم الخواء والبؤس وذلك الغبار السّام المتصاعد من اتهامها بالخيانة، فلا تنام سنية ولا تنام سونيا، لا تحلم بل تخاف من وحدتها، تغوص في سريرها، تعانق وسادتها.. تتعرّق، تتململ.. تبكي تهمس، تئن، ترتعش ثم سماء ثم فجر ويوم آخر وتجدد أو إدّعاء بالتجدد حتى هذه اللحظة.

***

لا لم تعد سنية إلى العمل في اليوم التالي كما طلب منها «أبو طوني»، بل بالغثّ في التخفّي والاختباء داخل بيتها الصغير هاربة من تداعيات العملية التي وقعت في تل أبيب ومن إساءات تمارا لها، حيث عزلت نفسها طيلة أسبوع، أسبوع كامل بأيامه ولياليه وأمواجه لم تغادر فيه سنية بيتها كما لم يسأل عليها أحد سوى أم حسين اليومية وثرثرتها التي كانت تزود سونيا بالطمأنينة والألفة وتطرد عنها وحشة البيت، إلى أن حط أمام بيتها في اليوم الثامن «أبو طوني» الذي آثر الحضور إليها بنفسه وخفّة ظله، على أن يهاتفها متوسلًا عودتها إلى المطعم، تفاجأتْ هي من تنازله في القدوم إليها.. استقبلته على عتبة البيت بتعاستها وشحوبها قال لها معاتبًا:

- شو يا ست سونيا.. بدكْ تدلّلي علينا.. قلت لك غيبي يوم مش أسبوع لا حسّ ولا خبر!

كسفها بعبارات المدح والاعتزاز التي لطالما أحاطها بها بنواياه الأبوية الصادقة، ثم أجابته بخفوت:

- هذا المساء سوف تراني في المطعم سونيا التي تعرفها.

- هذا هو الكلام الصحيح.

رغم الألفة التي تجمعها به واطمئنانها لبراءة سماحة وجهه الأبوي، إلاّ أنّها لم تكن ترغب بدخوله إلى بيتها لاحتساء القهوة أو حتى رشفة ماء، فهي امرأة وحيدة مهجورة وهو مديرها، ربُّ عملها، هكذا كانت، بهاجسها الداخلي وحس الأنوثة الصارخ بها بعد أن فُضِحَتْ زورًا، ونالها العار ظلمًا، وأصابتها الخيانة بهتانًا، هي المقهورة لا تريد فاجعة وإساءات أخرى بحقها فهي لم تزل مثخنة بالجراح، ورغم أنّها في يافا وليست في عين المرجة أو الرام، يافا التي لا ترزخ تحت وطأة الأسئلة الفضولية، إلاّ أن سونيا أتقنت

وأبدعت إيجاد المسافات والخطوط الحمراء التي تقيها شر الآخرين من حولها.

وفي ظلّ هذا الحذر، سرّها كثيرًا عطف «أبو طوني» وإصراره على بقائها في العمل داخل المطعم رغم خطورة الأوضاع والإجراءات الأمنية المشددة في تل أبيب على وجه التحديد، حيث قادها هذا العرفان إلى الزهو بنفسها وإلقاء ما تراكم عليها هذا الأسبوع من أحزان وهموم ويأس، لتطرق باب الأنثى في داخلها افتحي يا سنية أنا سونيا.. انصرفي يا سنية لبعض الوقت فأنا أريد أن أنسى قليلًا، أن أحيا أن أعمل أن أفرح لبعض الوقت يا سنية لحين فرج الله الذي طالما واستني وبشّرتني به أم حسين.

***

في المساء يزدان المطعم بحضورها الزاهي، وكأن خذلانًا لم يكن وكأن سنية لم تكن، إذ تخطر سونيا أم الوجنتيْن المتوردتيْن والابتسامة الساحرة بين الموائد بحضورها الآخاذ، تُلبّي طلبات الزبائن بكلماتها وتعليقاتها وابتسامتها العفوية، هو المساء يفتح أبواب سمائه نجمةً نجمة لسونيا لتنسى قليلًا مصائبها، مساءٌ جميلٌ هادئٌ تُحلّق فيه أميرة يافا مؤقتًا، وإن يكن لا ضيْر، خاصة بعد أن أتقنت دورها في هذه المرحلة، دور النادلة الذي أدتّه بكل حرفية وإبداع.

مساء مطعم «سميراميس» المكتظ بالزبائن، فاليوم هو يوم السبت، وفي مسائه يخرج اليهود من وطأة أجوائهم الدينية متنفسين الصعداء لينعموا بليلٍ ساحلي وعشاء شهي في مطعم «أبو طوني».

تنهمك هي في عملها، تدوّن طلبات الزبائن بكلمات معدودة مفعمة بالابتسامات واللطافة، وفي هذه الأجواء تشتاق إلى تمارا، رغم أنها قد

أساءت إليها وجرحتها، تشتاق لتعليقاتها وقصصها التي لا تخلو من إباحية عن تجاربها مع بعض زبائن المطعم، غير أنها بالنهاية عليها أن تستمر بتمارا أو بدونها، تقول سونيا لنفسها في معالجة سريعة لنسيان تمارا لست أنا التي اخترتُ الفراق بل هي التي هاجمتني بغتة ككلبة مسعورة بتطرف مفاجئ قضى على ما كانت تتحلّى به من إنسانية في معاملتي مدعية أنَّها ليست عنصرية.

ثم تأخذ قسطًا من الراحة، ترتاح سونيا في زاويتها المفضلة داخل المطبخ برفقة سيجارة تحرقها باستمتاع، إلى أن جاءها أمر بالذهاب إلى زبون جديد، تُطفئ سيجارتها. تُعدّل من شعرها وهندامها. ساحرة أنتِ هذا المساء يا سونيا، ثم تمضي كرمحٍ تتهادى برفق ريثما تبلغ منضدتها المنشودة، زبون واحد لا أحد برفقته يُؤنس وحشة مساءَهُ منهمكٌ في قراءة قائمة الطعام، لا تلمح هي وجهه عندما تنتظره كالمعتاد بعد أن ألقت عليه تحية المطعم والمساء كما هو مطلوب منها بعذوبة وتهذيب، دون أن تتفوّه بكلمة واحدة لحين انتهاء الزبون من انتقاء عشاءه، تشعر للحظات بعد أن طال انتظارها أن هذا الزبون يسعى إلى استفزازها والاستهزاء بها، تُنكّس رأسها وسط ضجيج المطعم واكتظاظه، تكظم غيظها الذي شرع يثور في داخلها ريثما يخلع الزبون قائمة الطعام عن وجهه كما لو أنه استيقظ لِتوّه من نوم عميق، يتأملها باستغراب للحظات ثم يقول بلغته العبرية الخالصة وصوته الرخيم الذي اكتسته الرصانة:

- عذرًا.. يبدو أنكِ هنا منذ وقت طويل.

ترد عليه مخفية ضيقها بابتسامة مُصطنعة رغم وسامته الشديدة: لا يوجد أدنى مشكلة يا سيدي.. هل اخترت الوجبة المفضلة؟

يضحك ضحكة قصيرة خافتة ثم يقول متعجبًا:

- المشكلة هي أنني لم أختر شيئًا.. ثقافتي السمكية في الحضيض!

تكاد تقول له ولماذا جئت أيها الأحمق إلى مطعم بحري؟! ولكن صوته الرخيم وضحكته العذبة كظما حِدّة إجابتها وردّة فعلها تجاهه:

- هل تود أن أساعدك في اختيار صنف مميز وشهي؟

- لِمَ لا؟ ولكن دعيني أقول لكِ أنكِ الوحيدة المميزة هنا.

- عفوًا.

تتورد وجنتاها من تحرّشه اللفظي، لا يرد عليها بل يحدق بها بعينيْه السوداويْن العميقتيْن بالسحر والسرمد. يُغيظها بتحكمه بزمام الحديث وشعوره بالسيطرة على الموقف فتردف هي قائلة بضيق:

- هل يعتقد السيد أنني صنف طعام من أصناف المطعم؟

لا يجيب بل يمعن في استفزازها صمتًا وتحديقًا، فترد عليه بحدة:

- ربما أنا مميزة وشهية ولكنني لست للأكل فأنا سامّة جدًا.

ثم تنسحب من أمامه بعصبية تثيره، تندفع نحو مكتب «أبو طوني» بسرعة وغضب دون أن تلحظ لحاقه بها، تدلف إلى المكتب كعاصفة هوجاء عصفت باللغة العبرية لتحل مكانها اللغة العربية الثائرة:

- يوجد زبون مش محترم وأنا مش مستعدة أتعامل معه..

يقاطعها أبو طوني بهدوء:

- سونيا.. اهدئي شو مالك مُستفزّة ومتوترة.. مين هو الزبون؟

يقطع عليها الإجابة صوت الطرقات المهذبة على الباب، فيأذن «أبو

طوني» للطارق بالدخول وما إن يراه حتى تهلّل أساريره مُرحّبًا به باللغة العبرية:

- أهلًا.. عمير كيف حالك يا صديقي؟

يخرج من وراء مكتبه ليعانق الذي أغاظ سونيا منذ لحظات، تتجمد في مكانها مُضطربة مأخوذة بما يحدث أمامها من عناق حار يُوحي بصداقة متينة ما بين الرجلين. يلتفتُ «أبو طوني» نحو سونيا قائلًا بالعبرية:

- سونيا هذا صديقي عمير أهم زبون في المطعم هل تعلمين لماذا؟

فلا تجيب سونيا التي احتلتها المفاجأة فيستطرد «أبو طوني» قائلًا بمرح:

- لأنه هو الوحيد الذي باستطاعته إغلاق مطعمنا في أي لحظة لأنه مفتش في وزارة الصحة..

يقاطعه عمير بصوته الذي أربكَ سونيا منذ قليل:

- لقد بدأنا أنا وهي بداية غير موفقة.. لقد فهمتني بطريقة خاطئة.. هل أنتَ جديدة هنا؟

ترمقه بدهشة للحظات ثم تجيبه بتهكم حاد:

- ما دمتَ مفتش صحي فلتعلم إذن أنني وجبة منتهية الصلاحية.

تذبحه بكلماتها العبرية الحادة في ظل ارتباك «أبو طوني» الذي اكتشف لتوه أن صديقه عمير هو الذي كانت تشتمه سونيا بالعبرية منذ لحظات.

تقول سونيا قولها الفصل وتنسحب قبل أن يُعقّب أيٌّ منهما على كلامها. تنسحب من أمامهما بسرعة لا يدفعها في ذلك الجرح الذي أصابها بل هو ذلك الإحساس الأنثوي الذي أثارته عينا عمير الساحرتان.

نعم عمير هذه المرة يا سونيا أو سنية.. لا.. لا بل سونيا!

الفصل التاسع:

الخوف فضاء لا زمان له، وسنية تُؤجّر أمومتها للنسيان وتُحلّق.

تتضوّع على شاطئ يافا، تمسّها قشعريرة أنوثة، كوردة اكتشفت لتوّها ألقها المغزول من الندى لكي تُزهر وتراقص صباحًا من الأنوثة والجمال، لتكتشف بغتة وهي تلتفت إلى الوراء فجوة هائلة من الأيام والسنوات أحدثها الغياب والخوف من مصير يُقهقه في انتظارها ظلمًا وبهتانًا.

في بيتٍ من أثر يافا القديم تُدلّل نفسها بصباح هادئ تُعدّ فيه قهوة عربية على دندنة أغانيها القديمة، والخوف فضاء لا زمان له، قصيدة رعب تُحلّق في السديم لتعلق أخيرًا بسنية، وسنية هي سونيا الآن لا أقل ولا أكثر، ترشف، تصحو، رشفة أخرى. وشوشة صحوٍ بريء، مفاجئ هنا في يافا لمعنى البهجة والجمال معًا، تعض على شفتها الكرزية، تغمض عينيْها ثم تُشعل سيجارة من جمر عشق قديم وتدخن بعمق ما حدث ويحدث، رشفة من قهوة مُعطّرة بأنفاسها خالية من السكر إذ يكفيها قطر نداها فأيامها كلها.. كلها علقم، تفتح عينيْها على مرآة متوسطة الحجم مهجورة في غرفتها، تنفض عنها الغبار فماذا ترى؟! لا ترى الأم، ولا سنية الهاربة المتهمة بالخيانة، ولا البنت الهبلة القاروطة، بل ترى ألق عينيْها، تلحظ بهاءً

استيقظ لتوه متثائبًا من سبات سقيم، تبتسم ابتسامة هاربة وهي تُمرر يدها في شعرها: «أين الضفيرتان؟»

رشفة أخرى لتصحو سونيا تمامًا دون نقصان، والخوف في فضاء لا زمان له يُحيلها إلى طريق ترابي مهجور لا يرتاده أحد، ولن يؤدي أبدًا إلى رام الله حيث الطفولة المعذبة والأماني المؤجلة والمصائر المتوحشة. هل ترى أمًا؟ لا بل ترى جمالًا أنضجته الفاجعة، وبهاءً يأبى الهلاك والشحوب وإن شَحُبَ فليكن شحوب قمر سحري يضفي المزيد من سحر الفضة على وجهها، تتنهد ثم تسحب نفسًا سامًا من جمر السيجارة لتنفثه في وجه المرآة وجهها الذي تتلمّسه الآن وتعثر عليه كم أنا جميلة حقًا! ارتشفي قهوتك يا سونيا، وأدوات تجميلك المكونة من الشوق والصبر واللهفة والأمومة المفقودة فلتلقي بها في مغبّ الأنوثة الطارئة، لا لشيء، فقط لهنيهة راحة مُؤثثة من انتعاش الجمال المؤقت الكُحل من سواد مصيرها ترسم به ظلالًا لألق عينيها، تُمسّد خديها بخدود جورية. تصحو الأنثى بكامل النمش الهامس على وجهها وجه قُرنفلةٍ صباحية، أحمر شفاه ينز من جرحه النازف فوق شفتيها، تكتمل في فضاءات الخوف، الآن تخلق لحظتها اللؤلؤية وشم إلهي على جبين السماء، تُحدّق في المرآة تسحق عقب سيجارة في منفضة على شاكلة قلب حب أحمر صغير، ترشف الرشفة الأخيرة من قهوة الصباح، تقف ليست هي بل امرأة أخرى هي الآن سونيا. ولكن لمن تتجمّل صباحًا؟

منذ ما يقارب الأسبوعين وهي تستمع إلى ذلك الصوت المنبعث من أعماقها الخاوية، إيقاعٌ شرع هادئًا في البداية يراقصها، ثم ما لبث أن اشتدّ صاخبًا عنيفًا يدق على جدران قلبها اللوزي، كما لو أن حبيسًا منذ دهر على وشك أن يفلّ حديد زنزانته لينطلق مُحلّقًا في سماء حريته وأحلامه،

ما الذي يحدث؟ تسأل نفسها وهي تتردد ما بين مراقصة قلبها على إيقاع الصوت وبين أن تستمر في التحليق في فضاء الخوف بلا زمان.. بلا مكان ترجع إليه.. ربة لبيتها.. ربة لوطنها.. ربّة للجمال والبراءة، تقف أمام المرآة هي مركز ذاتها تدور حول نفسها ببطء ثم تزيد من وتيرة الدوران تدوخ، تترنح تحدق مجددًا في المرآة، اهتزازات تموّجات غشاوة ولكن المرآة التي تحدق في المرآة لا يهتز جمالها بل يثبت.. يتمركز يتجدد. بشموخ لا يليق إلاّ بها هي الوحيدة في هذا البيت الصغير، بعنفوان مشحوذ بقميص نومها الأبيض الحريري وقدميْها الحافيتيْن وشاماتها المتناثرة باعتدال وبراعة الرسام على جيدها العاجي، ومطالع نهديْها اليماميتيْن وكتفيْها الممشوقتيْن، تقف ثم تشرع في رقص هادئ موشى بالرقّة والدهشة مما تفعله، تصغي إلى الصوت المنبعث من داخلها، موسيقى كتلك التي تعزفها النجوم منذ أزلها في الليالي الصافية، تصغي، تغمض عينيْها، ترقص إذ هي إنبعاث الأنثى المتجلية الآن فيها. نعم منذ أسبوعين وسونيا لا تبرح طقوسها الطارئة هذه والاعتناء المفاجئ والحريص بكيانها الربيعي، إنها الآن سونيا، بالطبع أنا الجميلة ألا يحق لي أن أتدلل وأُراقص ما سطع في دمي بغتة من أنوثة؟! هي سونيا التي اكتشفت أن ثمة قلبًا لم يزل ينبض حُبًا، وأشجارًا في قفصها الصدري، هي المعلّقة في فضاء الخوف لا تلوي على شيء ولا تكترث بما يجري حولها من وقائع جديدة ومصائر سوداوية وتاريخ مريع بعجلات هائلة مسنّنة حادة دموية، تُحلّق هي فوقه تتجاوزه فهي الهاربة الخائفة بمن تتشبّث في دروب التاريخ وهي التي ما إن تقع حتى تطحنها العجلات العملاقة.

منذ أن احتلها الصوت، أصبحت تنطق به بوداعة مُنفّذة ما يأمرها به، لم تعد تلك المرأة الغريبة الأطوار التي في أجمل اللحظات سرورًا تنقلب فجأة إلى امرأة مُلبّدة آفاقها بسُحب الكآبة السوداوية، لينفر من حولها

وينتفض حشد المعجبين والمفتونين بجمالها الذي اكتشفوه قبلها، وما إن تعرفت إليه حتى باتت في طقوسها الصباحية لا تكترث بهاتف قد تُبشَر به أم حسين لهفة سنية، بل تتدلل بكل ما أوتيت من أنوثة مفاجئة، مُتماملة في فراشها، كاظمة غيظ سنية وآلام سنية، وجراح سنية، وماضي سنية، أن اخرسي ودعيني أتنفّس قليلًا مشان الله أريحيني من نكدك وعويلك قليلاً .

ما الذي حدث؟ إذ باتت المسافة شاسعة بينها وبين رام الله، لا يحدّها سوى فضاء الخوف الذي يبتلعها لتدرك في أجوائه الآن عبارات المواساة التي دسّتها أم حسين في صدرها الملهوف على أطفالها، لم تكن إلاّ مسافة هائلة مُفخّخة بالزمن المتهالك نسيانًا، كما لو أنَّ أم حسين كانت تقول لها بدلاً من اصبري انسي. افقدي الذاكرة يا سنية فأنتِ الآن سونيا، لتنفجر سنية إثر عبارات أم حسين المهولة الصبر والمواساة ولتنجلي من بين الغبار والركام سونيا التي رعاها «أبو طوني» واعتبرها أيقونة مطعمه حتى أنّه خصّص لها راتبًا ضخمًا بالإضافة إلى عدم حسمه نسبة من البقشيش الذي كانت تُحصّله في المطعم، لتغدو هي المميزة والمهمة بالنسبة لأبي طوني دون غيرها من زملائها في العمل، هي التي لا تدرك قيمة المال الذي تُكدّسه في درج ملابسها الداخلية بانتظار عودة قريبة لم تُبشّرها بها أم حسين.

أمام المرآة أنثى صباحية طازجة لمن تتجمّل؟

لو أن أحدًا رآها من وراء ستارة نافذتها خفيةً وهي على هذه الهيئة لما قال عنها مجنونة، بل لخشع راكعًا يُصلي لآلهة يافا.

لا، ليست هي سنية بل سونيا التي حين هاتفتها أم حسين بالأمس خاضت معها مشادّة كلامية حادّة، هزّتْ معاني الأمومة التي تزدان بها أم حسين، إذ كانت المرة الأولى التي تثور فيها سونيا في وجه المرأة التي احتضنتها وعطفت عليها:

- هل تعتقدين أنني حمقاء يا أم حسين؟

- أنتِ مجنونة ولستِ حمقاء فقط وعليك أن تصبري.

- إلى متى سأصبر؟! اليوم اكتشفتُ أنني هاربة منذ ما يقارب ثلاث سنوات ولا يمكنني أن أعود لأهلي.

ردت عليها أم حسين بتعجب مشوب بالسخرية: إلى أهلك؟!

ثارت ثائرتها وأجابتها بسخط:

- إلى الجحيم.. إلى أي أحد ولكنني أريد أن أعود.. لا أريد أن أبقى هنا.. لا أعرف ماذا يحدث لي.. أشعر أنني أتغير.

- طبعًا امرأة جميلة مثلك كل العيون عليها.. ويبدو أنكِ تستمتعين بالعمل في المطعم.

- هل تتلصّصين عليّ يا أم حسين.. من قال لكِ هذا؟

لم تجبها أم حسين فأردفت سونيا بغضب:

- أنتِ تعرفين عنوان أسرتي.. أعطني إيّاه.. سأعود غدًا مهما كانت العواقب.. لا أريد منك شيئًا بعد هذا؟!

أجابتها أم حسين بنبرة مبحوحة حزينة:

- سنية أنتِ لا تعرفين شيئًا.. لقد ابتعدتِ وغبتِ كثيرًا.. الأمور هنا تغيرت.. خذي عنوان أسرتك المخبولة: رام الله.. أم الشرايط.. بيت يشبه الزريبة يقطنه رجل حشاش ومجموعة «شحادين».. هل ارتحتِ الآن.. اذهبي إليهم وسلّميهم رقبتك.

- ماذا؟

- اسمعيني جيدًا.. صدقيني يا بنتي أنا أبذل كل جهدي وما صدمني في الفترة الأخيرة هو أن عدوك اللدود رجائي يعمل عقيدًا في أهم جهاز أمني لدى السلطة وهو لم ولن ينساك.. ولن يتردد عن فضحك مجددًا وتحويلك إلى عاهرة له قبل أن يقتلك بتهمة الخيانة.. إنَّ ما أطلبه منك يا بنتي هو أن تنتظري قليلًا فلم يتبقَّ الكثير.. فأنا أريد أن أتأكد من معلومات وصلتني قبل فترة حول موضوع قد يسهم في عودتك.

سألتها بلهفة: وما هي المعلومات؟

- لا أستطيع أن أقول لكِ شيئًا الآن.. اصبري ريثما أتأكد.

قلّدت سونيا نبرة أم حسين بسخرية وجنون:

- اصبري.. اصبري.. اصبري.. الله يلعن الصبر وصابر ورجائي.

ثم أقفلت السماعة في وجه أم حسين بسرعة لكي لا يعود الجنون العتيق لاحتلالها في وحدة هذا البيت.

وهي تقف الآن في مواجهة من؟ سنية في مواجهة سونيا.. خائنة في مواجهة مخلصة؟ طاهرة في مواجهة عاهرة؟ جبانة في مواجهة شجاعة؟ وهي الجبانة نعم الجبانة التي حفظت العنوان البائس الذي لقّنتها إياه أم حسين، دون أن تفكر للحظة واحدة بحزم حقائبها والعودة إلى رام الله، لا، ليس الآن تقول لروحها، لا، ليس الآن، لن أعود لأنني خائفة وجبانة ومرتعدة، بل لأنني لست خائنة ولا عاهرة، لست مستعدة للعودة مُنكّسة الرأس هرمة الجمال مكسورة الظهر لأفتح فَخْذَيَّ في بيت صابر وسرير عهره وحبال جحيمه، اللعنة على أمومة مُنهكة.. اللعنة على أمومة تائهة، لا لن أعود فأنا الآن سونيا.

تنتصب وينتصب جمالها معها، تتوّرد على وشك التحليق، فهذا الصباح هو لها وحدها. تترك لجسدها الزاخر بالعافية والجمال حرية التهالك فوق سريرها الوثير ذي الملاءة الخمرية الحريرية، يسطع جمالها فمن يرافقها سواها ووحدة محبذة في يافا، تتأمل سقف الغرفة كما لو أنّه أفق تُحلّق فيه أحلامها، نعم منذ أسبوعين اختلفت سنيـة وأصبحت سونيا حقيقية دون أدنى شك أو تأويل، دون أدنى قدرة على الاستمرار في معانقة التـاريخ والرقص على إيقاع الصوت، صوت أمير عشقها الغابر ناصر الذي لم يفارقها حلمًا منذ أسبوعين، لتصحو إثره مُبتلّة منتشية بالاكتفاء، ناصر الذي تسلّل كعادته على حين غرّة في عملية فدائية لم تستهدف سوى براءتها وقلبها اللوزيْ، قلبُ سنية هل تذكرين يا سنية ؟ بالأمس يا سنية حلمتُ به.. بحبيبك الفدائي المتسـلّل ناصر.. نعم رأيته هناك أنا سونيا التي رأيته لا أنتِ والدليل على ذلك أنّنا كنا في مطبخ المطعم لا في جبل المكسور وأشجارك الغبية، نعم مطعم سميراميس لصاحبه «أبو طوني» كنتُ مُستندة إلى ركن الطاولة أدخن سيجارة منتظرة تلبيه نداء أحد الزبائن.. لم يكن أحد في المطبخ سواي هكذا شعرت..

لا أعلم ربما أكون مخطئة.. ثم أصابتني قشعريرة حادة مسّتني بها يد تسلّلت من خلفي إلى صدري وفركتْ حلمة نهدي بسخونة لذيذة.. لم ألتفتْ لربما كنتُ خائفة لا أعلم.. إذ أنني حبّذتُ الاستسلام لراحة اليد وهي تعبث بحميميّة في صدري المُغرّد كسنونوة.. ثم قبضتُ على اليد بلهفة ولثمتُ أصابعها الخمس ثم ضحكت قائلة دون أن ألتفت لصاحب اليد: أنا أعرفك.. أنت ناصر أليس كذلك؟! لم أسمع جوابًا من ورائي.. كأنها يدٌ انبثقت من العدم.. أغراني فضولي بالالتفات ولكنني لم ألتفت وسمحتُ لليد من جديد بممارسة هوايتها في هوايْ إلى أن انزلقتْ إلى أسفل.. حيث استطالت اليد بغرابة.. أصبحت طويلة جدًا.. أزاحت تنورتي

السوداء بكل يُسر ثم اندسّت ما بين فخذيْ بنعومة ولطف.. بُحّ صوتي من شدة تأوهي.. ثم اختفت الطاولة واختفى المطعم.. أصبحنا في لُجّة سوداء.. في لحظة سرمدية.. لا لن تصدقي ما حدث يا سنية فهو حلم.. لا ولن أقوى على وصف تلك النشوة التي استمرت للحظات وما لبثت أن استحالت إلى ألم نعم ألم حقيقي خارق ساخن، لم ألتفتْ.. إرتعدتُ ثم توسلت إليه: ناصر ارحمني أنت تؤلمني وتجرحني هكذا. لم يستجب لتوسلاتي.. قهقهةٌ مخيفة لفحتني فذُعرتْ.. نظرتُ إلى أسفلي لكي أسحب اليد فرأيتُ بندقية ناصر تخترقني بعنف وألم فصرختُ بحدة والتفتُّ أخيرًا إليه فلم ألمحه هو.. لا لم يكن ناصر بل رجل آخر.. إنه هو.. نعم.. ما اسمه يا سنية؟ نعم.. اسمه عمير.

تنبعث من سريرها سونيا وتعود إلى ممارسة طقسها الصباحي هذا أمام المرآة. سيجارة أخرى لتهدئة خواطرها ثم تنهيدة حادة، تحدق بقسوة ما تعكسه المرآة أمامها من جمال صباحي ثم تنتفض بغتة.. تقدُّ من قميص نومها الأبيض منديلًا حريريًا، ثم تنقضّ به على وجهها بسرعة همجية تزيل عنه آثار ما استمتعتْ به منذ قليل. تُطيح بجمالها سونيا بعصبية وعجلة تمسح الكحل وأحمر الشفاه فلمن تتجمّل؟

لمن تهدهد جمالها منذ أسبوعين وتنضجه؟ لعمير؟!

ذلك الذي استفزّها عمدًا ساعيًا إلى التقرب منها وإيقاعها في شرك جاذبيته الطاغية، هو «عمير إليعازر»، هكذا حدثها عنه «أبو طوني» إثر المساء الصاخب الذي قدمت فيه نفسها وجبة سامّة على مائدة عمير، يهودي عراقي من طائفة اليهود الشرقيين هاجرت عائلته إلى إسرائيل في خمسينيات القرن الماضي، أما هو فقد وُلد هنا ولكنه يحنّ إلى جذوره العراقية من خلال حكايات جدته «سميرة» عن بيتهم وحارتهم في بغداد،

يعمل مفتشًا في وزارة الصحة يا سونيا كما قلت لكِ إنه شخص مهذب ولبق جدًا، ولكنه لا يعرفني يا عمي «أبو طوني»! الرجل لا يخفي نوايا سيئة وبالتأكيد امرأة جميلة مثلك ستثير انتباهه، احمرّ وجهها خجلًا ولكنه يهودي يا عمي أبو طوني؟ سونيا مطعمي لا مكان فيه للعنصرية، ولكن يا عمي يا رب «أبو طوني» أنا امرأة ملعونة هاربة من مصير متوحش لا أريد أن أتورط بفضائح ومصائب جديدة! ومن قال لك أنك ستتورطين؟! أنا قلتُ له إنك نادلتنا الأجمل، واسمك هو سونيا لا أقل ولا أكثر، تصوري يا مجنونة أنني لم أقل له إنك عربية لأنني لا أكترث بالتميز ما بين عربي ويهودي، ولكنني أنا أكترث يا عمي أبو طوني. سونيا لا عليك ولا ترتعدي هكذا فلا أحد يجبرك على شيء ولا يمكن لأي إنسان أن يفرض عليك علاقة أو أي أمر آخر، أرجوك يا عمي أبو طوني، فهذا الرجل يبدو أنه لن يختصرني أبدًا! لا تخافي فهو مجرد معجب وكما قلت لك عمير إنسان شهم وليس زير نساء كما تعتقدين، أنا لا أعتقد شيئًا يا عمي أبو طوني ولا أريد سوى الستر فقط.

والستر يا سونيا ليس بالاختباء في بيت يافاوي عتيق، وليس بالولوج إلى حجاب أسود سري، وليس بالهروب من سطوع الفضيحة إلى ظل التخفي، بل هو إخماد الصوت المنبعث من أعماق قلبك المرهق، هكذا تراود نفسها وهي تزيل آثار الجمال الاصطناعي، الستر هو البقاء على قيد العودة وتعبيد الطريق باستعادة الكرامة والشرف، ولكن هل تُستعاد الكرامة؟ هل يُستعاد الشرف؟

تسأل نفسها وهي تتهاوى من جديد فوق سريرها لا لتُخمد الصوت بل لتشرد على إيقاعه نحو ربوع مزدانة بالأشجار والخضرة والحياة، تشرد نحو أفق لا يئن من وطأة الذاكرة بل يزخر بنعمة النسيان الوافرة، تستمع سونيا فلا ضيْر من وجع التباريح والعودة إلى التململ بأوشحة البراءة في سماء

تلك العلية القديمة المعلّقة في بيت جدها في عين المرجة، حين كانت هائمة مرتعشة من لقاء ناصر وأنفاس ناصر وقصائد ناصر، ها هي في يافا الآن بلا بندقية حبيبها الأوّل تنتابها ذات التباريح، هل يُعقل هذا؟ تراودها ذات المشاعر وجفاف الحلق وخفقان القلب. مستحيل؟! لماذا إذن تتخبط الآن ما بين سنية وسونيا؟

***

إثر عدة أيام تلت لقاءها العاصف والمتوتر بذلك الرجل الذي اسمه عمير، باتت سونيا تترقب بفضول ممزوج باللهفة والمشاعر اللا مفهومة لحظة مجيئه مساءً إلى المطعم، كانت تلعن نفسها وتتأفف من ذلك الضيق المحبذ الذي أصابها، إذ هي الأنفاس الثقيلة الناجمة عن صخرة تتدحرج بتأنٍ فوق صدرها، بالإضافة إلى وجع طفيف في معدتها أدى إلى تشنجات لئيمة لا تزيلها سيجارة، كانت تقف هنا وتمر من هناك منهكة في العمل تارة وتارة تنخرط في أجواء طاقم العمل المفعمة بالدعابات والنكات، تنتظر لحظة مجيئه وهي على أتَمّ الحيرة وربما الشوق، نعم الشوق لرؤيته إلى أن.. حلّ أخيرًا.

تأملته من زاوية لا يستطيع هو أن يراها، كان في طريقه إلى مكتب «أبو طوني»، لم يمكث طويلًا هناك إذ ما لبث أن خرج قاصدًا الشرفة البحرية لينتقي منضدة صغيرة لشخصين ملاصقة لحاجز الشرفة الخشبي المطل على البحر، لمحته من بعيد كان أنيقًا يشبه «عمر الشريف» في شبابه، ضحكت في سرّها من هذا التشبيه وهي تضع رؤوس أناملها في فمها بحركة طفولية لن تتخلى عنها أبدًا، كان يرتدي ثيابًا شتائية تراوحت ما بين سروال جينز أزرق باهت ومعطف أسود سميك، كان عمر الشريف ولكن بلا شارب كث، عمر الشريف بالأبيض والأسود هكذا قالت في سرّها،

كان يمجّ سيجارته متأملًا في مساء البحر اليافاوي، هل ينتظرني؟ سألت نفسها، ثم تهيأت وعدّلتْ من هندامها كأنها على موعد معه، اضطّربتْ.. اللعنة لماذ أذهب إليه أنا؟ رمقتْ زميلتها النادلة الجديدة «ليئا» وهي تتأهّب للمضي نحوه ولكنها عاجلتها بسدّ الطريق عليها ومضت هي سونيا دون أدنى تردد نحوه، وقفت أمام منضدته دون أن تتورّع بسؤاله عما يشتهيه من عشاء، تنحنحت فانجذب هو عائدًا من شروده البعيد كما لو أنها جذبته بطُعم شذاها من أعماق البحر، أشرق وجهه بابتسامة ساحرة حين نظر إليها، سعى في إخفاء حماسه من حلولها المباغت عليه، قال بلباقة شديدة:

- مساء الخير آنسة سونيا.

كتمت ضحكة ساخرة لو انفلتت لأطاحت به نحو البحر بسبب مخاطبته لها بهذا اللقب السينمائي. آنسة سونيا؟! آنسة أيها الأحمق! حتى سيدة سونيا لا تليق بي فما أنا سوى الست سنية الهاربة! تمالكت نفسها بهدوء ثم بادلته التحية قائلة بلباقة:

- مساء الخير سيدي.. ما الذي تودّ تناوله هذا المساء؟

جحدها بعينيه الخارقتيْن اللتيْن نفَذَتا إلى أعماقها لتصيبها قشعريرة حادة أدّت إلى هروبها منه بالتفاتة مضطربة نحو البحر.

قال لها بهدوء مشوب بالتهكم:

- حسب معرفتي فإنّ وجبات مطعمكم منتهية الصلاحية.

شرعتْ في مجاراته حين أجابته بذات النبرة:

- في هذا المطعم يوجد طعام جيد وشهي.. فقط أنا لست كذلك.

بلغة عبرية خالصة بارزته في حوارهما التهكمي فقال لها مندهشًا:

- لا يبدو لي أنكِ منتهية الصلاحية.. أنتِ خُلقتِ هكذا طازجة دومًا.

احمرّ وجهها. داهمها غضب خاطف ما لبث أن لجمته إثر مداعبته هو لأنوثتها البادية قائلة له:

- هل ستعود من جديد إلى ذلك المساء الفاسد المنتهي الصلاحية؟

ضحك ضحكة عذبة قصيرة ثم أجابها بمزح:

- لا.. أبدًا ولكنني مدين لك باعتذار.

- لا عليك لم يحدث شيء على الإطلاق.

- بل حدث.

- وما الذي حدث؟

- لا أعلم.. ربما أنتِ ما حدث لي.

صدّتْ عباراته المهرولة نحوها بالغزل لتسأله بارتباك وعجلة:

- حسنًا.. ماذا ستأكل على العشاء؟

كاد يجيبها أنتِ التي سآكلها، غير أنه تأملها للحظات قبل أن يُجيبها باستسلام وخفوت:

- طبق المطعم الخاص.

- لك ذلك.

ثم استدارت بعنفوانها الذي استمدته من بحر يافا ومضتْ بابتسامة ذات مغزى لا تلوح منها سوى أنوثتها، التي سطت عليه دون أن تقصد، إذ هو وحده من أدرك أنها أطاحت به عن صهوة جاذبيته الجامحة دون أن تدري، وهذا ما أثاره خاصة في الوقت الذي لم تعد فيه هي لتقديم طبع المطعم الخاص، إذ كانت في زاويتها المفضلة داخل المطبخ مستندة إلى ركن المنضدة جذلى تتدلى السيجارة من ثغرها بفتنة لا تُضاهى.

***

تهبط من حالق الفضاء.. فضاء الخوف.

في المساء تعدُ نفسها مُتأهبة للمضي قُدمًا نادلة في مطعم سميراميس، هذه الليلة هي مسؤولة المناوبة وهي سعيدة بهذا الأمر وبثقة «أبو طوني» بها مما أضفى على عملها في المطعم شغف ما لبث أن تحول إلى هالة جذبت نحوها المزيد من المتطلعين إلى هوى عينيْها.

تقف من جديد أمام المرآة لا لتُكرر طقوس صباحها التجميلية بل لتتأكد من أنها لن تنجرف نحو عينيْ عمير، ولكي تُقرر أنها لن تكون نادلته هذه الليلة في حال مجيئه إلى المطعم، ستحرص على إخماد ما تتأجج في داخلها من أصوات وأحاسيس قديمة، ولكن في نفس الوقت لا ضيْر من كرزة تُزيّن بها شفتيْها وعطر باريسي اكتشفت أريجه الساحر هنا ليحاور عقد لؤلؤ زائف بالطبع إلاّ أنه استمدّ أصالته من جيدها الخافق بأريج العطر، هذا المساء تمضي إلى العمل وهي تشدو بأغانٍ تزفّها إلى حنين ما، في أزقة يافا القديمة تحثّ الخطى ممشوقة الفتنة وإن كانت بلا ضفيرتيْن، تحط في المطعم نسمة خفيفة مُهفهفة بلا ذاكرة، هكذا تُقرر بعد أن وضبتْ ثيابها المهترئة القديمة في حقيبة وألقت بها في دولاب النسيان، تُطلّ من شرفة جمالها بكبرياء نحو حشد المطعم الذي يُصفّق لها

ولجمالها، إذ تُحلّق ما بين الموائد فراشة تارة وأريجًا تارة وزهرة توليب تارة أخرى، تُوزع المهام، تُصدر الأوامر. ترشد الزبائن إلى موائدهم، تؤكد حجزًا لزبائن مهمين، تُسدي النصائح وعبارات التشجيع التي تحث على سرعة الاستجابة وكفاءة العمل بين أفراد طاقمها فهي مسؤولتهم هذه الليلة، ثم يشرع الشوق في محاصرتها. يأتيها من حيث لا تحتسب، من أعماقها. وأبو طوني يراقبها من نافذة مكتبه المعتمة جذلًا فخورًا بها هي المرأة التي زيّنتْ مطعمه بإطلالتها وخلبت الألباب، آه يا سونيا آه لو لم تكوني في عمر ابنتي لأخذتك، لو لم تكوني.

وهي لا تكون رغم النسيان سوى لوزة ربيعية شاءت أم أبت، هي التي تتمايل وتنحني وتشمخ وتنثر نُوّرَاها وأريجها على من يجلسون في فيئها، والوقت المُترع بالشوق يتعربش عليها وعلى ارتعاشات يديها ودخان سيجارتها لماذا يا سونيا؟ لأنني أنتظره.. لا تحدجوني هكذا بصرامة وقسوة، نعم أنتظره دون أن أعلم لماذا، أنتظره لا لأشاركه العشاء وتمتمات الليل بل لأطرب بأنغام انبعثت من قلبي، أنتظره لا لأسامره لا سمح الله، بل لأنتشي ممتلئة بذكرى حبيب غاب في المجهول.. آه يا ناصر أين أنت؟ كيف تركتني ومضيت، تركت الطفلة ابنة الست عشر زهرة ذبلتْ؟!

وعمير لم يصل بعد. قد لا يأتي هذه الليلة، تُصاب بخيبة أمل مبكرة، تعود إلى ركنها في المطبخ في الزاوية الضيقة لتنسى أنّها كانت منذ لحظات رَبّة المطعم كله لتزاول شرودها الكئيب، إما سنية أو سونيا لا ضير، وسط ضجيج المطبخ وسخامه ودخانه وأحاديث الطباخين والنُدل، إلى أن مسّها الذي انتشلها من مشارف كآبتها ليعيدها إلى ركن الطاولة وسيجارة كادت تكوي أناملها، مسّها حضور «ذكوري» طاغٍ من الخلف بنحنحةٍ تنمُ عن صوت رخيم آسر، تلتفت مُضطربة لتراه بكامل أبهته وأناقته، يبعثرها،

تقف ثم تستند مرة أخرى إلى ركن المنضدة ثم ترتبك وتقف من جديد في مواجهته مطأطئة الرأس لا تلوي على شيء، ليمسّها بشدة هذه المرة بصوته:

- هل فاجأتك؟

أي سؤال غبي هذا تقول في نفسها، تجيبه بِشَبَحِ ابتسامة وإيماءة إيجاب برأسها. يردف هو قائلًا بلغة تعرفها سنية جيدًا، لغة تُدندن بها أغانيها الشعبية وقصائد ناصر العتيقة، إذ يهزّها عمير ويصعقها بحروف لغتها الأم وإن نطقها بركاكة:

- ليش ما حكيت لي إنك عربية.. أنا بفكر إنك متلي يهودية شرقية.

تتخبط في مكانها، يدرك هو اضطرابها، فيمُعن في بعثرتها مستطردًا بلهجته العراقية الركيكة بغزل خفيف قد يُلَمْلم الموقف في حوار هادئ في زاوية المطبخ:

- يا ربي! ما سِمْعتْ الحلوة يهودي يحتشي -يتحدث- عربي من قبل؟!

تهز رأسها إلى أعلى نافية ببراءة صافية ذبحت قلبه، يُردف قائلًا بالعبرية هذه المرة:

- أبو طوني حدثني عنك.

يَحْمَرُّ وجهها مُنبئًا بحدة اضطرابها فتسأله بحدة وريبة:

- وماذا قال لك عني؟

- لا تحتدّي أرجوك.. لم يقل شيئًا..

قاطعته بحدة: هل أنت متفاجئ لأنني عربية أعمل هنا؟!

- لا.. أنا متفاجئ من طلّتك الساحرة.

يراودها من جديد بعبارات حادة مُنتقاة بدارية تامة، يردف قائلًا بمودة قبل أن تصده هي بحدتها:

- ألن تقدمي لي العشاء هذه الليلة؟

تتلبّسها هيئة النادلة ولهجتها لتجيبه خالصة مُتهكمة:

- وماذا يريد أن يأكل السيد؟

يصمت، لا يرد عليها، تشعر أنّها أزعجته بتهكمها، يتأملها بهدوء، تُشيح بعينيْها عنه وعن رهبة عينيه، يقول هو محافظًا على حضوره الجذاب الودود:

- ألم يخنقكِ دخان المطبخ وروائحه؟ هيا بنا إلى الشرفة.

ثم تنساق وراءه، لا تسير بجانبه بل وراءه كالمنومة مغناطيسيًا، لا تردعها سنية، لا تقرصها، لا تصرخ بوجهها أن قفي إلى أين أنتِ ذاهبة أيتها الهبلة؟ بل تخرج برفقته إلى الشرفة الهادئة هذا المساء دون أن تأبه بمواجهة البحر وسنية معًا.

***

ما الذي حدث؟ قومي سنية من جنونك وانبعثي من بين ركامك واصفعيني لأصحو. ما الذي حدث؟ إذ هي المرة الأولى التي تتجاذب فيها سونيا أطراف الحديث ونمنمات الليل وأمانيه مع رجل آخر غريب وجذاب، مع عمير الإسرائيلي الذي حادثها تارة بالعبرية وتارة بالعربية، وأما هي فلم تبادله الحديث إلاّ بالعبرية مما أثار استغرابه وحيرته، غير أنّه لم يكن

فظًا أو متكبرًا في محادثة مرتبكة في شرفة المطعم، كان ذا دارية واسعة في شؤون الترفق بقلب نقي كقلب سونيا، هكذا على حين غرق ودون أن تدري هي انجرف عمير إلى جمال عاصف بلا ضفيرتيْن تعلق بهما وهوي إلى أعماق عينيْها، متأرجحًا على حافة ضحكتهما التي لا تخلو من طفولة رنّانة تراقص دمه.

«عمير أليعازر»، تُردد اسمه في أرجائها، يحتلها الصدى الغريب، رجل في الخامسة والثلاثين، أعزب في عمر من المفترض أن يكون فيه متزوجًا وربًا لأسرة، لم يبح لها بالكثير في أجواء زفرات حارة أوحتْ أنه قد علق بها، وأما هي كانت في لقاء الشرفة المسائي ذاك لا تملك عنه سوى تلك الصورة العامة التي زودها بها «أبو طوني» حين سألته عنه بأسئلة أعدتْها لتبدو كما لو أنها أسئلة برئية عابرة.

فهل كانت تأبه للحظة الغوص في تفاصيل حياته وماضيه؟ كلا. هل كانت توقُ لفض غموضه وعباراته المُبهمة التي كان يجدها ممرًا سريًا للهرب من أسئلتها؟ كلا.

في منتصف تل أبيب وعلى ما تبقى من يافا وشاطئها، تسطع البراءة في وجه عمير لتعميه عن أصل المرأة التي تشاركه مساءً يافاويًا في شرفة مطعم سميراميس، كان يكفيه الإصغاء لطرب صوتها الموزون على إيقاع الحزن الذي استغربه، بُحّة أنثوية تكاد تلقيه عن الشرفة إلى أعماق البحر.

ماذا يحدث يا لوزة الربيع، ماذا يحدث يا الله؟

إذ تعود إلى بيتها الصغير مُثقلة بعباراته المشحوذة ببوادر العشق، تتهالك على الأريكة الصغيرة، تستعيد أنفاسها، تشرع بالتخفف من عباراته ومما لم تدرك بعد أنها الغواية، هي تلك المتوحشة المستترة بنسيم يافا،

هي التي تقسو عليها وتصيبها بالاختناق هي الغواية، باتت سونيا معلقة لتكتشف فجأة أنها تسير على حبلٍ رفيع يصل ما بين مصيرين، هي في منتصف الطريق أسفلها هاوية تفتح شدقيها مترقبة لحظة تعثرها وسقوطها لتمزّقها إربًا.

عمير الذي لم يتحرّش في ماضيها فلمْ تسأله هي أيضًا عن ماضيه وأصله، هي المُحلّقة في فضاء الخوف، المُستترة بالهبل والضعف، إذ لم تنشغل سونيا بتفاصيل وقيود الواقع الذي تعيش فيه هي وعمير، فلا وقت لديها ما دامت منشغلة في تفاصيل وآلام مصيرها الشخصي المتمثل بأخدود الخيانة الذي حفروه عنوةً في جسد براءتها.

والأيام من أسفلها تمضي وتزول في تواتر حثيث لم تشعر به. أيام تتراكم شهورًا ثم تتكدس أعوامًا لتسدّ في وجهها درب العودة حين تقرر الهبوط من فضاء الخوف.

في أوْج التخبط لا تلوي على شيء، تُحيط بها سنياتها، سنية الهبلة وسنية القاروطة وسنية زوجة صابر البشيري وسنية الأم وسنية الهاربة وسنية الخائنة، ثم أخيرًا تلتقطها وتُحلّق بها إلى أقصى مدى ممكن من الجنون سونيا، تجن في بيتها. تتشنّج، تتألم، ترتعش تكاد أن تعوي كذئبة وقلبها يدق، لا يدق بل ينزف عشقًا مجردًا ساخنًا لا لبس فيه، ترتشفه لتثمل وتنسى، لتستعيد عمير وأحاديث عمير المضبوطة على توقيت شغفٍ أبّده في ظلال عينيها.

وأما الهاتف فلا رنين له في أمسياتها المتوحدة بالبؤس والآلام، لا يصدح صوت من عالم ماضيها ليبشّرها بعودة مُشرّفة مرفوعة الرأس، منذ فترة ليست بالقصيرة لم تحادثها أم حسين، وهي أيضًا لم تتنازل بتكبّر غريب وكبرياء عجيب لكي تسمع صوت أم حسين الدافئ الذي لطالما

بدّد وحدتها وبردها وواساها بعبارات قد تُبشّر بعودة قريبة. غير أنها في سرها كانت تعلم أنّها لا تحبذ رنين الهاتف الآن، فهي باتت معشوقة أو بالأحرى أدركت وعانقت أخيرًا ذلك الصوت الرخيم، صوت العشق واللهفة معًا، صوت الشغف والوله، صوت التجربة والمغامرة، صوت سونيا الطاغية الجمال، لذلك غابت في هنيْهةٍ منعزلة عن زمن أيامها بلا صور قديمة متآكلة ولا رسائل أشواق مهترئة أو أخبار تبشر بخبر قريب أو بعيد، حيث قررتْ فجأة الخوض فيما اعتقدت في سابق أيامها أنها أخمدته وكتمت أنينه، خاضت في شرفة بحرية أنعشت أحاديثها الندية حديقتها المهجورة، لتخضرّ وتزهر، لا.. لن تزيل زينةً عن وجهها تُحيلها إلى إلهة حبّ في يافا، بل ستتجمّل له هو، فلا خيْر من العودة إلى وجع العشق المُحبّذ كقهوتها المُرّة، مدركة في قناعة نفسها الطفلة أنَّ ما حدث وما سيحدث معها هنا ما هو إلاّ فُسحة ضئيلة ريثما تزول وتتبدّد بعودتها إلى أرضها البكر، تستجيب بالنهاية بحذر وريبة للصوت معتقدة أنّها قادرة على التحكم بزمام الأمور وما يحيكها به عمير من شغف واهتمام.

عمير الذي لم يكن يعتقد للحظة بأنه سينسكب ككأس ماء ويتبخر في سماء سونيا، هو ذو القلب المفجوع الذي هجرته زوجته «يونيت» رفيقة طفولته في حواري»ريشون ليستيون»، لتهرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع عشيقها الذي تفنّنت في خيانة عمير برفقته، ليغدو هو الرجل المغدور الذي انكسر فجأة في الوقت الذي كان فيه بجاذبيته الطاغية قادرًا على إغواء أجمل الجميلات، بيْد أنه آثر الانزواء والسعي في إصلاح ما أصابه من عطب وخذلان وخيانة، مُعتنقًا الوحدة والعزلة على مدار أكثر من سبع سنوات ليتعثر في نهاية مطاف الخيبة على عينيْ سونيا التي دوّخته وقضت على آخر أمانيه بالبقاء على قيد العزلة والانزواء، إذ يكتشف في لحظة أن القلب لا يُمّيز بين عربي ويهودي إلاّ العشق والوقوع في أسر

عينيْها وسحرها سحر العربية. عربية يا عمير فأين المفر؟ ولكن لا ضيْر. هكذا يواسي نفسه وإن كانت عربية فالقلب لا يتقن سوى لغة واحدة شاملة، لغة الحب التي تنطق بها متناغمة كُلُّ أعراق وأديان الأرض، عربية يا عمير؟! وإن يكن فهي أيضًا لم تستغرب أصلي اليهودي بل أحبتْ لهجتي العراقية هذا ما كنت أشعر به حين كانت تخفي حدة توترها وأنفاسها اللافحة، كانت تهدأ حين كنتُ ألقُها بعبارات الغزل والإعجاب بلهجة عراقية. ماذا لو اكتشفت أنَّك ضابط احتياط في الجيش وأنَّك شاركتَ في حرب لبنان عام 1982؟ لن تكتشف هذا كما أنها لم تسألني عن تاريخي وماضي كما لو أننا نحن الاثنان من أصل واحد! ومع مرور الوقت وائتلاف قلبينا وتوحدنا في بيت من العشق والحياة سأعلمها بكل شيء.. سأسرد لها ذاكرتي رويدًا رويدًا، ولكنها غريـبة عجيبة يا عمـير لا تميّز شيئًا ويبدو عليها الإضطراب، لا، بل الهبل، نعم يا عمير هذه المرأة هبلة، كلا هي فقط مرتبكة من التباسات الواقع وتناقضاته المقيتة. عمير اسمعني أرجوك، فالمرأة على ما يبدو أنَّها غريبة الأطوار وتخفي أسرارًا هائلة خلف مسحة حزنها، سأبدّد كآبتها.. سأزيل أحزانها، عمير سأقول لك بصراحة: لا يوجد أي منطق سليم في انجذابك اللامحسوب إلى هذه النادلة العربية.. أنتَ.. أنت يهودي هل جننت؟! ومتى كان ثمة منطق للحب أيها المجنون؟! لذلك دعنا نحاول، نَخُضْ التجربة.

***

تصدُّ وتصل..

سونيا التي تصل وسنية التي تصد، تتمنّع وترغب شجرة على شاطئ يافا تنحني لتصمد وتصمد لتنحني، ثم تزهر إلى أقصى مدى في الوقت الذي بدأ يلاحظ فيه «أبو طوني» انغماسها في مائدة عمير في شرفة

المطعم، وقضاءها برفقته معظم المساء، لم يعبأ أبو طوني كثيرًا بهذا الطارئ الجديد وإهمال سونيا لعملها، فالذي دفعه إلى الحديث معها بكل صراحة في عصيرة ذلك اليوم هو القلق النابع من عدم استقرار أحوالها، فهي في النهاية مجرد مُتسلّلة وتعمل بطريقة غير شرعية في يافا، رغم أنه علم منها أنّها لم تبح لعمير بأحوالها ومصائب ماضيها:

- سونيا أنتِ لست مجرد نادلة تعمل هنا.. أنتِ مثل بنتي.

- ماذا هناك عمي أبو طوني؟

- علاقتك بعمير

ترتبك بشدة ويحمرُّ وجهها، ثم تسأله بتعلثم وخفوت:

- ومالها علاقتي بعمير؟ نحن لا شيء بيننا.. مجرد دردشات عمي أبو طوني مُش أكثر.

- أعلم يا بنتي.. ولكن أنت أمورك ليست مستقرة كما تعرفين.. وعمير لا يعرف شيئًا عنك.. لا أريد أن يتسبب هذا الموضوع بمشاكل لك وله.

تسأله بارتياب مدفوعة بنوبة جرأة انتابتها فجأة: ربما كانت مشاكل بالنسبة إليك؟!

يرمقها بضيق قائلاً بتبرّم:

- أرجوك لا تفهميني غلط.. ما أقصده هو أن عمير يعتقد أنك من حيفا، ولا يعرف شيئًا عن ماضيك.

يجرحها، فتجيبه بلهجة الانكسار التي عادت إليها من جديد:

- معك حق عمي أبو طوني.. ولكن صدقني لا يوجد شيء بيني وبينه.. لا يوجد أيُّ منطق في الكون يمكن أن يخلق حبًا أو صداقة بيننا.

غير أنهما معًا هي وأبو طوني أدركا في سرّهما أن أمرًا ما قد بدأ يحدث، أمر ينبئ بحرائق عشق لا تُخمد ولا تنطفئ.

في حين أنها كانت تعلم أنَّ «أبو طوني» على صواب فيما يتعلق بأصلها وماضيها، فهي لم تُلمّح أبدًا بمصيرها التعيس لعمير في خضم أحاديث ومسامرات مسائية عامة مُبهمة تتحرّش بتباريح حب قديم، كما أنّها عجزت عن معالجة إحساس بالذنب اعتراها سبب تضليلها لعمير، وشعورها بأنّها تتلاعب به كسونيا عزباء جميلة متحررة من قيود مجتمعها، ولكن إلى متى ستبقى في الشرفة تتستر على جراحها وآلامها في ظل عبارات عمير التي أخذ الحب يشفُّ من نبراتها؟ لتطفو كلماته على سطح نمنمات المساء لتراها وهي ترحب بها هذه المرة دون أن تتهرب منها أو تصدها بعبارة مجاملة رسمية، حيث أخذت بالاستمتاع بصوته الرخيم أكثر من أي وقت مضى، صوته الذي تآلف مع صوت أعماقها أغنيةً لا تلوح من مطالعها سوى كلمات العشق، لتمعن هي في تجاهل المطعم وأصحابه وزبائنه وماضيها، منزوية في الشرفة البحرية برفقته إلى أن لسعها أبو طوني بحرصه وماضيها معًا، صفعها بمصيرها وقلقه عليها، نعم يكفي، إلى هنا نصل وإياك يا سونيا إلى نهاية مشوار قُدّر له بألاّ يكون طويلًا وشيقًا برفقة عمير.

سنية قومي وقولي لي ماذا أفعل؟ اصفعيني لأستيقظ يا سنية.. وَلِك قومي يا هبلة. ولكن سنية تحتجب أو تموت أو تغيب أو تبكي، هي تبكي من مغبّة سونيا التي تُقرر فجأة بأقصى جرأتها هنا أن تبوح لعمير بكل ما يختلج في صدرها من مآسٍ ونكبات وأمومة مُمزّقة وتشرد، غير أنّها لن تبوح له أنه دغدغ أنوثتها أحبته أو لم تحبه.

في ذلك المساء لم تنتظره على أحرّ من الشوق، بل بكل ما احتلها من ترقب وخشية. مرتبكة كانت. عاجزة عن ممارسة مهامها كنادلة، متوترة جدًا لدرجة أنّها لم تكن قادرة على التخلص في رجفة يديها لكي تستطيع حمل الأطباق والكؤوس إلى الموائد، حرقت رئتيْها بالسجائر المتتالية على شفتيْها بأجواء من النزق والقرف والعصبية إزاء زملائها في العمل، ريثما وصل أخيرًا سيد مساءاتها اليافاوية كما هي عادته بأناقة وترف ذكوري جميل، خفق قلبها بشدة.. اضطربت. تلّفت هو باحثًا عنها إلى أن عثر عليها، مضى نحوها تُعبّد طريقة ابتسامته الساحرة: مساء الخير يا جميلتي.

ألقى عليها تحية مسائية طالما أحبتها وأطربتها، ولكن ليس هذه الليلة، فهذا المساء لا ضيْر فيه سوى شر ماضيها، تأملّته بحيرة وخشية أثارت حفيظته واستغرابه، سألها بريبة: ماذا بك سونيا.. هل كل شيء على ما يرام؟

أجابته متهكمة وهي تقوده إلى الشرفة حيث ركنهما المفضل:

- كل شيء سيكون على ما يرام لو أنني كنت سونيا حقًا.

ثم انهالت عليه بماضيها المريع دون أدنى رحمة، كانت تشهق وتتنهد ما بين فيْنة وأخرى، لم تبكِ دمعًا من عينيْها القاسيتيْن عليه، لم يرتجف صوتها خوفًا، لم تتلعثم ندمًا، بل ألقتْ عليه برباطة جأش تدربت على إتقانها إلى أن أدّتْ واجبها على أكمل وجه أصاب وجه عمير بالوجوم والحيرة، لم يقاطعها، قطّب حاجبيْه ثم فرك وجهه بكفيْه، واقترب منها ليخفّف عنها فقالت له باللغة العربية للمرة الأولى منذ لقائهما به وبلهجة الهبلة التي كانتها دومًا:

- سلامات يا عمير خلص.. انتهى الفيلم الرومانسي.

ثم هاج بحر يافا موجًا عارمًا وكان ليلاً ظالمًا، وكان بيتًا صغيرًا ما تبقى من مهر عروس البحر تنوح فيه صبية أو من كانت صبية، ولكن من التي كانت تبكي سنية أم سونيا؟!

***

غابت في بيتها لتعود إلى إيقاظ سنية، سنية استيقظي مشان الله ها أنا قد عدتُ إليك أخيرًا ولم أكمل المسير في درب عشق ليس لي، لم أرتكب ما يُدّنس طهري، أرجوك.. مشان الله قومي وأعيديني إليك، إلى فضاء الخوف، ولكن لا تدعيني وحدي، فأنا أخاف من الوحدة، خلص يا سنية فِش عمير.. والله العظيم لم يحدث بيننا شيء، لم تكن سوى نزوة كبحت سونيا جمالها قبل أن تكتمل، وها هي بعد أن سكبت على عمير حمم ماضيها تحتجب في بيتها مجروحة ولكنها مرتاحة، متألمة ولكنها مستمتعة بالسكينة والانتهاء من وجع القلب الناتج عن عطف عمير عليها وإحاطته لها بالشغف الصافي، تهزأ من نفسها قائلة لا هذا ليس لي فأنا لست سوى سنية، ما أحمقني حين اعتقدتُ للحظة أنني قد أعيش لحظة سينمائية مفعمة بعمر الشريف!

تضحك بحسرة برفقة سيجارتها، تُمرر أصابعها في شعرها بشرود حزين، ترفض بإصرار أن يعيدها غدرًا إلى ذاكرتها وماضيها، لا تريد الآن أن تعود أمًا أو زوجة أو مجنونة، إذ يكفي ما هي به الآن من انتهاء سريع ومفجع لقصة لم تبدأ بعد، لمغامرة مجنونة لم تحسب سونيا عواقبها جيدًا، لا تريد ظلًا ولا وجهًا ولا رائحة في وحدتها العاتية هذه التي انزوت بها لأكثر من عشرة أيام إثر لقائها العاصف بعمير، هاتفها أبو طوني مرة واحدة فقط وبفتور وامتعاض واضحين لكي يطمئن على صحتها مطالبًا بعودتها إلى العمل في أسرع وقت، كادت تسأله عن عمير ولكنها ترددتْ في اللحظة الأخيرة.

تحسد نفسها على هذه الوحدة التي لا يفضّها أحد بزيارة تطرق بابها، أو هاتف يمزق صمت المكان وشرودها اللامحدود إلى آفاق بعيدة مزدانة بالأحلام، لتقضي عزلتها ما بين التلفاز والمذياع والطهو وذلك الهبل القديم الذي يتراوح ما بين حزن رهيب وفرح عظيم، تبكي.. تُزغرد.. تنام.. تدبك.. ترقص.. تُعلّق بسخرية وتهكّم على الأخبار التي تلوكها المذيعة في فمها، ثم تقذفها عليها أخبارًا كئيبة حول مفاوضات السلام المتعثرة ما بين السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية.

خرجت مرتيْن من البيت، الأولى لشراء احتياجاتها من الطعام، والثانية لتتمشّى لأول مرة في حياتها وحدها على شاطئ يافا القديمة هائمة دون وجهة محددة، فالخواء كان قد احتلها وعصف بأزهارها التي لم تهنأ بتفتّح قد يطول ليصل حدّ زراعتها لحديقة ربيعية سرية داخل فؤادها الجاف.

في هذه الفترة من أقاصي العزلة كانت سيدة نفسها، إذ تشعر بذلك وهي تصول وتجول داخل البيت دون أن تعبأ بما خلفها من ترقب وانتظار لمكالمة مهمة من أم حسين، فالحدث الذي طغى على هذه العزلة هو لقاؤها الأخير العاصف بعمير، الذي اعتقدت هي في قرارة نفسها الخائفة أنه سيشي بها، وعليها ألاّ تستغرب محاصرة شرطة تل أبيب لبيتها الصغير لكي تعتقلها بتهمة المكوث اللاشرعي في إسرائيل، سيشي بها حتمًا مدفوعًا بحقد تلاعبها به وبمشاعره تجاهها. لقد خدعته.. هل خدعته حقًّا؟!

لا تعلم، إلاّ أنها في النهاية قد إرتاحت بعد أن ألقت عن كاهلها عبء اللقاءات المسائية به، هي التي ليس لديها شيئًا تخسره بعد، نعم سيلقون القبض عليها وسيعيدونها إلى مناطق السلطة الفلسطينية بموكب من الفضيحة المجلجلة هذه المرة التي لن تقوى على تبديدها إلاّ بإزهاقها لروحها ووجودها المذل في هذه الحياة.

في يوم عزلتها العاشر الذي لا يشير إلى عودتها إلى العمل، كانت قد انبعثت لتوها ندية منتعشة من حمّام دافئ أزاح زمهرير يافا الشتائي، كانت تدندن مقطعًا من أغنية قديمة من أغاني طفولتها، سرّحتْ شعرها أمام المرآة، متوهجة هي هذا المساء بسونيا وسنية معًا، حدقتْ بنفسها ثم اقتربت على حين غرة من المرآة وقبّلتْها قائلة بصخب هبلها الجميل:

- يِسْعد الله ما أحلاكِ وما أشْلَبكِ يا سنية.

ضحكت بمرح أكملت تسريح شعرها، وشرعت في تهيئة نفسها لنوم هادئ لا ذاكرة فيه. عفوية كانت طازجة دومًا دون أن تمسّها أنفاس ذكورية. ارتدت منامة شتائية ثقيلة لتُدفء بها سريرها الموحش، انطلقت نحو مطبخها الصغير لِتُعد كوب حليبها الساخن الذي غالبًا ما تحتسيه قبل الرقاد، توقفت فجأة عن الحركة. تجمدت في مكانها حين تناهى إلى مسامعها صوت ذكوري تعرفه وتتقن الرقص على إيقاعاته العذبة، دنت من نافذة المطبخ الصغير، شرّعتْ دفّتها بحذر ليتسلّل الصوت بوضوح أشد هذه المرة بلهجةٍ مُحبّبة إلى قلبها، ليغمرها موالٌ عراقيٌّ على إيقاع بُحّة حزن مرير:

«يا عبد إبكي على فعل المعاصي ونوح

وين جدودك أبوك آدم وبعده نوح

دنيا غرورة بتجي لك في صفة مركب

ترمي حمولها على شط البحور وتروح» [1]

أذهلها الصوت وقادها إلى مطالع البكاء، إذ باغتها عمير على حين

(1) شعر شعبي قديم لعبد لم يتحرر أيام الدولة العباسية عن كتاب قول ياطير.

عزلة. إضطربت في حيرة من أمرها وقلبها، ماذا تفعل إزاء هذا المجنون الجالس أسفل نافذتها في العراء والبرد يغني لها مواويلّ عراقية جارحة من حدة حزنها؟

يا الله.. وضعت يدها على قلبها، أغمضت عينيْها شهقتْ تنفستْ ببطء ثم مضتْ نحو الباب. فتحته مواربةً ثم أطلت برأسها من ورائه باحثة عن هذا المغني الليلي الذي ينشد حبًا لا زمان له هنا ولا مكان، ريثما لمحته يلفّه ليل الشتاء جالسًا على العتبة الأخيرة في أسفل سلّم بيتها الحجري، نظرت إليه بلهفة لم تجرؤ على فتح الباب على مصراعيْه أو حتى النزول إليه، اعتقدت للحظة أنها تحلم، لا، ليس حلمًا، إنه يغني لها، ومن أجلها، من أجل سونيا فزغردي يا سنية، ابتسمت ابتسامة حزينة ثم نادته بصوت خفيض:

- عمير.. عمير.. ماذا تفعل هنا أيها المجنون؟

رفع نظره إليها كما لو أنه كان ينظر إلى تمثال إلهةٍ يعبدها ثم وقف قائلًا بسرور بلهجته العراقية:

- سونيا.. شِنو يعني إنتي عربية وهاربة من رام الله؟ آني عربي كمان!

- أقسم بالله إنك مجنون أكثر مني.. هيا إذهب من هنا.. أنا لا أريد فضائح من الجيران.

ضحك بخفوت ثم قال متهكمًا: يافا كلها استيقظت على موالي الحزين.

- اذهب الآن أرجوك.. نلتقي غدًا في مطعم أبو طوني.

- اوعديني؟

- أعدك بجنوني وجنونك هيا..

الفصل العاشر:

عندما نتحد مع من نُحب.. مع ما نخشى منه وعليه.. عندما نقف أمامه وجهًا لوجه.. حينئذ العالم كله سيستجيب لنا.. لا بل لن نقلق من مراقبته لنا وانتظاره بلهفة لحظة ارتكابنا لأتفه خطأ لكي يحكم علينا بالإخفاق والنهاية.

هكذا قال لها «عمير»، لفّها بعبق كلامه المنمنم بلهجة عراقية اكتسبها من حكايات جدته البغدادية «سميرة». بيد أن سونيا لم تترجّل عن صهوة عزلتها لترافقه حبيبةً استجابت لتوها والدمع ينفر من عينيْها لنداءاته واستجداءاته العشقية، بل عادت لمزاولة مهنتها كنادلة في مطعم أبو طوني، وفي أوقات الفراغ تنزوي معه إلى ركنها المفضل في الشرفة البحرية، عادت سونيا لا لشيء فقط لأنها استغربت ولعه بها وتجاهله لكل ما ألمّ بها من آلام ومآسٍ، ولأنه لم يبلغ عنها الشرطة لكي تلقي القبض عليها وتعيدها إلى رام الله، عادت هذه المرة لتضبط الصوت في داخلها، ذلك الإيقاع الصاخب الذي لم تتوانَ عن التخفيف من حدّته هذه المرة فهي لا تستطيع، هكذا تقول لنفسها لا أقدر على هذا السخاء العشقي المحموم فأنا الملعونة والمنبوذة لن أنجذب إليه، لن يصطادني عمير بعيْن عطفه وحبه اللامحسوب لي، هو الأشد جنونًا مني كيف لم يتوخَّ حساب

العواقب والتداعيات، لا، بل أنا المجنونة منذ يوم يومي كيف لا أتجنب عشقه الوخيم وأبتعد؟ أن أقول له كفى أيها الأحمق ما الذي تفعله؟ هل جُننت؟

غير أنها في فضاء خوفها لا يسكنها زمانٌ يخطّ لحظة في فؤادها وكيانها اللاجئ، حين تؤكد حاجتها إلى تلك الهنيهة، موجة هادئة من بحر يافا تتوسدها لأجزاء من الوقت المسروق، من نكبتها والتباساتها، موجة دفء لم تميز سونيا من أين استمد حرارته، موجة لا تغرق فيها ولا تسحبها إلى أعماق المجهول، فهي تدربت على عدم الانصياع لنداء قلب مُنهك لم يعد يُميز أي شيء في فضاء الخوف، هكذا تبارز نفسها وتواجه سنية التي في داخلها وهي تسلك طريق الشاطئ هذا الصباح ماضية إلى المطعم، لا لتعمل مناوبة صباحية بل لتشاركه الإفطار برفقة البحر، دعنا من المساء قالت له البارحة «فأبو طوني» بات يمتعض من إهمالي للعمل وانصرافي إليك في الشرفة، دعنا يا عمير نتناول إفطارًا شهيًا في الشرفة بعيدًا عن الازدحام والأعين والعمل المرهق.

ها هي في الطريق إليه ربما على الأكثر صديقة لكنها لن تكون أبدًا حبيبة كما قالت له أكثر من مرة بحدّة تارة وبهدوء تارة أخرى، هي الباحثة عن حديث دافئ ومائدة يشاركها القهوة عليها رجل جذاب يقدم التحية لجمالها وألقها، عن ركن هادئ تُعوّض فيه ضجيج أيامها السابقة، تبحث عن جاذبية تثبت أنوثتها وتعدّل مسارها، عن كلام معسول بالدفء والنرجس والحب يرمّم ما تداعى وتدمر من قلبها، ولكنها لا تريد حبًا، بل تريد حبًا، لا تريد عمير، بل تريده، تبحث فيه عن ناصر، وهو يبحث فيها عن شهرزاد ولياليه فلا تصمتي يا سونيا وقُصّي كل القصص والكلام المُباح فمن يتوقف عن الكلام سيموت عندما يطلع الصباح، وهذا الصباح تمشي إليه هي

برفقة البحر، منذ أن أحاطها بشغفه أمعنتْ سونيا بتجاهل الماضي. لم تنكره بل بدت كأنها عقدت معه اتفاقًا سريًا يقضي أهم بنوده بعدم تحرّش أحدهما بالآخر، لا تمسّني الآن أيها الماضي، اعلم أنني سأعود إليك بعد قليل امرأة مكسورة مُلطّخة بالقذارة والخيانة، ولكن دعني الآن أتوسّد موْجتي المؤقتة موجتي الناعمة لا لشيء.. لا لحبٍ يهز فؤادي بل لندىً حطَّ لتَوِّه على أشجاني ليعيد الألق لأشجاري وأزهاري.

لتفي بوعدها، الوعد الفجري الذي قطعته على نفسها أمام عمير وأغانيه، حيث عادت إلى المطعم سونيا كاملة بلا سنية، ألقة.. جذابة.. مفعمة به، لم يَتَدخَّل أبو طوني بشؤونها الخاصة ولم يُعقِّب، بل نصحها وطالبها بأخذ الحيطة والحذر، وهي لم تدخر حذرًا فحسب بل خطّتْ حدودًا وطالبت عمير بعدم الاقتراب منها، فلم يقترب غير أنّه لم يقتنع في أجواء علاقتهما الجديدة والغريبة بحيرتها الدائمة وارتباكاها في التعامل معه ولقائه في المطعم، بالإضافة إلى عدم تلبيتها لرغبته بالخروج برفقته خارج حدود المطعم وشرفته البحرية، كما لم تدعه إلى بيتها ولم تُلبِّ هي طلبه بذلك، قالت له: «لنا فقط هذا الركن وهذه المائدة البحرية نتسامر عليها ونتبادل انكساراتنا». نتجاذب أطراف جنوننا وأحلامنا ثم يمضي كل في طريقه. لم تنتبه سونيا إلى تعلقه وولهه المتصاعد بها، إذ نالها الكبرياء وعزّة الأنوثة، تألّهتْ مرة واحدة في حضرته ليبتعد هو خاشعًا في محراب عشقها، تدلّلتْ عليه ولكن هل تلاعبت به؟ تسأل نفسها في الطريق إلى إفطاره ومائدة صباحه، ربما تلاعبت به، ولكنها في قرارة نفسها كانت على يقين راسخ بأنّ الجنون وحده هو من يحكم علاقتها به وليس المنطق، صحيح أنّها لا تميّز أو ترفض أن تميّز وتتعرف إلى الأشياء والمحددات المُكوّنة للواقع من حولها غير أنها على يقين أنّ ما يجمعها به هو هبلها من جهة واندفاعه القلبي المحموم بحبٍ شرقي نحو أسفل شرفتها.

- يا مجنون.. أنا عربية.. فلسطينية.. هاربة.. مكسورة.. ماذا تريد مني؟

- الميناء.

- لكنني لا أحب البحر ولا أتقن السباحة.. فكيف آكون ميناءك؟!

- كوني ملجأي إذن.

- أنا؟! ملجأ؟! أمٌ مُشردة لاجئةٌ.. فكيف أكون ملجأك؟!

- سونيا.. تحدثي اللغة التي ينبض بها قلبك حتى أتعلمها وأقول لك بكلماتها أنني أحبك أحبك أحبك.

- أنت مجنون حقًا!

- أنا مجنون ليلى.

- ولكن لن أكون ليلى حتمًا!

كانت تهرب من توسلاته إلى المزيد منها، تضحك تبتسم تتنهد تمتلئ دفئًا ونرجسًا دون أن تنجذب إلى ناره هي الفراشة التي لا تريد أن تحترق الآن، يكفيها ما أصاب قلبها من حرائق، هي ابنة الثلاثين في أيلول اللحظة الراهنة من عام 1997 تمضي إليه يزفّها البحر في هذا الصباح اليافاوي العطر.

حسَبتْها جيدًا سونيا.. إذ لقَّنتها سنية كل ما يقيها لوعة حب عاصف عاجلها به عمير، سونيا انتبهي جيدًا لا يوجد وقت للعب هنا، فهنا ملجأنا المؤقت وريثما تأتينا أم حسين بالبشرى وتعيدني إلى رام الله، سأغرقك في البحر يا سونيا وأعود، كوني حورية بحر كوني عروس يافا ولكن لا تورطيني بالمزيد من المتاعب فأنا لم أعد أحتمل، فأنا مكسورة ومجروحة

يا سونيا، ولكن سونيا تندفع، تنزع عنها سنية وتمضي إلى مسارات الجنون والمزيد من كبرياء الأنوثة، وتقيؤ الماضي وذلك النقص الحارق الذي أذواها على مدار ستة عشر عامًا، ها هي تريد أن تمحو عن معصميْها أثر حبال صابر القنبية، أن ترقص مع قلبها رقصة واحدة أخيرة قد تكون رقصة الموت، ولكن لا ضيْر فليكن المهم أن أُزهر كبرياء وشغفًا وأنوثة. ما الذي حدث؟ لماذا تعثرتِ بعمير يا سونيا؟ أيُّ قدر مجنون جمعك به؟ لماذا لم تقع صدفة آلهة ما لتضع أمامك رجلاً ينطق عشقًا عربيًا، أو فيئًا فردوسيًا قد يشي بناصر الفدائي الحبيب، هكذا لا ترحمك الأقدار إذ تعصف بك وتصادق على جنونكِ وعليك، لتزغرد لك برفقة عمير ثم لتلعنك في السر وتنبذك وأنت تبوحين له جراحك بالعبرية، نعم بالعبرية يا سونيا تسردين له القصص قصص الحزن الطويلة وهو يصغي ويغوص ويعشق ويُشغف بك أكثر وأنت سعيدة جذلى منتشية بإكليل من نرجس ونرجس ونرجس.

بيدَ أنّك لا تختنقي ولا تغرقي ولا تحطمي مراياك، بل تمعنين في الشرفة وعمير وعدم الالتفات إلى ما ورائك من مصائب ومصائر.

تلحظين تلك النظرات الجانبية، كانوا يرمقونك شزرًا على مضض وأنت ماضية إليه في اللحظات التي تأخذين فيها استراحة من العمل، يتلصص عليك زملاؤك من النادلين والعمال العرب، ما الذي يعجبها بهذا الإسرائيلي؟ ما الذي تفعله سونيا بحق السماء؟ ولكنك أنت تُحصين وتصدّين سهام أعينهم المنهمرة عليك تصرين على الجلوس إلى مائدته، بل كنت تحترقين وأنتِ تحاكمينهم، قلبك كان يئنّ ولكن نبضه كان أعلى وأقوى من الاثنتين. لن يفهموني أبدًا عمير مجرد موجة.. عمير مجرد بسمة.. عمير مجرد أغنية أي أغنية شئتم، ولكنه لن يكون أبدًا موال عشقي كما تعتقدون، فهل كانت حقًا كما تدعي صامدة أمامه بارعة في الكر والفر مدركة للحدود التي رسمتها؟

لقد فاجأها عمير بكل هذا السخاء من الدفء والحب، طيلة حياتها الهبلة، لم تتوقع سونيا أو سنية يومًا أن يُحيط بها رجل بحبه الجارف هكذا، لم تتوقع أن ثمة شخصًا في هذه الحياة مجنون أكثر منها، هي التي أوقَفَتْ بوعدها وقالت له ليلة توسله إليها بمواله الحزين اذهب إلى بيتك يا مجنون وأعدك بجنوني أننا سنلتقي غدًا في المطعم، ثم التقيا وتناولا عشاءً شاركهما فيه «أبو طوني» الذي سُرَّ كثيرًا بعودتها إلى العمل، وبذلك الودّ الذي جمعها بعمير، استجابت مدركة تمامًا أنَّها ستحصد ما زرعته في قلب عمير، من لوْعة وحب وجنون، إذ حاصرها بشدة أكثر من السابق، وصار يزورها كل مساء في المطعم لا ليتناول العشاء فحسب بل ليستأجر من زمان يافا لحظات مسائية تجمعه بها على الشرفة، وسونيا تبارك هذا وتستجيب إليه. بقدر وجع قلبها وتقلّب ماضيها فوق جرحها الملتهب كانت تندفع نحوه مدعية الحذر والمنطق. أي منطق يا سونيا؟

وهي في الطريق الساحلي إليه مشيًا على نبض القلب ورمل يافا الناعم، تتذكر ذلك المساء الذي قسى عليها فيه كثيرًا وجرحها بحبٍ لا محسوب -ومتى كان الحب محسوبًا؟- حينذاك كان مرتبكًا على غير عادته المتمثلة برباطة جأش حضوره الذكوري المهيب، لاحظت هي هيئته المضطربة والحزينة فتسأله بألقها الذي استمدّ سحره من مساء يافا الساحر:

- ما بك يا عمير؟ هل ثمة شيء يستدعي هذا الحزن؟

رمقها بصمت ثم خفض بصره مجددًا نحو المائدة، احتارت هي فأشعلت سيجارة دون أن تلوي على شيء، فهي باتت تعلم أنَّ أيّة محاولة لاستدراجه إلى حديث وهو في أتم الارتباك والحزن محكوم عليها بالفشل، إلى أن قال هو بصوت خفيض مضطرب:

- سونيا أنا أعرفك منذ عدة أشهر.. وآن الأوان لكي أفضي لكِ بما أفكر به.

سألته بريبة: وما الذي تفكر به؟

- أنا أعرض عليك الآن إلقاء كل ماضيك وراءك مرة واحدة.. وتعالي لنبدأ حياة جديدة معًا.

- وكيف ذلك؟

- أنا بإمكاني أن أوفر لك إقامة في إسرائيل.. أستطيع أن أُدبّر لك بطاقة هوية إسرائيلية.. لا بل جنسية إسرائيلية تامة.

سألته بعصبية: كيف هذا يا عمير كيف؟

- دعينا نستغل وضعك.. هم هناك في رام الله يقولون عنك أنك خائنة.. أنا لدي صلات في وزارة الأمن الداخلي.. وهناك إمكانية أن تكوني داخل برنامج تأمين وحماية العملاء.

هبّتْ واقفة. دفعتْ الكرسي إلى الوراء بشدة ثم قالت له بعصبية طالت حدُّة صوتها:

- حتى أنت يا عمير! حتى أنت تعتقد أنني خائنة.. تريد أن تجعلني خائنة حسب المقاييس الإسرائيلية؟!

- سونيا اهدئي أرجوك.. أنا لا أقصد..

قاطعته بحدة وهي تنسحب من أمامه:

- أنتم كلكم هكذا.. تريدون فقط تحطيمي وجعلي خائنة رغمًا عني.. أنت مثلهم هل تعتقد أن عدة لقاءات معك ستجعلني

مفتونة بك؟ أنا لا أحبك يا عمير.. أنت مجنون غبي.. بأي لغة تفهم؟!

جمع حضوره أمام عاصفتها الهوجاء ثم وقف وأمسك بيدها وهي تهمّ بالعودة إلى داخل المطعم، توسلها قائلاً بعربيته الركيكة:

- ما تروحيش يا سنية أرجوك ظلّي معي.

حررت يدها من قبضته بنفور وغضب قائلة بحدّة بالعبرية:

- لا تناديني سنية.. من أنت لتناديني سنية؟! أرجوك كفى لا أريد مزيدًا من الفضائح.

هكذا فجّر في وجهها ألغام عشقه، لم يكن يعلم كيف يقنعها أنّ حبه لها لا يكترث بالواقع المتخبط الذي يعيشان فيه، يكفي العيون يا سونيا، يكفي ابتسامتك الساحرة يا سنية، بل يكفيني أنا عمير المجنون اليهودي العراقي صوتك المسائي الأثير ومسحة حزن أحلم بإزالتها، أريدك، أريد أن أبدأ معك حياة أخرى، حياة جديدة، لا خيانة فيها ولا رياء ولا التباسات، أنتِ براءتي وطهري، أنتِ كل هذا البحر، وأنا لم أقصد أن أجرحك وأن أسيء إليك.

توسل إليها منكسرًا مُتذللًا على عتبة عزلتها المتجددة، أنا مجرد رجل أحمق أخذه دوار عشقك ولا أملك سوى إثبات ذلك من خلال السعي الجاد إلى استقرارك هنا، وابتعادك عن التباسات الماضي المخيف ورائحة الموت المنبعثة من هناك، نعم أنت سونيا لا لن أناديك سنية، ولكن لا تزعلي مني وعودي معي ليس من أجلي فحسب بل من أجل يافا والبحر، ولكني لا أحب البحر يا عمير قلت لك ألف مرة أنا ابنة الجبال هناك لدي مملكة سرية في جبل بعيد اسمه جبل المكسور، لدي هناك عرش من زهر اللوز

سأعود إليه بعد قليل فانساني أرجوك، أو على الأقل خفّف من أوْج العشق وخلّده في ذكرى جميلة عابرة فأنا لم أعد أحتمل.

لم يقصد عمير في ذلك المساء أن يؤكد خيانتها، كان يسعى فقط إلى إقناعها بل جرفها إلى نهره المتدفق بالحب النقي، هذا ما كان يُبديه دمعًا لها في أمسياتها البحرية معًا، وهي بدورها لم تجافه كثيرًا، لم تعاقبه بالهجران، لم تعاتبه أيضًا كحبيبة جرحها رجلها البهي، بل تنازلت من جديد ولكن هذه المرة لأن قلبها آلمها بصدق من شدة حب عمير لها، قلبها أوجعها لأنّ هذا الرجل يعشقها ومستعد لفعل أي شيء في سبيلها، هذا ما رأته في وميض عينيه ووجهه، وجهه الذي طالما تشوّفته وفضّتْ أسراره سنية التي قالت لسونيا للصدق أقول لك: إن وجه هذا الذي اسمه عمير لا يشي بخبث ولؤم وخداع، ولكن ما العمل؟ وأين المفر يا عزيزتي سونيا مادمت أنتِ ملعونة وهو مجنون أصابته لوثة عشق هبلتْ فؤاده وعقله؟ لا مفر سوى التأهب القلبي الذي لا يسمح بتسلل مشاعر عمير الجارفة إلى داخلك، وانتظارك المرير لما ستقذفه في وجهك أم حسين بعد قليل.

في الطريق إليه تُطربها وشوشة الموْج الهادئ لترنّم صباحها بأغنية فيروزية:

« ليالي الشمال الحزينة ضلّي اذكريني اذكريني

ويسألْ عليّ حبيبي ليالي الشمال الحزينة «

وتمضي، موجة، موجتان. ثم تقترب من المطعم في الثلاثين من عمرها الوردي، انظروا إليها! من يراها الآن.. من يرى الحورية لن يصدق أنّ ثمة عالمًا آخر يترقب عودتها أو أن يكتشف صلة تمتّ إلى زوج مخبول وثلاثة أطفال يرتجفون من شدة البرد وجوعهم لحليب الأمومة:

«يا حبيبي أنا عصفورة الساحات

أهلي ندروني للشمس وللطرقات

لسفر الطرقات.. لصوتك ينَدهلي مع المسافات

ويطل يحكيلي الريح الحزينة.. ليالي الشمال الحزينة.»

يا بحر البسني ثوبًا من موجٍ ولآلئ وخذني إليك يا بحر، تخطر غزالة على شاطئ يافا وتدندن فيروز، تصدح بالعربية سنية وترقص وتتهادى سونيا في الطريق إليه:

«يا حبيبي وبحبك على طريق غياب..

بمدى لا بيت يخبّينا ولا باب يا حبيبي

خوفي للْباب يتكسّر شي مرة بين الأحباب

وتطل تبكّيني الليالي الحزينة.. ليالي الشمال الحزينة.»

تدخل المطعم. تُحيّي زملاءها بتحية صباحية لطيفة، خفيفة تدلف إلى الشرفة إلى حيث يجلس عمير إلى المائدة المحاذية لحاجز الشرفة المطلّة على البحر، تدنو منه. امرأة جميلة لا أقل ولا أكثر سروال جينز أزرق باهت كما تفضله، يكسو مطالعها الفاتنة قميص أسود فضفاض لا يطغى بحريره على شعر مسترسل كليلٍ جُنّ لكي لا يداهمه فجر، وقوام رشيق لا يمسّه ماضٍ عتيق.

هي الآن سنية وسونيا معًا: صباح الخير عمير.

يصحو من حلم بها على حلم معها، يسترق ابتسامة مجافية لرحابة الصباح وإحتفائه بها:

- صباح الخير يا جميلتي.

تجلس مقابله إلى المائدة ثم تسأله بارتياب:

- لماذا أنت حزين هكذا؟

- إنه ليوم ومفجع يا سونيا.

- لماذا ما الذي حدث؟

- ليلة أمس قضت الأميرة ديانا وصديقها عماد الفايد نَحْبَهما في حادث سير مروع في باريس.

تسأله مستغربة بإحراج: ومن هما هذان.. عماد وديانا؟

يُجيبها مُحبذًا براءتها على جهلها بالكثير من تفاصيل وأحداث الواقع والعالم من حولها:

- ديانا جميلة الجميلات.. أميرة الأميرات.. قتلها الجبناء.. لا شك لدي بهذا.. قتلوها لأنَّها أحبتْ رجلاً غريبًا ليس من قوميتها ودينها.. لقد كانت قصة حبها مؤثرة وجميلة.. ديانا ودودي.

تسأله بدلال تهكمي ساعية نحو طرد أجواء الكآبة التي لا تليق بصباح يافا الهادئ:

- وهل أميرة الأميرات رحمها الله أحلى مني؟

يرد عليها بابتسامة تشرق في وجهه لتبدد ملامح وجهه: أنت ملكة الملكة لا تقارن بأميرة.

تتورّد وجنتاها من غزله الصباحي، تُنكس رأسها خجلًا ثم تقول بخفوت:

- أنت حساس وعاطفي جدًا يا عمير.

يقاطعها بهدوء وتهذيب: أنا متعاطف مع قصة الحب هذه لأنها تشبه قصتي.

تسأله بلا دلال هذه المرة: أي قصة؟!

- قصتنا.. قد يقتلونا معًا ولكن ليس بحادث سير.

- عمير.. أرجوك لا تعد الآن إلى مسلسل الحب الخاص بك.. دعنا نتناول فطورنا بهدوء.

يختصر حدتها بوسامته وابتسامته الجذابتين: حسنًا.. كما تشائين.

اليوم، هذا الصباح الذي استيقظ فيه العالم على مصرع الأميرة ديانا وصديقها عماد في ليلة أيلولية من عام 1997، الآن في تمام الساعة العاشرة والنصف صباحًا وأثناء تناول الفطور مع عمير تحط عليها أم حسين على حين غرة، تداهمها فجأة كموتٍ محتوم، من الخلف جاءتها لتقتحم صباحها بكلمات عربية لاذعة وحدها سنية تعرفها لا سونيا:

- صباخ الخير يا عروس.. أرى أنكِ مبسوطة جدًا هنا.

تسقط الملعقة من يدها، تلتفت إلى مصدر الصوت، ترتعد.. تقف أمام دهشة عمير واستغرابه من أمر هذه المرأة العربية المُحجبة التي اقتحمت طقسهما الصباحي بفظاظة. سنية ترتبك، تفقد رباطة جأشها ثم تدنو من أم حسين لتعانقها مرحبةً بها بتلعثم واضطراب:

- أهلين خالتي أم حسين.. لماذا لم تهاتفيني حتى أستقبلك في البيت؟

تقابل العناق المرتبك أم حسين بجفاء وبرود ثم تدفعها عنها كلعنة:

- أردتُ أن أفاجئك.. ولكن يبدو أنني أزعجتك ونكّدتُ عليك.. من هذا العريس؟

تسألها بتهكم وهي تتفرّس في ملامح عمير الذي لم تتوقع أن يكون إسرائيليًا. تتخبط سنية. لا تجيب. تنكس رأسها. ليشرع عمير في استيعاب المفاجأة، يقف بجانب المائدة ثم يقول بهدوء وبساطة لغته العربية:

- أهلاً بك سيدتي.. أنا عمير وأقيم هنا بالجوار.

لا يقول لها بأنه صديق سونيا أو على الأقل زبون في المطعم، ولا يعلم أيضًا أنّه سيشعل النار في يافا كلها، تنفر منه أم حسين.. تتراجع إلى الوراء خطوتين، تضع كفها على فمها لتخفف من حدة شهقة مريعة ثم تقول بتعجب:

- يهودي يا سنية! قاعدة بتفطري وبتضحكي مع يهودي يا سنية! لا والله ما كذبوا، وما ادعوا، فأنتِ كما قالوا بالفعل.. لقد خدعتيني واستغليتيني يا خائنة.

ثم تدنو من سنية، تهزها من كتفيها، سنية ترتعد، ترتعش، تغمض عينيها دون أن تلوي على شيء، تلهث، فتقطع أنفاسها. تهزّها أم حسين بقسوة ثم تصرخ بوجهها:

- الحق ليس عليك.. الحق عليّ أنا التي صدقتك وخاطرتُ بسمعتي من أجلك.. ما علينا أنا هنا لأقول لك إن السلطة الفلسطينية فتحت أبواب التوبة للعملاء والخونة الهاربين إلى إسرائيل مُتعهدة بحمايتهم في حال عودتهم.. ولذلك بإمكانك العودة.. لقد تعهدوا لي بحمايتك.. ولكن يبدو.. أنك مرتاحة و..

تقاطعها سنية بصوت مختنق مرتعش كحشرجات موت:

- بَسْ أنا مش خاينة يا أم حسين.. كيف أتوب وأنا لم أخطئ.. تريدين مني أن أعود خائنة بطريقة شرعية؟!

تردّ عليها أم حسين بصرامة استمدّتها من حضور عمير العاجز عن فعل أي شيء:

- وما هذا الذي أنتِ فيه؟ هذا العرس ما هو؟ أليست هذه خيانة بأم عينها؟ من هذا؟ قولي لي هيا.. هل هو أخوك أم أبوك؟ هيا أجيبي لعنك الله يا خائنة.

تميل عليها سنية فجأة. تحضنها بحرارة، وبكاء، تنهار على أم حسين بتوسل:

- لأ.. لأ.. أنا مش خاينة.. ساعود معك.. ساتوب.. سافعل أي شيء.. أنا لا أعرف هذا الرجل.. إنه مجرد زبون هنا.. لا أعرفه صدقيني مشان الله.

ولكن أم حسين تصدها وتدفعها عن صدرها بجفاف ونفور، تتعثر سنية، تترنح، ثم تستدير أم حسين لتعود أدراجها وهي ترغي وتزبد، تختنق سنية توخزها ألف إبرة في دمها، تزحف نحو رئتيها، ينتابها إحساس غريب، ألم عظيم كأنه تماس كهربائي أصاب حميم قلبها، وميض هائل في أجواء الصباح الذي انقلب على حين غرة إلى ليل منكوب، ترتجف، تتعرّق، تختنق، لا ترى شيئًا، تُعمي عينيْها غشاوة سوداء، تنادي أم حسين بصوت مبحوح متواصل في أملها الأخير في هذه الحياة. لا تستجيب لها أم حسين ولا تلتفت نحوها، يقترب منها عمير ليواسيها ويهدئ من روْعها، تصدّه عنها ثم تخطو خطوتيْن نحو حاجز الشرفة ثم دون أن تتردد للحظة تقفز. إذ يناديها البحر أن اقفزي فأنا أنتظرك منذ زمن، اقفزي. تقفز سنية.

في الأمتار الهوائية المعدودة مابين الشرفة وبحر يافا آخر ما سمعته سنية صراخ أم حسين وعمير معًا، ثم لمحت غشاوة زرقاء ثقيلة ثم يدين

قويتين تنتزعانها من موت ليس من نصيبها ولن يتربّص بها الآن حيث قفز عمير من وراءها مباشرة لإنقاذها، أليس حب حياته البريء العاصف؟

***

في ذات اليوم الأيلولي، في مسائه تحديدًا سنية ممدة على سرير أبيض، داخل حجرة في مستشفى «إخيلوف» الواقع وسط تل أبيب، إبرة مصلَ المدعمات -الجلوكوز- مغروزة في ذراعها اليمنى، وهي في لُجّة النوم ساكنة.

قال الطبيب المشرف على قسم الطوارئ لعمير وأم حسين و«أبو طوني» الذين حملوها إلى المستشفى، أن حالتها مستقرة الآن ولا يوجد خشية من حدوث مضاعفات خاصة بعد لحاق عمير الشجاع بها، وإنقاذها من الموت غرقًا رغم أنها شربت نصف بحر يافا كما قال الطبيب ممازحًا الموكب الصغير القلق على صحة سنية.

دلف عمير إلى الحجرة حين كانت هي على وشك أن تطفو على موجتها عائدة من أعماق بحر يافا، تململت في سريرها الأبيض، هزّتْ رأسها ببطء، أنّتْ ثم تنحنحتْ لتطرد غُصّة البحر المالحة، فتحت عينيها ببطء وإنهاك شديديْن، تلبّستْ عينيْها السوداوين غشاوةٌ حالت دون رؤية واضحة للطيف الواقف بجانب السرير. أغمضت عينيها ثم فتحتهما من جديد. فركتهما براحة يدها اليسرى، وخز الإبر في دمها ما زال يؤلمها، شعرت بالألم يعود إلى التهامها، لم تتذكر شيئًا، انقطع شريط الأحداث الماضية ثم لمحتْ الطيف المحاذي لها، قالت بصوتها المبحوح باستغراب ودهشة اكتستْها لغتها العربية ذات اللهجة الريفية:

- ناصر.. هل هذا أنت يا حبيبي.. ليش إتأخرتْ.. وين كنت.. هل جلبت لي اللوز؟! هل معك لوز حلو؟!

ثم ضحكت بخفوت وهي تُحَدِّق بعمير بعد أن انقشعت الغشاوة، اقشعرَّ بدن عمير من مخاطبتها له بهذه اللهجة، تفاجأ سائلًا نفسه قبل أن يسألها هي عن صحتها من هو ناصر هذا ومن أين يأتيها باللوز؟! وما إن استعاد حضوره حتى اقتحمت أم حسين الحجرة على حين غرة كعادتها، لتزهق ما استرجعه لتوّه في حضور طالبة منه بعصبية وضيق مغادرة الحجرة، طردته بلغة عبرية، لا لُبس فيها، وانصاع منسحبًا من أمامها تملؤه الحيرة والسخط معًا من غرابة حال سنية ومباغتة أم حسين، التي دنت من سنية، لمستْ جبينها بحنان مدفوعة بإحساسها بالندم والذنب لما تسبَّبته لها من ألم، قالت لها بعد أن قبّلتْ جبينها:

- سامحيني يابنتي.. فأنا قسوتُ عليك بشدَّة اليوم.. ولكنني جُننت عندما رأيتك جالسة مع هذا اليهودي.

لم تتجاوب معها سنية بل حدقتْ بها بنظرات خاوية بلهاء أثارتْ حفيظة أم حسين التي سألتها باستغراب:

- سنية مالك حبيبتي؟! مش عارفتيني أنا خالتك أم حسين! سامحيني يا سنية أنا غلطت بحقك.

إلا أنَّ سنية لم تستجب. أشاحت بنظرها عنها ثم قالت لها بانفعال طغى عليه صوت أنفاسها المتصاعدة:

- وين رحتي بناصر؟! ليش طردتيه؟! أعيديه إلى هنا.. أريد ناصر.. انصرفي من هنا من أنتِ؟! إنتي ستّي إم ناجي وين ناصر يا ستي؟! ثم أخذتْ تصرخ وتنادي كما لو أنَّ ناصر يقف وراء الباب، حَنَتْ عليها أم حسين ساعية إلى تهدئة روعها، قالت لها بصوتها المختنق بالبكاء والفجيعة:

- سنية يا بنتي اهدئي.. هذا ليس ناصر.. هذا يهودي يا مجنونة.. خلص اهدئي.. سأعيدك إلى رام الله غدًا.

- لأ.. لأ.. هذا مش يهودي.. يا كذابة هذا ناصر.. اغربي عن وجهي يا فاجرة.

فزعتْ أم حسين من انهيار سنية المفاجئ وانخراطها في نشيج بكاء عارم، فانسحبت من أمامها بعد أن عجزت عن تهدئتها، وما إن رآها عمير خارجة مضطربة باكية من الحجرة، حتى تقدم يريد الدخول فنهرته أم حسين بقسوة طالبة منه أن يدع سنية لترتاح قليلًا فهي مصدومة الآن.

وسنية بمفردها في حجرة المستشفى..

تململتْ، ارتجفت، حاولت النهوض من سريرها ولكنها عجزت، إذ ما زالت الإبر تنخر دمها بوحشية، ثم هدأت مرة واحدة كما لو أنها عثرت على ما يسلّيها ويواسيها، لمستْ إبرة المصلَ المغروز في ذراعها، تأملتها بحذر ثم عبثت بها وتخلخلها ببطء ثم بسرعة ثم بعنف إلى أن تدفق الدم بغزارة من شريانها، أعجبها مشهد الدم المنساب على جلدها الأبيض، مسحته بملاءة السرير، ثم انتزعت إبرة المصل الغليظة من ذراعها دون أن تشعر بأدنى ألم وشرعت تحزُّ بها لحمها الطري، أحدثت جرحًا غائرًا كما لو أنُها تعبث بذراع دمية لا تشعر بأي شيء، فضحكت بخفوت وهي تغور في أعماق لحمها الطري الغض والدم ينساب خيوطًا رفيعة وغليظة على جسدها وفراشها وأرضية الحجرة. الدماء حولها وعليها وهي تضحك بخفوت مخيف، أصابتها لوثة دماء، هي الهبلة التي وقعت على كتفيها هكذا رأت سنية رأسها تدحرج مصطدمة بزوايا الحجرة الأربع، حاولت أن تنهض مرة أخرى، إلاّ أنُها عجزت، أصابها خدر في أطرافها ثم غشاوة سوداء أوشكت على التهامها، التهمتها، هوت من جديد وغرقت في أعماق

البحر، آخر ما لمحته ظلالًا بيضاء هرعت إلى حجرتها بسرعة وإنهمكت في إنقاذها وإعادتها إلى الحياة مرة أخرى.

***

في ردهة قسم الطورئ وقف طبيب آخر هذه المرّة بين أم حسين وعمير و»أبو طوني»، إذ هو طبيب نفسي قال بأعصابه الباردة المستفزة بأن حالة سنية تطورت، فمن الفحوصات الأولية يبدو أنَّها تعاني من اكتئاب نفسي حاد ومحاولتها للانتحار للمرة الثانية هذا اليوم لا تُبشر بخير، ولذلك يجب اخضاعها للمراقبة التامة لحين استقرار وضعها الصحي والنفسي لكي لا يتحول الاكتئاب إلى إنهيار عصبي تام.

صدمهم الطبيب بعباراته ووصفاته الطبية المحايدة الخالية من العواطف، فهو لا يعرف من تكون هذه الحالة، لا يعرف من هي سنية وما الذي تَعرضت له، صُعقوا ثلاثتهم من تشخيصه المرعب لحالتها النفسية، فسأله «أبو طوني» بقلق عن الوقت الذي سيستغرقه العلاج حتى تعود سنية إلى حالتها الطبيعية، فأجابه الطبيب أن هذا الأمر يعود إلى استجابتها هي، أوصى بإعطائها بعض الأدوية، في الوقت الذي لن يسمح فيه بتسريحها من المستشفى الآن لأن في ذلك خطرًا على حياتها، كما أنه طلب منهم ببروده الطبي التام المجافي للوْعة أم حسين بعدم الدخول والتحدث إليها طيلة ثلاثة أيام ستخضع خلالها للمراقبة والعلاج وفي حال استجابتها الإيجابية يمكن متابعة ما تبقى من العلاج في البيت، ثم انصرف من أمامهم دون أدنى مواساة أو وصفة اطمئنان، تهالكت أم حسين فوق أحد المقاعد في الردهة وأجهشت بخفوت، أدرك عمير أنَّ أيَّ حديث من طرفه سيؤدي إلى مشاجرة حادَّة بينهما فانسحب بهدوء مخلِّفًا وراءه «أبو طوني» الذي أخذ بمواساة أم حسين قائلًا:

- هدئي من روعك يا أم حسين فالذنب ليس ذنبك.. سنية عانت من ضغوطات وتحدِّيات جمّة لا يمكن لشخص آخر أن يتحملها.

أجابته أم حسين تحاول في تمالك نفسها وبكائها:

- يا ويلي عليها يا أبو طوني.. راحت سنية.. خلص هذه المرة جُنَّتْ بالفعل

ثم انخرطت من جديد في موجة بكاء عارمة فشل أبو طوني بانتشالها منها، وإقناعها في الإقامة لديه لحين تعافي سنية، إذ لم تتركها أم حسين طيلة ثلاثة أيام قضتها سنية في غياهب الهلوسة ودواء الأعصاب المُخدِّر، غابت في البياض والضباب، في زهر اللوز الاصطناعي هذه المرة، إذ عدمٌ رهيب يجول في دماغها وقلبها، هي الخاوية تمامًا بلا أحلام ومشاعر ودفء، لم تحلم، حتى الكوابيس لم تحاصرها، كانت غائبة في برزخ متجمد لا حياة فيه ولا ذكريات ولا آلام، خدّروها بدواء الأعصاب الذي ذهب بكل هواجسها وخواطرها وماضيها، لا تسكن سنية في الحاضر، لا تراود الماضي، لا تدرك المستقبل، هي الآن في بُحّة اللامكان واللازمان، ما الذي فعلوه بها؟! لقد أحالوها إلى غيمة شاردة تائهة في السماء دون أن تهتدي إلى وجهتها لتنهمر مطرًا وخيرًا، طيلة ثلاثة أيام وهي هائمة منزوية في البعيد عن عبء اليقظة وتشنجات الواقع الشرس، إلى أن سمح الطبيب لأم حسين بالدخول إليها بعد أن لمس استجابة إيجابية لمفعول الدواء:

- سنية.. أنا خالتك أم حسين يا حبيبتي.. يلاً قومي بدنا نرجع على البيت عشان ترتاحي قليلًا هناك.. ثم سنعود إلى القدس.. هيا يا بنتي.

رمقتها سنية للحظات بعينيْها المنهمكتيْن من سبات اصطناعي طويل، ثم قالت لها بخفوت وابتسامة متهالكة:

- وين كنتي يا خالتي.. كنت بنادي عليكي.. ليش ما ردّيتي عليْ؟

- ها أنا يا بنتي عندك هنا.

- أعيديني إلى البيت تعبتُ من هذا المكان.. أين أنا.. ماذا حدث؟

- لاشيء.. لم يحدث شيء يا حبيبتي.. المهم الآن استعيدي عافيتك لكي نخرج من هنا.

لم تسألها عن عمير في يقظتها المؤقتة، لا ولم تُهلوس باسم ناصر باحثة عنه، بل شرود من جديد بنظراتها الخاوية في سقف الحجرة الأبيض، ريثما جاء الطبيب المشرف على حالتها ليجري بعض الفحوصات المتمثلة بعدة أسئلة تمحورت حول اسمها وسنّها، وما الذي جرى لها وماذا تشعر الآن وبماذا تفكر، فأجابته سنية إجابات ناجحة ومثالية بدتْ لأم حسين أنّها ادّعاءات وليس إجابات، إلاّ أنّها في النهاية أقنعتْ الطبيب باستقرار حالتها النفسية لكي يُوصي بتسريحها من المستشفى، على أن تلتحق ببرنامج للصحة النفسية بالإضافة إلى تناولها للأدوية التي وصفها لها ناصحًا بابتعادها عن العصبية والتشنجات وما تتحسس وتعاني منه.

***

لم يُقفل أيلول أبواب مآسيه بعد، أيلول عام 1997 الذي تهتزّ أرضه وتتلبّد سماؤه بارتعاشات سنية وتقلباتها بين منطق وجنون، في عدة أيام تواردت عليها المصائر الجديدة المفجعة، وهي المسروقة بحق هذ المرة لا تراقب ما يحدث حولها بل تنزوي في غرفتها الصغيرة داخل بيتها اليافاوي برفقة أم حسين، إذ لم تتركها المرأة المقدسية التي أهملت أعمالها وأسرتها

في القدس، مُحمّلة نفسها ذنب ما حدث لسنية، عازمة هذه المرة على عدم العودة إلى القدس إلاّ ومعها سنية، لا لن تتخلّى عنها ولن تبعدها مرة أخرى عن محيطها العربي وماضيها القريب، فمسألة عودتها المعقدة باتت محسومة الآن، بعد أن اتخذت أم حسين كل التدابير اللازمة التي تكفل عودة تحمي سنية من براثن رجائي وزوجها صابر، عودة لا تشي بمواكب الكرامة والشرف بيد أنها تشي بحياة ستعيد لسنية كرامتها بالتقسيط إذ هي ستعود من باب التوبة التي لم تقترف ما يناقضها أبدًا.

في البيت تُخفف عنها أم حسين وتعتني بها، وتمنحها الدواء الذي أوصى به الطبيب في مواعيد محددة، لتلمس في النهاية تحسنًا في صحة سنية وإشراقة في وجهها الساحر وصفاء في ضحكتها الرنانة، لتستعيد معها ذكرياتهما المشتركة في القدس، لتصحو سنية وتنتعش أو.. كانت.. تدّعي أمام أم حسين. إذ لم تكن تتجرّع الدواء بل غصص الألم، كانت تقذف قرص الدواء من فمها خفية دون أن تلحظ أم حسين ذلك، فما الذي كان يدور في رأسها، هي التي ما إن تنزوي في فراشها برفقة وحدتها القارسة، حتى تعود إلى مداهمتها نوبات الكآبة والذعر والبكاء، مرتعدة من العودة المرتقبة عبر باب التوبة الواطئ إلى رام الله، هل هذا معقول يا سنية؟ هكذا تلبّستكِ الخيانة في لحظة وتأبى التخلّي عنك؟ أتعودين بعد كل هذا التشرد كالمذنب مطأطأ الرأس؟ ها أنتِ على مشارف الجنون، على حافة الهاوية تدبكين آخر دبكاتك، خذي دواءك.. اشربيه يا مجنونة ودعي الخَدَر يسلبك اليقظة.. دعيه يسرقك من هذا الواقع الحرام، حلّقي بأجنحة الأحلام الاصطناعية لعلّك تصلين إلى سماء أخرى.. سماء أبعد من سماء هبلك وطفولتك ولوزك لتعلقي هناك دون أدنى عودة.

وأم حسين تهدهدها كطفلة صغيرة. لا تستسلم في رعايتها، إذ تعيدها إلى سابق عهدها طفلة بريئة جميلة، تُغسّلها وتُغذيها تلاعبها، يا لقلب أم حسين.. يا لقدسية أم حسين التي لا تتخلّى عن سنية في محنة الجنون

والانهيار، تتمسك بها حتى الرمق الأخير رغم تل أبيب وعمير، منتظرة على أحر من الجمر شفاء سنية التام حتى تعود بها إلى رام الله، فهذه المدينة بحاجة إلى ذهن صافٍ وامرأة ذكية يقظة تدلف من باب التوبة دون أدنى عار أو خطيئة.

إلى أن جاء اليوم الذي طالما حدست به أم حسين وحسبت له حسابًا وخيمًا، اليوم الذي حطّ فيه عاشق لم تستوعبه أبدًا المرأة المقدسية، عمير الإسرائيلي الذي جُنّ جنونها عندما رأته جالسًا برفقة سنية في المطعم في ذلك الصباح المشؤوم.

أجابته بخفاء بعد أن فتحت الباب مواربة دون أن تفسح له مجالًا للمرور:

- ماذا تريد؟

- أريد أن أراها.. كيف هي الآن؟

- ومن أنت لتراها.

- أنا.. أنا أنقذتها.. أنا.. الرجل الذي يحبها.. نعم.. أنا أحبها.

- ألا تخجل من نفسك؟ المرأة متزوجة ولديها أطفال.. غدًا ستعود إليهم.. يكفيها فضائح فهي ليست خائنة كما تعتقد.. هي ليست مثلك أيها المغفل.. ليست يهودية.

- لهذا أريد أن أراها.. أرجوك أنا لا أقوى على البقاء بدونها.. أنا سأقنعها بالبقاء أرجوك دعيني أراها.

- لا.. أبدًا.. مستحيل.. انصرف من هنا قبل أن أستدعي لك الشرطة.

ثم صفعت الباب في وجهه بعنف دون أن تعلم أن سنية كانت تستمع

بكل لهفة وحزن لحوار عمير معها من وراء باب غرفتها، إذ تناهى إلى مسامعها صوت عمير المفعم بالحب واللهفة والخشية، وصوت أم حسين المفعم بالأمومة والوفاء، فلمن تستمع؟ لمن تصغي؟ لعمير الذي أنقذها من الموت غرقًا وحسرة، أم لأم حسين التي قالت له إنَّ سنية ليست خائنة يا عمير، سنية لها أهل ستعود إليهم يا عمير، سنية لا تحبك يا عمير أو تحبك يا عمير ولكنها هبلة.. هبلة لا تميز شيئًا.

بكت، عضّتْ على شفتها حتى أدمتها، انتفض كيانها، تعرّقتْ، داهمتها على حين غرة ذات الأعراض التشنجية المحمومة. وميض وخز. تعرق. حاولت أن تتمالك أنفاسها.. ترنحت.. تهاوت على الأرض زحفت بإنهاك وبطء نحو سريرها استلقت فيه بصعوبة ثم عمير، ثم أم حسين، ثم الماضي، كل الماضي ولوعة الحاضر قاروطة هبلة.. زوجة.. أم.. خادمة.. بستانية.. نادلة.. خائنة.. خلص لم أعد أحتمل.

تقفز عن سريرها بعزيمة غريبة مفاجئة، تدنو من مرآتها ثم تحدق ترى هالة زرقاء شاحبة تشي بالموت تفتح جارور خزانتها تنقض على الدواء بلهفة، تبتلع حفنة كبيرة من الأقراص ثم تبحث عن غرض ما في الجارور، تعثر عليه مقصّ حديدي صغير تفتحه إلى آخره ثم تشرع بأحد نصليْه الحاديْن بحز جلد رسغها الأيسر الغض، تضحك بخفوت، يسيل لعابها من فمها، تعض على شفتها كأنها على وشك بلوغ النشوة تصل إلى شرايين الجنون تقطعها ثم يغمى عليها.

***

هكذا قال لهم الطبيب انهيار عصبي تام في وظائف الجهاز العصبي والنتيجة اكتئاب حاد أدى إلى ظهور أعراض ما يسمى بالطب النفسي مرض.. انفصام الشخصية.. ماذا؟ للأسف لا يمكن إعادتها إلى الإشراف الأسري حتى وإن كان على مسؤوليتكم أنتم.

ما العمل؟ لقد أوصيتُ بإحالتها إلى مستشفى الأمراض النفسية في «جفعات شاؤول» اليوم، يا ويلي عليك يا سنية هكذا صرخت أم حسين المقدسية وأما عمير فقد تنهّد بمرارة فيما توسل «أبو طوني» الطبيب حلًا وعلاجًا آخر دون مستشفى الأمراض النفسية، إلاّ أن الطبيب تأسف قائلًا بإستسلام أنَّ إنفصام الشخصية هو ما سيصيبها في النهاية إذا لم تتم محاصرة الاكتئاب الحاد، وهذا لا يتأتى إلا من خلال الرعاية الطبية النفسية المباشرة، لا تقلقوا مستشفى «جفعات شاؤول» يقدم خدمات ممتازة سمعته طيبة، ولكن حتى أكون صريحًا معكم فإن مسألة العلاج ليست هيّنة فقد تستغرق فترة التعافي شهرًا أو سنة وأحيانًا أكثر.

علّقتْ أم حسين بعد أن إستعادت تماسكها:

- ولكن تكاليف هده المصحّة باهظة!

رد عليها «أبو طوني» بحزم:

- أنا سأتكفل بكل شيء، لا تقلقي.

ثم تركتهم أم حسين ودلفت إلى حجرة سنية، سنية القاروطة التي كانت غائبة عن الوعي في قسم العناية المكثفة داخل مستشفى «إخيلوف»، تأملتها ببكاء خافت مجروح، دنت منها وطبعتْ قُبلة على جبينها ثم همستْ بأذنها:

- سنية قومي يا بنتي بكفي جنون.. بدنا نرجع على رام الله.

ثم انتفضت وعادت أدراجها بسرعة وعصبية إلى الردهة حيث «أبو طوني» وعمير كما لو أن مسًا أصابها، اقتربت من عمير وصفعته فجأة بشدة على وجهه قائلة بلوعة وحسرة بالعربية أنستها أصل عمير العبري:

- أنت السبب.. أنت لم ترحمها.. استغليتَ مأساتها وهبلها أيها الوغد لكي تمارس ألاعيبك وقدّمت نفسك إليها عاشقًا ولهانًا.. كيف فعلت بها هكذا كيف؟! وأنت يا أبو طوني الحق عليك أيضًا أوصَيك على البنت وأشرح لك ظروفها لتتركها مع هذا اليهودي.. هذول يهود يا أبو طوني ما بخافوا الله.. أنظر ماذا حصل للبنت..

قاطعها عمير صائحًا بغيظ من شدّة صفعتها وإهاناتها بلغة عربية فاجأت أم حسين وأبو طوني معًا:

- أنا الذي جنّنتها أم أنتم الذين لعنتوا أسمى ما فيها وأدميتوها.

ثارت في وجهه: إخرس أيها الوغد.

تدخل أبو طوني للحؤول دون مشادة كلامية حادة بالعربية في عز تل أبيب:

- اهدئي أم حسين.. إن شاء الله ستعود إلى عافيتها.. إهدءا أرجوكما.

كفكفتْ أم حسين دمعها ثم قالت بحزم:

- لن أسمح بمعالجتها في مستشفيات اليهود.. سأصطحبها معي إلى مصحة بيت لحم للأمراض النفسية هناك أشرف وأفضل.

حدجها عمير بقسوة للحظات ثم دنا منها قائلًا بحزم وسخرية مؤلمة:

- وما معنى ذلك؟ ما الفائدة؟! إذ ما الفرق ما بين مصحّة إسرائيلية وأخرى فلسطينية.. فالمرأة جُنّتْ تمامًا ولن تُميّز الفرق؟!

THE MREATH OF A DISAPPOINTED WOMAN روايات

أنفاس امرأة مخذولة باسم خندقجي

أمام قسوة الواقع، الّذي يحياه الفلسطينيّون، تسعى رواية **باسم خندقجي** إلى خلق واقع فنّي ممعن في قسوته، كأنّه بذلك يقصد تعرية وضعنا الراهن الملتبس بعد سنواتٍ من الانتفاضة الأولى الّتي انفجرت في الأرض المحتلّة للتحرّر من الاحتلال، فلم نتحرّر منه ربّما بسبب خلل فادح في التنظيم وارتكاب الخطايا والأخطاء.

لذلك وقع اختيارُ الكاتب على أسرةٍ من قاع المجتمع يمتهن أفرادها التسوّل والسرقة والخدمة في بيوت الأغنياء، تتكوّن من أب مدمن على الحشيش، وزوجةٍ أولى اسمها سنيّة كانت لها، قبل الزواج، علاقة حبّ مع فدائيّ اسمه ناصر لم يلبث أن غاب عنها بحكم المهمّات النبيلة الموكولة إليه، لتصبح زوجةً بالإكراه لصابر الحشّاش، ولتتعرّض فيما بعد لمحاولات اغتصاب من رجائي (أحد المتنفّذين في الانتفاضة، ثمّ أحد الضبّاط في أمن السلطة)، وهو الّذي يشكل بسلوكه الانتهازيّ النقيض الصارخ لسلوك الفدائيّ ناصر.

يتابع **باسم خندقجي**، بعمق لافت، مفارقات الوضع المأساويّ الّذي انتهت إليه سنيّة، ويضع المتلقّي أمام زمنين متداخلين يجري التعبير عن أحدهما بضمير المتكلّم وعن الآخر بضمير الغائب، مستخدمًا تقنيّة الإيهام بأنّنا أمام رواية يكتبها شاكر صديق مجير (الابن الأصغر لسنيّة)، ما يضعنا أمام أكثر من احتمال لتحديد مصير هذه المرأة الأمّ، بحيث يمكن تأويل هذا المصير على أنّه تعبير رمزيّ عن القضيّة الّتي ما زالت بعيدةً عن هدف الحرّيّة والخلاص رغم التضحيات الجمّة الّتي بذلت وما زالت تبذل في سبيلها.

محمود شقير

ISBN 978-9957-39-329-8

الأهلية

الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2020
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962